الشيخ يحيى الصباغ

(1296- 1381هـ) و (1878-1961م)

وفرائد حكايا الصالحين

تأليف

محمد غياث الصباغ

راجعه وقدم له

الشيخ هشام سعيد البرهاني

هذه نسخة الكترونية فيها بعض التصحيحات والزيادات الطفيفة المهمة

(1442هـ/2020م)

1432هـ/2011م

الشيخ يحيى محيي الدين الصباغ



لئن كان هذا الرسم يعطيك ظاهري   فليس يريك النظم صورتنا العظمى
فثمّ وراء الرسم شخص محجّب   له همّة تعلو بأخمصها النجما
وما المرء بالوجه الصبيح افتخاره   ولكنه بالفضل والخلق الأسمى
وإن جُمعت للمرء هذي وهذه   فذاك الذي لا يبتغي بعده نعما[1]

[1] هذه الأبيات للأمير المجاهد الشيخ عبد القادر الجزائري، رحمه الله.

تقدمة الشيخ هشام البرهاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الأطهار وأصحابه الأخيار الذين بلّغوا الرسالة وأدّوا الأمانة، ونصحوا الأمة، وجاهدوا في الله حقّ جهاده، وبعد:

فإنّ لتراجم الأعلام والرجال مقاصد عدّة وفوائد جمّة، فهي تزخر بتجارب السابقين وأحوال المتقدّمين، وتُعتبر كنوزاً ثمينة ومنابع للخير مطروحة بين يدي المتأخّرين لتشحذ همم المتطلّعين إلى الترقّي والبناء، وتجنّب الواعين من الوقوع في براثن السوء والشقاء، وهي مجال غنيّ متعدّد المنافع والفوائد، وفضاء واسع فسيح لكلّ عمل مبرور وسعي مشكور، تتنوّع فيه المشارب وتتلوّن المقاصد، والذي يعنينا هنا من ذلك كله تراجم العلماء الربانيين والورّاث المحمديين المتأسّين بسيد السادات وأشرف المخلوقات، حامل لواء المنهج الرباني الحكيم، الدالّ على الصراط المستقيم لِما فيه خير الدنيا وسعادة الآخرة سيدنا وقرّة أعيننا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

فماذا تعني تراجم هؤلاء؟ وما هو الغرض في الحديث عنهم؟

وللإجابة على هذا أقول وبالله التوفيق:

أول الأغراض وأسماها تحقيق مرضاة الله تعالى واكتساب محبته في التعريف بأحبابه الطائعين له المتّبعين لحبيبه وخاصّةِ خَلقه صلى الله عليه وسلم، فهم الورّاث الحقيقيون له صلى الله عليه وسلم، القائمون بحمل الأمانة من بعده، قال تعالى: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) [الرعد:108]. وقال جلّ ذكره: (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [التوبة:100].

الثاني: الوفاء لعهد هؤلاء الرجال وتخليدُ ذكراهم، وقد ارتحلوا عن دار الفناء إلى دار البقاء، وطواهم الثرى، فغابت أشخاصهم، فجاءت تراجمهم لتحيي آثارهم وتخلّد ذكراهم، وهكذا نرى القرآن الكريم يروي لنا أخبار الأولين من الأنبياء والمرسلين، ويحكي لنا قيامهم بواجب الدعوة إلى الله تعالى، وصبرهم على الأذى في سبيل الله، كذلك يقصّ علينا أحوال الأولياء والصدّيقين وأخبار الصالحين في قيامهم بحقّ العبودية لله عز وجلّ وصراعهم مع المعاندين الجاحدين، نتعبّد بقراءتها ونتقرّب إلى الله تعالى بتلاوتها، ونتّعظ بأحداثها إلى يوم الدين، ولو لم يعتن القرآن الكريم بذكرها، وبحفظها في آياته الخالدة المحكمة لكنا في عَماية عنها، ولقامت حجب الجهل

والنسيان دون معرفتها، وغابت عن الأجيال المتلاحقة كنوزٌ من المواعظ وشواهد من العبر وقواعد للصلاح في الدنيا والنجاة في الآخرة.

الثالث: إيقاظ الهمم، وإغراء النفوس للاقتداء والتأسّي بأحوال أهل الخير، والسير على المنهج القويم، فطبائع النفوس واحدة وتوجّهاتها للأهواء والشهوات معلومة، وانجذابها للملذّات متشابهة، فتحريضها لمعالي الأمور أمر ضروري، وتحذيرها من الاستسلام لأهواء النفوس حتمٌ لازم.

وهؤلاء الأعلام من الرجال استطاعوا بفضل الله تعالى وعنايته لهم وتوفيقه إياهم فطام النفوس وترويضها وتزكيتها، فحققوا بالمجاهدة والمصابرة حقيقة الزهد في الدنيا، وتعلّقوا بالآخرة باعتبارها الغاية والهدف، وكونها المحطة الأخيرة بعد رحلة الحياة الفانية.

فعاشوا حقيقة الإيمان، وتحققوا بمعاني الإحسان، فأشرق نور اليقين في قلوبهم، ورأوا الآخرة حاضرة مشاهدة بكلّ نعيمها ولذّاتها وعرفوا الدنيا بفتنها وعيونها وعوارها، فتميّزوا عن المتخاذلين أسارى الأهواء والشهوات والملذّات، المقيّدين بسلاسل الشياطين.

وتراجم الأعلام يضعنا أمام هذين المشهدين بكل صدق وأمانة، والعاقل الموفق يختار طريق الموفقين، ويتجنّب مسلك الخائبين الضالّين.

الرابع: الإشارة إلى المنّة العظيمة التي خصّ الله بها هذه الأمة المحمدية فلم يخلُ عصر من العصور من وجود العلماء الربانيين القائمين بواجب الخلافة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعوته عامّة شاملة دائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهؤلاء تبعاً لذلك لا ينقطعون بفضل الله تعالى، يؤكّد ذلك ثلاثة أمور معلومة للجميع وقد بشّر بها المصطفى صلى الله عليه وسلم أمته:

الأول: أنه لا تزال طائفة من هذه الأمة ظاهرين على الحق لا يضرّهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك.

الثاني: إذا افتُقد أحد هؤلاء الرجال عوّض الله تعالى به آخر يأخذ دوره ويحلّ مكانه إلى يوم القيامة.

الثالث: أنّ الله تعالى يبعث في كل قرن من يجدّد لهذه الأمة أمر دينها.

ومن خلال هذه البشائر الثلاث نقول: ما دام هؤلاء الرجال في الأمة لا ينقطعون . . فالحديث عنهم لا ينقطع، والأقلام في الكتابة عنهم لا تتوقّف، والباعث إلى ذلك معاني الحبّ والوفاء والولاء، ولِما يتجسّد فيهم من مقام القدرة في الحال والمقال، فيؤخذ عنهم إن كانوا أحياء، ويتقرّب إلى الله تعالى بالحديث عنهم إذا انتقلوا لدار البقاء، أدام الله علينا نفعهم وشرّفنا بالاقتداء بهم وبأقوالهم أنه سميع مجيب.

الخامس: بعرض سير الصالحين وذكر أحوالهم ورواية أخبارهم نستمطر رحمات الله تبارك وتعالى، ونتعرّض لنفحات الخير والبركة.

قال الإمام سفيان بن عيينة رضي الله عنه: "عند ذكر الصالحين تتنزّل الرحمة".

وهو قول صحيح تؤكّده الشواهد الكثيرة المعتبرة في السنة الشريفة المؤكّدة على أنّ الله تبارك وتعالى يُكرم عباده الصالحين فيجمع لهم الخير والبركة ويفيضها بحيث تعمّ ذواتهم وأشخاصهم وكلّ ما يتصل بهم من أحوال وأوقات ولوازم وحاجات، بل يمتدّ إلى أهليهم ومحبيهم وجوارهم، كما يشمل كذلك الحديث عنهم والمذاكرة في أخبارهم وتراجمهم.

فقد ثبت أنّ الصحابة رضوان الله عليهم لم يقتصر انتفاعهم بالنبي صلى الله عليه وسلم بما يتلقّونه من هديٍ لأمور الدنيا والدين، فالتزموا بما نقلوه عنه صلى الله عليه وسلم من سنن وآداب وأحكام، ودفعهم الحب لأن يتبرّكوا بكل ما يتصل به أو يتعلّق به من شعر وسؤر وفضل طعام، وعرق وريق وماء وضوء وقلامة أظفار، وثياب وموضع جلوس وسجود، وبما مسّته يده من دراهم وعصا ونعل، وكما تبرّك الصحابة رضوان الله عليهم بآثار النبي صلى الله عليه وسلم تبرّك التابعون بآثار الصحابة.

روى الإمام أحمد في مسنده عن ثابت البناني أنه قال لأنس بن مالك رضي الله عنه: يا أنس مسستَ يدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدك؟ فقال أنس: نعم. فقال ثابت: أرني أقبّلها. أي لأنها مسّت يد النبي صلى الله عليه وسلم.

وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن رزين: أنه نزل الرّبذة – بلدة قريبة من الشام – هو وأصحابه يريدون الحج. فقيل لهم: هاهنا سلمة بن الأكوَع صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فأتيناه فسلّمنا عليه ثم سألناه، فقال: بايعتُ رسول الله بيدي هذه، وأخرج لنا كفّه، قال: فقمنا إليه فقبّلنا كفيه جميعاً .. أي تبرّكاً بأثر يد النبي صلى الله عليه وسلم.

وهكذا مضت قاعدة التبرّك بالصالحين وآثارهم من جيل إلى جيل مع سلامة اعتقادهم بأنّ الفاعل الحقيقي والمؤثّر الوحيد هو الله تبارك وتعالى.

ومن جملة معاني التبرّك ذكرهم وتعطير المجالس بالحديث عنهم:

ما ورد أنّ عمرو بن الجموح رضي الله تعالى عنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "قال الله عز وجل: إنّ أوليائي من عبادي وأحبائي من خلقي الذين يُذكرون بذكري وأذكر بذكرهم".

وعن سعيد رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَن أولياء الله؟ قال: الذين إذا رُؤا ذُكر الله عز وجل.

وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أخبركم بخياركم؟ قالوا: بلى. قال: الذين إذا رُؤا ذُكر الله عز وجل.

السابع: عرض تراجم الأولياء والصالحين والعلماء العاملين يكشف عن عظمة ديننا الحنيف، ويدفعنا ذلك للاعتزاز به، هذا الدين الخاتم، ودعوته السامية إلى الخير المطلق، الشاملة للعقيدة المثلى، والسلوك القويم، والنظام المحكم لأمور الدنيا والآخرة.

فقد خرّجت رسالته الخالدة الأمثلة النادرة من الأعلام والرجال العظام شواهد ساطعة على أنه الأفضل والأعظم والأكمل، فهم الإنجازات الحية المعبّرة أصدق تعبير على أنه أنجع الأدواء للأمراض، وأنفع الحلول للمشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية، دون سائر الأنظمة الوضعية المطروحة في الساحة البشرية.

ومع الفوارق الجسيمة في المستوى بين الصيغتين في القدرة والإبداع نقول لمجرّد التقريب لبعد الفارق، نرى دول العالم اليوم وشركات الانتاج في ميادين الصناعة والابتكار، تنشيء المعارض الدولية والأسواق العالمية تعرض فيها إنتاجها وتبرهن بها على تفوّقها وتقدّمها.

والمولى سبحانه يعرض في كتابه الكريم شواهد عظمته وإعجاز قدرته في الكون والإنسان والحيوان والنبات من أصغر ذرّة خلقها إلى أعظم مجرّة أبدعها، يعرض كلّ ذلك لمن يعقل أو يتدبّر كمال قدرته وروائع صنعته، ويدعوهم سبحانه لأن ينظروا ويتفكروا ويتدبروا عظمته سبحانه وعجائب خلقه جل جلاله.

ومن المعلوم أنّ صفة الكمال المطلق في الذات الإلهية لا تتخلّف عن فعل من أفعاله سبحانه، ولا تنفكّ عن أي تصرّف من مظاهر خلقه، وبناء على هذا نقول وبكل ثقة واطمئنان: هؤلاء الرجال الذين تخرّجوا بهذا النظام الإلهي والمنهج الرباني لا بدّ أن يكونوا من أعظم الرجال وأفضل الأعلام على الإطلاق لأنهم تربّوا على أتمّ وأكمل وأعظم الأنظمة وكيف لا وهو مِن وضْع العليم الحكيم.

وفي هذا الجهد المبارك نطالع ترجمة لعلم من أعلام العلماء الربانيين في بلاد الشام هو شيخنا المرحوم العارف بالله الشيخ يحيى الصباغ أعدّها حفيده الفاضل الأستاذ محمد غياث الصباغ وفّقه الله.

وقد أحبّ جزاه الله خيراً أن يكون لي شرف التقديم لعمله المشكور، فلم أتردّد في قبول هذا الشرف قياماً بواجب الوفاء للشيخ رحمه الله، وقد تشرّفت بمعرفته من أربعينيات القرن الماضي، وامتدّ ذلك إلى آخر أيام حياته رحمه الله تعالى، ولا بدّ هنا من الاعتراف بأسفي البالغ على أني لم أغترف من بحر فضله مع أنّ الفرصة كانت مواتيه، لكننا معاشر الأحياء نطمع بطول حياة الأكابر بيننا فنقصّر في الإفادة منهم وكمال الانتفاع بوجودهم وتلَبّسنا بثوب التقصير الذي عبّرت عنه وصية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل فيها: اغتنم خمساً قبل خمس.

نعم لقد أدركنا ثلّة كريمة من السادة الأعلام، ففرّطنا بكمال الأخذ عنهم والاغتراف من بحر أحوالهم، ثم مضوا إلى كريم جوار ربهم وخلّفونا حيارى نُطلق الآهات ونرسل العبرات وننفث

الزفرات، وقد ضيّعنا يعلم الله الكثير من الفرص، وفاتنا الوافر من الخير فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولا بدّ بعد هذا ومن خلال اطلاعي على فصول هذه الترجمة من أن أسجّل ثلاث خصوصيات تميّز بها شيخنا رحمه الله تعالى.

وأولها: خلق الرحمة والإشفاق على عباد الله، والترفّق بهم خلال الدعوة إلى الله، عملاً بقوله تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) [النحل:125]. عرفت ذلك فيه منذ الأيام الأولى لمعرفتي بالشيخ، بل إنّ رغبتي بالقرب منه والاتصال به اشتدّت وتعاظمت منذ ذلك التاريخ لحادثة وقعت في بيتنا بمناسبة حفل المولد الذي كان السيد الوالد رحمه الله يقيمه كل عام ويقدّم خلاله الطعام الشامي المعروف بالهريسة، وذلك فرحاً برسول الله صلى الله عليه وسلم وتلبية لرغبة السيدة الوالدة رحمها الله، ففي فسحة دارنا وخلال الحفل الذي كان يُدعى إليه كبار علماء الشام يومها والشيخ المترجَم رحمه الله كان بينهم، كان أخي المرحوم الشيخ محمد جهاد وصديقه الكريم الشيخ وحيد العقاد يقومان بواجب الخدمة للضيوف، فرآهما أحد أساتذة الكلية الشرعية وكانا من طلابها المتقدمين الملزمين بوضع العِمّة البيضاء، وقد نزعا العِمّة عن رأسيهما، فوجّه إليهما النقد والتقريع أمام جمهور الحاضرين، فوقعا في حرج بالغ، ولم يشفع لهما قيامهما بالخدمة في نزع العمّة، فانتصر لهما يومها الشيخ يحيى رحمه الله والتمس لهما العذر في النزع للعِمّة أثناء العمل وخلال قيامهما بخدمة الضيوف، ولم ينس رحمه الله أن يتوجّه إلى الشيخ المعترض بالنصيحة النافعة وذكّره خلالها بالقاعدة الشرعية القائلة: إذا أمرت بمعروف فليكن أمرك بمعروف. وهكذا أوصى المربي والداعية الأول صلى الله عليه وسلم بحاله ومقاله، ومن ذلك ألا يتوجه الداعية بالانتقاد إلى معيّن بل يستعمل التعريض والحكمة في عدم الإحراج فيقول: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا .. صلى الله عليه وسلم.

الثانية: أنه رحمه الله قد طلّق الدنيا ثلاثاً، وأقبل على الآخرة فصار العاجل آجلاً والآجل عاجلاً والشهادة غيباً والغيب شهادة.

فباع كل الأملاك والعقارات التي ورثها عن آبائه وأجداده وتصدّق بكل ما يزيد عن حاجته، وما كان يبيت ومعه شيء مما يزيد عن حاجته اليومية وحاجة عياله متأسّياً بذلك بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحال خاصّة الصحابة رضوان الله عليهم ومنهم حارثة رضي الله عنه، فقد رآه النبي صلى الله عليه وسلم يمشي في المدينة فقال له: كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت مؤمناً حقاً، فقال صلى الله عليه وسلم: انظر ما تقول فإنّ لكل قول حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ فقال: يا رسول الله، عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرتُ ليلي وأظمأتُ نهاري فكأني بعرش ربي بارزاً وكأنّي أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون، وكأني أنظر إلى أهل النار يتعاوون، فقال: صلى الله عليه وسلم: عرفت فالزم، عبد نوّر الله الإيمان في قلبه، فقال: يارسول الله ادع الله لي

بالشهادة. فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتِل يوم بدر شهيداً، فجاءت أمه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، قد علمتَ منزلة حارثة مني فإن يكن في الجنة أصبر، وإن لم يكن في الجنة ترى ما أصنع. فقال صلى الله عليه وسلم: أوَ هُبِلتِ أجنةٌ هي؟ إنها جنان، وإنّ ابنك أصاب الفردوس الأعلى.

كما رآها معاذ بن جبل رضي الله عنه حين دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فقال: يا رسول الله ما أصبحتُ صباحاً قطّ إلا ظننتُ أني لا أمسي، وما أمسيتُ قطّ إلا ظننتُ أني لا أصبح، ولا خطوت خطوة قطّ إلا ظننت أني لا أتبعها بأخرى .. وكأنّي أنظر إلى كل أمّة جاثية، كل أمة تُدعى إلى كتابها معها نبيها وأوثانها التي كانت تعبد من دون الله، وكأني أنظر إلى عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنة، فقال صلى الله عليه وسلم: عرفتَ فالزَم.

فهذان الصحابيان الأنصاريان أشرق نور الإيمان في قلبيهما، وشرح الله به صدريهما فطلّقا الدنيا وأقبلا على الآخرة، حتى صارت باليقين حاضرة وهذه حال المتحققين بمقام أهل علم اليقين، وكذلك من جاء بعدهما ممن سار على دربهما واتبع منهجهما رضي الله عنهم ونفعنا بهم أجمعين.

الثالثة: ثمرة لازمة للتقوى يتفضل الله بها المولى على عباده المتقين وقد بشّر بها في قوله تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) [البقرة:282].

وهو باب واسع من أبواب المعرفة، وكنز لا ينضب من كنوز الفيض الإلهي لا يمنحه إلا للأخيار من عباده المتقين، فيقرّر المولى تبارك وتعالى بهذا النصّ المحكم أنّ التقوى والانقياد المطلق لأمر الله يفتحان للعبد أبواب المعرفة والفهم، ويكشفان له جوانب من علم الغيب، فبمقدار صدقك مع الله، ووقوفك عند حدوده، والتزامك بمعاني التقوى بمقدار ما يفيض المولى عليك من الإلهامات الغيبية والنفحات الربانية والعلوم النافعة ما لا تدركه العقول بمجرّد القراءة والمذاكرة والاجتهاد والمطالعة.

ومن هنا فقد فرّق العلماء بين نوعين من العلم، علم يُكتسب بالدراسة والمذاكرة والتلقّي عن الشيوخ والأساتذة، وهذا شأن العامّة من أهل العلم، وعلم وهبي يمنّ الله تعالى به على عباده المتقين بمحض الجود والكرم، وبالفتح المباشر والإلهام الرباني وهو شأن خاصة الخاصة.

وقد كان شيخنا المترجَم رحمه الله من هؤلاء الربانيين الذين امتنّ الله عليهم بنفحة من هذه العلوم الوهبية والإلهامات الربانية يدلّ على هذا أمور:

الأول: أنه رحمه الله تعالى لم يقتن من الكتب إلا القليل، فما كانت عنده مكتبة عامرة جامعة للعلوم والمعارف، مع أنها وسيلة ضرورية لمن أراد التوسّع في المطالعة والتمكّن من العلوم، والتحضير الضروري للدروس، كأيّ صاحب حرفة أو صنعة لا يستغني عن الأدوات والأجهزة يستعين بها على إحكام صنعته، فما كانت للشيخ رحمه الله المكتبة ولم يعتن بجمع الكتب

والمصادر، ولم يكن ذلك عائقاً عن قيامه بواجب الدعوة والتوجيه العام في المجالس العامة والخاصة في الجامع الأموي وجامع الشيخ الأكبر وفي بيته وبيوت أخوانه وأحبابه، ويشهد كل من حضر دروسه تلك أنها كانت جامعة، وتعليقاته الكثيرة تدلّ على أنه يَصْدُر عن علم دقيق وفهم سديد وحكمة عالية.

ولقد سمعته أكثر من مرّة يقول: "أنا بفضل الله تعالى أقطع ألسنة الجاحدين والملحدين والمعاندين وأتصدّى لإبطال دعوى المخالفين وردّ شبهاتهم بالقرآن وبنصوصه المحكمة". وهذا يدل على عمق فهمه رحمه الله لآيات الله ونصوصه المحكمة الجامعة الشاملة لكل خير، قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [لقمان:27].

وقد طلب مني في أحد المجالس قراءة عشر من القرآن الكريم فشرعت بعد التعوّذ بقراءة قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) [الأنبياء:101]. وتوقفتُ، فأمرني أن أقرأ الآيات التي قبلها أو أن أصلها بما بعدها كي لا يتوهّم السامع أن الضمير في (عنها) لا يرجع إلى المراد بالحسنى بل إلى النار، فالذين سبقت لهم من الله الحسنى مبعدون عن جهنم وعذابها (لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ) [الأنبياء:102].

وأحبّ أن يداعبني مرّة فقال لي: عباد الله المتقون لا تجب عليهم الزكاة! فتعجبتُ وقلت: كيف؟؟ والزكاة ركن من أركان الإسلام، فقال لي: اقرأ أول سورة البقرة، فقرأت: بسم الله الرحمن الرحيم (الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) [البقرة:1-3].

فقال لي: ما ترى في هذه الآيات؟ قلت: ألا يدلّ قوله تعالى: (ومما رزقناهم ينفقون) على هذا الوجوب؟ فقال: عباد الله المتقون من شأنهم أنهم يسارعون إلى الإنفاق من كل ما يأتيهم من رزق الله لثقتهم بأنه سبحانه متكفّل بأرزاقهم وقد أقسم على ذلك بقوله: (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ) [الذاريات:23] فامتثلوا أمر الله فأنفقوا فضول أموالهم ولم يدعوها تتراكم حتى تبلغ النصاب ويحول عليها حَوْل وكلاهما شرط لوجوب الزكاة، فلم يتحقق فيهم شرط وجوبها بإنفاقهم الدائم، فما يدفعونه ليس بزكاة بالمعنى الاصطلاحي لعدم توفّر شروطها بل هي صدقة عامة هم يسارعون إليها بوصف التقوى التي تميّزوا بها.

ومن شأن أهل العلم أنهم يحضّرون لدروسهم قبل حضورها، وإذا قرّروا أيّ كتاب من مصادر العلم بدأوا فيه من أوله ومضوا فيه إلى آخره، أما الشيخ يحيى رحمه الله فما كانت هذه عادته ولم يلزم نفسه بها فقد كان يحضر درسه في الفتوحات المكية للشيخ الأكبر رحمه الله فلم يكن يحضّر لدرسه بل كان يبدأ درسه بقراءة الفاتحة يهديها للنبي صلى الله عليه وسلم ولجميع أخوانه من الأنبياء والمرسلين وللعلماء والصالحين وبخاصة صاحب الكتاب الشيخ الأكبر، ثم يفتح الكتاب

بعد البسملة وحيثما اتفق يقرأ العبارة ويفيض بالشرح والبيان ويروي السامعين ويجيب على ما يرِد عليه من استفهام واستبيان وكأنه يحفظ الكتاب عن ظهر قلب.

قد يعترض من يقول: أليس التحضير للدروس والقراءة المنظمة للكتب هو الأفضل والأحكم؟ فأقول: نعم هذا هو الأصل بل هو القاعدة المنطقية في تلقي العلوم والفطرة التي فُطر الناس عليها، لكن الله تبارك وتعالى قد خرق القواعد لأحبابه ليُظهر فضله عليهم وعنايته بهم بكشف الكثير من الأسرار والخروج عن الكثير من القواعد فلهم رضي الله عنهم خصوصيتهم التي تغرف من بحر لا ساحل له.

وفي هذا السياق أنقل الحادثتين التاليتين:

الأولى: ذكرها لي المرحوم الشيخ ديب النشواتي وكان من محبي الشيخ وممن يحفظ كتاب الله عز وجلّ، وكان لي معه لقاء صباح كل يوم نتدارس فيه القرآن الكريم .. حدّثني أنه وقع في ضيق شديد وكرب عظيم لا يدري سببه، فخرج من بيته هائماً على وجهه لا يدري أين يتوجّه، فما تجاوز رحمه الله عتبة داره حتى وجد الشيخ يحيى رحمه الله عند الباب يبادره ويقول: هات ثمن الخروف .. فأعطاه إياه وقام فوراً بذبحه وتوزيعه على الفقراء والمساكين، وكان ذلك العلاج الشافي الذي أخرج الشيخ ديب رحمه الله من الضيق الذي كان يعاني منه.

والثانية: كانت لي قريبة عانت من مرضها كثيراً، حتى يئس أهلها من حياتها وانقطع أمل الأطباء من شفائها، وأنها أصبحت تعدّ الساعات الأخيرة في حياتها، وفي ظلّ هذا الشعور وفي وسط النهار سُمع صوت الشيخ يحيى يعلو في طريقه إلى منزل المريضة فدخل البيت وهو يحمل كمية من الخبز المشروح، فدخل على المريضة وبدأ بالقراءة لها وكان يغطيها بالخبز وهو يقرأ ويردّد الأذكار والأدعية والتعاويذ ويشير على جسدها بعصاه التي ما كان يتركها، كرّر ذلك أكثر من مرة حتى نفد الخبز الذي أحضره معه وفي النهاية أمرني أن آخذ الخبز كله وأطعمه للحيوانات وللحيوانات فقط، وفي هذا اليوم قامت المريضة من فراشها واسترجعت صحتها وعافيتها بفضل الله وعنايته.

وقد أورد أخي الأستاذ غياث في هذه الترجمة حادثة عجيبة غريبة وقعت لرجل كان يحضر مع الشيخ وثلة من أهل العلم مجلس أحد الأفاضل، فرأى الشيخ هذا الرجل يشرب كأس الشاي بشماله، فقال له بصوت عال سمعه كل من حضر: خذ الكأس بيمينك. فاستجاب الرجل وصار يشرب بيمينه، لكنه فاجأ الجميع بأنه كان يبكي بكاء شديداً وهو يضحك. فتبين بعد ذلك أنّ يده اليمين كانت شلّاء، لكنه لمّا استجاب لأمر الشيخ أعاد الله تبارك وتعالى له الحركة إليها. فغلبه الفرح والبكاء وقد منّ الله عليه بالشفاء.

وأختم كلمتي هذه فأقول:

جزى الله أخي الأستاذ غياث على هذا الجهد المبارك، ولعله حفظه الله يتابع بحثه في تلمّس أخبار الشيخ وأحواله من محبيه وإخوانه ومن المتعاملين معه، ويتحفنا به في طبعات مقبلة، فحياته رحمه الله كنز ثمين كلنا بحاجة ماسّة إلى معرفته والاطلاع عليه لتجديد ثقتنا بأهل الله وأوليائه، راجين الله تبارك وتعالى أن يحشرنا معهم تحت لواء سيد الأولين والمتقين حبيب رب العالمين وقرّة أعيننا سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وآخر دعوانا الحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الميامين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، وعلى أهل الله الأولياء العارفين، وبعد:

لقد كثرت في الآونة الأخيرة الكتب التي تترجم لحياة علم من الأعلام بشكل منفرد، وهذا ولا شك شيء يبعث على السرور، ويجلي الصدور ويحرّك الهمم؛ لأنه يدل على محبة هذه الأمة لعلمائها، ووفائها لمشايخها، وتقديرها لرجالاتها ورموزها، كما يدل على رغبة الخاصة من الناس والنخبة منهم بتخليد ذكرى الذين عملوا من أجل الأمة ورخائها، والاستفادة من تجاربهم من خلال تدوينها وتقديمها للأجيال الصاعدة. "ففي تراجم الرجال تتمثل حضارة الأمة وثقافتها وتقدمها وتأخرها، فهي معيار صادق العيار يرجو الصادقون في خدمة الأمة إنصافاً لهم، ويخاف المقصرون حكمها عليهم، فإذا لم يترجم لهؤلاء وهؤلاء؛ تضيع مواضع الأسوة الحسنة وسوء الأحدوثة من التاريخ، فيصبح الخادم والهادم على حد سواء"[2].

و"أجدادنا الأولون كانوا أهل حزم وعزم، وكانوا أصحاب فكر وبيان، فكتبوا تاريخهم كله، وسجلوا مفاخرهم ومعايبهم، وأخبار جدهم وهزلهم، فنحن نعرف عن القرون الأولى التي مرّ عليها أكثر من ألف سنة كل شيء كأننا نعيش فيها، ونجهل من أخبار القرون الأخيرة كل شيء لاسيما القرن الماضي، وهذا شيء عجيب ولكنه الواقع"[3].

في هذا الكتاب أتعرض لمحاسن بعض أهل الله وأوليائه ولآدابهم وبعض سيرهم وأحوالهم، من خلال حياة رجل شهد له أهل وقته أنه من أهل الله العارفين[4]، هذا الرجل هو جدي الشيخ يحيى بن محيي الدين الصباغ، الذي ترك أثراً طيباً في الناس، وانتفع به الخاصة والعامة، و"عند ذكر الصالحين تتنزل الرحمة"[5]، آملاً أن يكون إضاءة لمن أراد أن ينتفع بذكر أحوال الصالحين وسيرهم، فقد نقل عن الإمام أبي حنيفة (ت:150هـ) -رحمه الله- قوله: الحكايات عن العلماء

---

[2] مقدمات محمد زاهد الكوثري.

[3] رجال من التاريخ، علي الطنطاوي.

[4] عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مروا بجنازة، فأثنوا عليها خيراً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "وجبت" ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شراً، فقال: "وجبت" فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما وجبت؟ قال: "هذا أثنيتم عليه خيراً، فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شراً، فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض". أخرجه البخاري في الجنائز، باب ثناء الناس على الميت. ومسلم في الجنائز، باب فيمن يثني عليه خير أو شر من الموتى.

[5] هذه الحكمة عزاها ابن عبد البر في كتابه (جامع بيان العلم وفضله) إلى سفيان الثوري، وعزاها أكثر من مصدر إلى سفيان بن عيينة.

ومحاسنهم أحبّ إلي من كثير من الفقه لأنها آداب القوم[6]. وسئل الإمام الجنيد (ت:297هـ) – رحمه الله– عن الفائدة في مذاكرة الحكايات، فقال: الحكايات جند من جنود الله، تقوى بها أبدان المريدين. فقيل له: هل لهذا شاهد؟ قال: نعم، قال الله تعالى: (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك)[هود:120][7].

والحقيقة أنه لم يخطر يوماً في بالي أن أترجم لجدي رحمه الله، **لأسباب أهمها** قناعتي بعدم أهليتي للقيام بمثل هذا العمل، وخاصة لرجل من رجالات المعرفة الإلهية، ومحب مولّه بسلطان العارفين الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي (ت:638هـ) رحمه الله، وأنّى لي الغوص في بحر بعيد الغور ومتلاطم الأمواج، وأنا غرّ في هذا الميدان، لا أحسن فيه السباحة فكيف بالغوص؟

وبعد وفاة والدي رحمه الله، طلب مني بعض الإخوة والأحباب أن أكتب شيئاً عن حياة سيدي يحيى وأحواله، لأن أحواله مع الله جديرة أن تدوّن، ويُخشى من توالي السنين وتعاقب الدهور أن يذهب بتفاصيل تلك الأحوال وبأحداث تلك الحياة أدراج الرياح، وترافق ذلك مع قيام زوج إحدى حفيدات الشيخ بإصدار صفحات عنه مقتضبة وغير موفقة، لم تعرج على حقيقة حاله وحياته، بل اختزلَتْه في بعض كرامات لم توضع في سياقها الصحيح من أحواله مع الله، علاوة على أنه نسب للشيخ أشياء هو منها بريء، كالحجاب المسمى (الحصن الحَصين)[8]، وهو ليس له. فساءني ذلك كثيراً كما استاء له كثير ممن أحبوا الشيخ وعرفوه، فكان هذا سبباً مباشراً دعاني للنهوض لإصدار هذه الترجمة، إنصافاً لسيدي يحيى من جهة، بإظهار الفضائل التي كان عليها الربانيون والصالحون، ولحثّ الناس من جهة أخرى على التمسك بتلك الفضائل والأخلاق.

فشمّرتُ لذلك واجتهدت، وسلكت طريقاً ذا شوك، وبدأت عملي مستعيناً بالله تعالى بعد تردد وتلكؤ إلى أن انشرح الصدر، وبدأت الظروف تجري بما يساعد على إنجاز هذا الأمر، فشرعت بعصف ذهني متكرر، رحت أستذكر من خلاله كل ما كنت سمعته عن سيدي يحيى وأحواله من والدي وعماتي ومشايخي الذين مضى أكثرهم، وهم الذين خبروا جدي ورافقوه وعرفوا عنه كل شاردة وواردة، وأخذت أسجل كل ما أسعفني به هذا العصف الذهني وهذا الاستذكار والاستحضار.

---

[6] (جامع بيان العلم وفضله:509/1)، ابن عبد البر.

[7] طبقات الأولياء (24/1).

[8] ورقتان من الأدعية والأذكار الشرعية ولكن ختمت بطلاسم من أسماء الجن، يضعها صاحب الحاجة في لفافة من قماش ويحملها معه.

ثم قصدت الرجال المعمّرين، ولجأت إلى أهل الفضل المخضرمين، وخاصة العلماء منهم والصلحاء الذين عرفوا الشيخ وشهدوا أحواله، ولم أترك أحداً عرفت أنّ له معرفة بأحواله ويمكن أن يفيدني إلا وسارعت لأسأله وأدون عنه وأسجل حديثه[9].

ثم شرعت أجمع كتب التراجم أراجعها عسى أن أجد فيها ما تتحلّ به عقدتي، أبحث فيها بين السطور، وأقرأ ما وراء السطور عن سيرة مشايخ سيدي يحيى ومعاصريه من محبيه أو مخالفيه، من مؤيديه أو معارضيه، أضم النظير إلى نظيره والمثيل إلى مثيله، وأحقق وأدقق وأسأل وأستقصي، وأشكك حتى أستوثق.

وقد حرصت في هذه الترجمة أن لا أذكر إلا ما تضافر على روايته الرجال، وشهد به العدول الثقات، فأذكر الواقعة من فم صاحبها أو الذي شهدها، فإن لم يكن كذلك حرصت –غالباً– على أن لا أذكر من أحوال الشيخ إلا ما جاءني من أكثر من طريق؛ وتجنبت كلّ ما بلغني عن العوام أو ما نقل عنهم، فكل ما ذكرته منقول عن أهل العلم وأهل الفضل الموثوقين الذين رأوا الشيخ وعاصروه وشهدوا أحواله، فلن يجد القارئ في هذا الكتاب –بإذن الله تعالى– خبراً واحداً منقولاً عن عامي أو جاهل.

ومما يجب أن ألفت النظر إليه أنّ هذا الكتاب لا يترجم لكل حياة سيدي يحيى وأحواله من الميلاد إلى الممات، بل لبعض ذلك مما تمكنت من رصده والوقوف عليه والوثوق به والاطمئنان إليه، فإنه وللأسف غابت عني –بوفاة والدي ومعظم عماتي الذين يعرفون تفاصيل حياته ودقائق أحواله– أمور كثيرة من سيرته وأحواله، وخاصة مرحلة شبابه الأولى، فإنه لم يخطر ببالي البتة –كما أسلفت– أني سأترجم حياة الشيخ فلم أهتم أثناء حياتهم لما يثري هذه الترجمة.

وسيجد بعض من يطالع هذا الكتاب أموراً قد لا يقبلها أو لا يصدقها، وسيسارع في إنكارها والاعتراض عليها كلّ من أخذ موقفاً سلبياً من التصوف وأهله، وكلّ من مجّد سلطان العقل تمجيداً مطلقاً، منكراً ما وراء المادة ظانّاً أو متخيّلاً أنّ هذا الكون الفسيح بكل ما فيه محصور في هذا العالم المادي المحسوس وأن لا شيء وراءه، وبالتالي هو منكر لكل شيء يتعلق بعوالم الروح والمغيّبات، ومستخفّ بكل ما يتصل بها، متناسياً أنّ الاقتصار على المحسوس شأن البهائم.

سألقى هذا الاعتراض مع أني أخفيت ونحيّت كثيراً مما تيقنت أنّ سيف الاعتراض سيكون مسلطاً عليه، فآثرت الإعراض عنه، إلا ما تقتضيه الترجمة مما لا بدّ من ذكره لبيان صورة الشيخ الحقيقية دون تشويه.

---

[9] وفي آخر الكتاب ملحق بأسماء هؤلاء العلماء والأفاضل الذين التقيت بهم وأخذت عنهم وسمعت بأذنيّ من فمهم.

وإني أحتسب عند الله تعالى ما قد يصلني من لوم أو ذمّ أو اتهام بالابتداع وربما أكثر!! بسبب ما سأذكره في هذا الكتاب من أبحاث هي محل استهجان واستنكار من فئة من أهل العلم ممن يعادون التصوف ويذمّونه.

وإتماماً للفائدة من هذه الترجمة حاولت ربط أحوال الشيخ السنِية بنظائرها وأمثالها من أحوال الصحابة والسلف الصالح مع الاستشهاد لذلك من الكتاب والسنة ما أمكن ذلك؛ كما تعرضتُ لأحوال نظرائه من العلماء والأولياء الذين عاصروه ممن هم على شبهه بأحواله، أو ممن لهم به أخوّة وصلة؛ ليكون كتاب أخلاق تعمّ فائدته، ومنهلاً ينتفع به وارده.

وقد سميته: **الشيخ يحيى الصباغ** وفرائد حكايا الصالحين.

وقد قسمته إلى ستة أبواب وخاتمة، جعلت كل باب من عدة فصول، وتحت كل فصل عدداً من العناوين.

وقد تفضّل عليّ وتكرّم –بعد رجاء– الشيخ هشام سعيد البرهاني حفظه الله تعالى بمراجعة هذا الكتاب، مع كثرة مشاغله وثقل أعبائه، ثم تفضل بكتابة صفحات ضافية كتقدمة وتوطئة، زّينت هذا الكتاب وجمّلته، فضلاً لما انتفعت به مما كان من ملاحظاته وإرشاداته، فجزاه الله عني وعن المسلمين خيراً[10].

وختاماً، أسأل الله تعالى أن يتقبل مني هذا العمل، وأن يعفو عني وعن كل ما صدر مني من خطأ أو زلل، وعذري أني بذلت الجهد وتوخيت الصدق وتحريت الصواب ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

وهذا أوان شروعي في المقصود، مستمدّاً العون من الله تعالى سائلاً توفيقه، وغارفاً من بحر الكرم والجود، صاحب المقام المحمود، والحوض المورود، واللواء المعقود، سيدنا ومولانا محمد المرسل إلى العالَمين، منبع العلوم والأنوار، ومفتاح خزائن المواهب والأسرار، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الأبرار.

وكتبه حفيد المترجَم

أبو البدر محمد غياث بن حسن الصباغ

عفا الله عنه

---

[10] لم تنشر هذه الصفحات في الطبعة الأولى بسبب فقدانها، ولم يعثر عليها إلا بعد انتهاء طبع الكتاب، وقد كان للأخ ياسر البرهاني ابن الشيخ هشام رحمه الله الفضل الكبير في العثور عليها بعد عناء البحث عنها بين أوراق الشيخ ومكتبه الكبيرة.

الباب الأول: المدخل إلى الكتاب

وفيه فصلان:

الفصل الأول: مدينة دمشق في أخر العهد العثماني

1- أحوال دمشق في أواخر العهد العثماني
2- وصف لمدينة دمشق القديمة

الفصل الثاني: التصوف والولاية

1- التصوف ومقام الإحسان
2- معنى الولاية والولي

أحوال دمشق في أواخر العهد العثماني

كانت دمشق في أواخر العهد العثماني حين بدأ الضعف ينخر في دولة الخلافة، لا تزال محصنة – بفعل عوامل عديدة – من التأثر بالثقافة الأوربية، ثم بدأ التغير يطرأ عليها إبان الحملة المصرية بقيادة إبراهيم باشا (ت:1265هـ)، واحتلاله لدمشق عام (1248هـ–1831م) بتأييد وتشجيع من أوربا الذي وجدت فيه – بقصد منه أو بغير قصد – عوناً لها، ورديفاً لمخططاتها لإضعاف الدولة العثمانية وتقويض سلطتها.

لقد بدأت رياح التغيير بعد هذه الحملة تهبّ على دمشق محدثة – بفعل المؤثرات الغربية– تغيرات كبيرة، فكرية، واقتصادية، واجتماعية، هيأتها فيما بعد للسقوط مع المنطقة كلها بيد الاستعمار الغربي.

بدأ هذا التغير بالانفتاح الاقتصادي والثقافي على أوربا، حيث بدأت البعثات المختلفة بالتوافد على دمشق لأغراض متعددة: تجارية، وتبشيرية، وسياسية، وغير ذلك.

ولقد كان لضعف السلطة المركزية للدولة العثمانية في هذه الفترة، وتقلّص سلطانها على كثير من البلاد، إضافة إلى البلايا والرزايا التي عصفت بدمشق وقتها، كالطاعون الذي اجتاحها في منتصف القرن التاسع عشر، متسبباً في وفاة ما يزيد على عشرين ألف نسمة (أكثر من عشر سكانها تقريباً)، والفتنة الطائفية التي عصفت بسوريا ولبنان عام (1276هـ/1860م)، مع غياب دور الدولة الفاعل في التصدي لمثل هذه الحوادث أثَّرٌ في تآكل هيبة الخلافة وفي ظهور ضعفها، مما زاد في تسلط الولاة وتنامي قسوتهم وشدتهم في التعامل مع العامة، في الوقت الذي كان فيه كثير منهم معنيّاً بمصالحه الشخصية على حساب مصالح الخلافة أو مصالح رعاياها، فاختل نتيجة لذلك الأمن في البلاد، وتضررت مصالح العباد، وأحدق الخطر بأرواحهم وأرزاقهم وممتلكاتهم، مما دفع بأهل كل بلد بل كل حي للاهتمام بأمنهم وأحوالهم وشؤونهم، فتشكلت مع الوقت – بسبب هذا وغيره – قوى جديدة متنفّذة فرضها الوضع القائم والأمر الواقع، فظهرت سلطة شيوخ الحرف، وشيوخ الحارات، وتنامت ظاهرة القبضايات والزكرتية، وترسّخت أهمية شيوخ طرق الصوفية في مجابهة العاديات، لإيمان الناس بهم وثقتهم بصدقهم وإخلاصهم وتفانيهم، ولما لهم من الكرامات وخوارق العادات، كما كان للعلماء المتصدّرين للتعليم والتدريس والوعظ دور كبير في حلّ مشاكل الناس من خلال إفتاءهم وتبصيرهم بأمور دينهم.

الأوضاع العلمية والتعليمية:

كان العلماء والمشايخ وأصحاب الطرق الصوفية – على كثرتهم واختلاف مشاربهم – هم ملاذ العوامّ والخواصّ للاستفسار عن أمور دينهم ودنياهم، يرجعون إليهم في كل صغيرة وكبيرة، يأخذون منهم التوجيهات والإرشادات فيتصرفون على ضوئها، وكان هذا حصناً آمناً حمى دمشق وأهلها على مرّ الزمن من كثير من العاديات والمحن والإحن.

فمن أمثلة انقياد الخاصة والعامة طواعية للعلماء، ثقة بهم ومحبة لهم: أنّ الشيخ حسن الشطي (ت:1274هـ) وهو من كبار فقهاء الحنابلة في دمشق، كان منصرفاً من المحكمة في آخر وقت الدوام – وكان قاضياً – فأقبل عليه جماعة من النوَر (الغجر)، وابتدرته امرأة منهم فقالت: يا سيدنا القاضي، احكم بيننا. فقال لها: ما لك؟ قالت: هذا زوجي وهو لا ينفق عليّ. قال: أنفق عليها يا رجل. ومشى القاضي في طريقه، فلحقته المرأة تصيح: كم يعطيني في اليوم؟ قال: ربع مجيدي.

ومرّت أيام طويلة ونسي الشيخ القصة كلها، فجاءه نوَري ومعه امرأة وقال: يا سيدي اصطلحنا، ارفع النفقة عني. قال القاضي: أي نفقة؟ قال: النفقة التي فرضتها عليّ، أنا والله لا أقدر عليها، والمرأة في بيتي. فسأل المرأة فقالت: صحيح يا سيدنا القاضي. قال القاضي: لقد رفعتها عنك. فانصرف الرجل وهو يشكره والمرأة تدعو له[11].

كان هذا الدور للعلماء طبيعياً في ظل ندرة المدارس التعليمية التي لم تعد تلق العناية والاهتمام كما كان في العهود السابقة، فالدولة العثمانية في آخر عهدها أهملت من ضمن ما أهملت التعليم والصحة، وإن وجدت بعض الفترات الجيدة، كعهد الوالي المصلح ناظم باشا الذي له على دمشق منن عظيمة[12]، وكذا الوالي مدحت باشا[13](ت:1301هـ)، مع ما يؤخذ عليه بأنه من الداعين إلى الاقتباس من الغرب بدون قيد أو شرط[14].

---

[11] انظر: ذكريات علي الطنطاوي (326/4).

[12] حسين ناظم باشا، كان ناظراً لشؤون الأمن العام في عاصمة الدولة العثمانية اسطنبول، ثم ولاه السلطان العثماني ولاية دمشق، حيث تولاها ثلاث مرات أولها عام 1895م ، والثانية عام 1909 والثالثة عام 1911، ويعتبر هذا الوالي من أفضل الولاة الذين تولوا الحكم في سورية أيام الحكم العثماني نظراً لما له من أياد بيضاء في مجال الإعمار والتنظيم الإداري وإنشاء المشاريع المفيدة للبلاد، ومن أعماله على سبيل المثال:

- بنى أول مشفى عام في دمشق عام 1899م، ويقع في حي الحلبوني، وتطلق عليه العامة اليوم اسم (مشفى الغرباء) أو (المشفى الوطني)
- بنى في عام 1901م داراً للحكومة على ضفة بردى عرفت باسم (السرايا)، وهي اليوم مقر وزارة الداخلية.
- بنى القشلة الحميدية التي أصبح مقرها فيما بعد تابعاً لجامعة دمشق ومازال.
- بنى دار المعلمين، وهو البناء الذي تشغله اليوم وزارة السياحة، وقد شغلته فترة من الزمن كلية الحقوق.
- بنى النصب التذكاري في ساحة المرجة من معدن البرونز ووضع في أعلاه مجسماً لمسجد في اسطنبول.

فمثلاً لم يكن في حي الصالحية كلها غير مدرسة رسمية واحدة تدرّس بالعربية، تسع مئة طالب، هي مدرسة (جامع الجديد)، إضافة إلى بعض الكتاتيب القرآنية التي تقوم على تعليم الأطفال، وتكون إما في المساجد أو في البيوت، ويقوم عليها معلمون يدعون شيوخ الكتّاب، أو في دور الخجا، وهي الكتاتيب التي يقوم عليها معلمات، و(الخجا) لقب يطلق على المعلمة، وتكون هذه الدور في البيوت غالباً، وقد اشتهر بأنّ (الخجا) ألطف وأرقّ في التعليم، لذا كانت الرغبة فيهنّ أكثر، والميل إليهنّ أكبر.

وما يقال عن حيّ الصالحية يقال عن غيره من أحياء دمشق، بل إنه لم يكن في سوريا كلها إلا ثانوية واحدة حكومية هي (مكتب عنبر) في دمشق، فكانت دروس العلماء وحلقاتهم العلمية في المساجد والزوايا وفي البيوت تسدّ ثغرة كبيرة في التعليم ونشر المعرفة بين الناس.

والله يعلم ماذا ستكون عليه الحال لو لم ينهض العلماء بكل هذه الجهود، ففي "حين كانت الحكومة لا تملك إلا مدرستين أو أكثر بما لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة في دمشق كلها، كان للعلماء زاوية في كل مدرسة، وفي كل مسجد ثانوية، وفي كل حي ندوة، وفي كل سوق في قلب الحياة التجارية ساعة لطلب العلم، كانوا يجسدون فكرة: أن طلب العلم فريضة . . يبدؤون نهارهم مع الفجر وقبيل الفجر أحياناً، وهم ينتهون به مع الهزيع الأول من الليل . . لا تراهم وحدهم، وإنما هم في مثل الحركة الدائبة بين العلم والتعلم، في المسجد والسوق، وبين طبقات وأسنان من الناس يشدّونهم دائماً إلى المثل العليا التي أبقت الأيام في ذاكرة هذه الجيل"[15].

الطرق الصوفية وظهور المدارس العلمانية:

زاد في عهد إبراهيم باشا – منتصف القرن الثالث عشر الهجري– انتشار الطرق الصوفية، ووصل تعدادها إلى ما يربو على أربعين طريقة صوفية، بين أساسية وأخرى متفرعة عنها، هذه الطرق كانت منذ نشأتها تهتم بتزكية النفس وتهذيبها، ونشر الأخلاق والفضائل، والحض على التمسك بها، وكان شيوخها في معظم الأحيان علماء متمكنين غاية التمكن في العلوم الشرعية، وراسخين كل الرسوخ في المعرفة الربانية، والرياضات والمجاهدات الروحية، تشهد لهم أحوالهم مع الخلق، وآثارهم في المجتمع من علم وتعليم وتربية[16].

[13] انظر ما كتبه الشيخ علي الطنطاوي، رحمه الله، عنه في كتابه (دمشق، صور من جمالها وعبر من نضالها) في مقال: منشئ حي المهاجرين، ومقال: دمشق التي عرفتها وأنا صغير.

[14] انظر: طقوش، محمد سهيل، تاريخ العثمانيين (479).

[15] مقتبسة من تقديم الدكتور شكري فيصل، رحمه الله، لكتاب علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري.

[16] في ترجمة السيد محمد المكي الكتاني أنّ والده أجازه بأربعين طريقة في التصوف.

مع كثرة الطرق وأثرها الإيجابي في حياة الناس وحركة المجتمع، تطور الحال مع الوقت إلى أن صار للناس اعتقاد كبير بالزهاد والصالحين والأولياء، يلجؤون إليهم من أجل الرقى والتعويذات، ومن أجل التبرك وطلب الدعاء، واتخذوا أضرحتهم مزارات، وجعلوا من قبورهم محجّاً ومقامات، فبالغوا ثمّ تزيّدوا في ذلك إلى أن أصبح شائعاً، وصار يرافقه بدع ومحرمات، ثم تحول إلى حالة سلبية من تنامي الخرافات والتمكين لثقافة الاتكال والكسل وانتظار الخوارق.

ثمّ إنّ مبالغة العامة في تقديس أصحاب الطرق الصوفية شجعت بعض ضعاف النفوس من الأدعياء والمتمسحين والمشعوذين –رغم قلتهم تلك الأيام– على التمسح بأذيال الصوفية، وقد وصف حال هؤلاء المتمسحين الشيخ محمد زاهد الكوثري (ت:1378هـ) –رحمه الله– فقال: وكان أخطر هؤلاء الأعداء على الدهماء، وأبعدهم غوراً في الإغواء أناساً ظهروا بأزياء الصالحين، بعيون دامعة كحيلة، ولِحىً مسرّحة طويلة، وعمائم كالأبراج، وأكمام كالأخراج، يحملون سبحات كبيرة الحبات، ويتظاهرون بمظهر الدعوة إلى سنة سيد السادات، مع انطوائهم على مخاز ورثوها الخ[17].

هذا الانحراف بدأ يسيء لهذه الطرق وبدأ يخرج ببعض فروعها عن المنهج التربوي والإصلاحي الذي كان أسّها وعمدتها، مما ساعد على إيجاد بيئة مناسبة وتربة صالحة للمدارس العلمانية والبعثات التبشيرية التي بدأت تطلّ برأسها على هذه المنطقة، لتفعل فعلها فيها؛ فترمي سهامها وتبثّ سمومها، وبدأ هذا الظهور لهذه المدارس العلمانية بتشجيع من إبراهيم باشا وتخطيط منه، أو بفعل البعثات التبشيرية التي قامت بافتتاح مثل هذه المدارس بعد ذلك، وهنا بدأ وبشكل بطيء تراجع سلطة العلماء، حيث أخذت تبرز على السطح تيارات مختلفة، كان بعضها حانقاً على

وفي (فهرس الفهارس:499/1) للشيخ محمد عبد الحيّ بن عبد الكبير ابن محمد، الحسني، الإدريسي، المعروف بعبد الحي الكتاني (ت:1382هـ) ما يلي: "أبو عليّ، حسن بن عليّ، العجيمي، اليمني أصلاً، المكي داراً، المتوفى سنة (1113هـ). له رسالة في الطرق الصوفية المستعملة إلى زمانه في العالم الإسلامي، مع ذكر آدابها وأعمالها وأذكارها وأصلها، وسلسلته إلى صاحبها، وسلسلة صاحبها إلى مراجع الطرق، اشتملت على أربعين طريقة، وهي رسالة نفيسة جداً في نحو كراسين، ذكر فيها الطريقة: المحمدية. الأويسية. قلندرية. صديقية. ملامتية. كبروية. همدانية. ركينية. نورية. خلوتية. مولوية. جهرية. برهانية. أحمدية. سهروردية. خفيفية. شاذلية. وفائية. زروقية. بكرية. جزولية. خواطرية. عيدروسية. مشارعية. حاتمية. قادرية. عرابية. مدينية. قشيرية. رفاعية. خرازية. جشتية. مدارية. شطارية. عشقية. نقشبندية. غوثية. حلاجية. جنيدية. سهلية. هذه الرسالة استوعب فيها طرق الصوفية الموجودة في هذه الأزمنة غالباً، وذكر ما يتميز به أهل كل طريق، وذكر سنده إلى إمام تلك الطريقة، وكيفية اتصاله بها، وهي غاية في الباب، مستوعبة أتم استيعاب، وهي دالة على سعة اطلاعه وكثرة اعتنائه بالطرق ولقاء أهلها، أتم العجيمي رسالته هذه سنة (1073هـ)".

وأبو علي هذا هو مسند مكة والحجاز والصوفية، ورسالته اسمها: رسالة العجيمي في الطرق. كما ذكر في (فهرس الفهارس:488/1).

[17] مقدمات محمد زاهد الكوثري (64).

مشايخ الطرق وعلى مشايخ الكتاتيب التي كانت سائدة في أواخر القرن التاسع عشر، وتقوم بتعليم الأطفال بطريقة بدائية ومتخلّفة، مترافقة مع الشدة والحزم المفرطين.

جهود المصلحين وسنّة التدافع:

ونتيجة لهذا الخطر الداهم قام بعض العلماء المصلحين بنشاط ملحوظ، وعمل دؤوب، وسعي متواصل لتدارك هذا الأمر، وسعوا إلى تأسيس جمعيات تعتني بافتتاح المدارس التي تتبنّى الأساليب الحديثة في التعليم، وتسعى إلى إصلاح طرق التعليم بتبسيطها وتجديدها وإعطاء كل مرحلة ما يناسبها، وكانت أغلب هذه المدارس تابعة للمساجد، وعلى رأس هؤلاء العلماء المصلحين الشيخان طاهر الجزائري (ت:1338هـ) وجمال الدين القاسمي (ت:1332هـ) رحمهما الله تعالى من ناحية، والشيخ المحدث الأكبر بدر الدين الحسني شيخ الشيوخ وعالم العلماء في بلاد الشام ومجدد أمر الدين فيها، من ناحية أخرى.

وهنا لابد من التأكيد على أنّ "كثيراً جداً من مظاهر نهضتنا المعاصرة لم تكن أثراً لاتصال بأجنبي، ولا بعثات خارجية، ولا مدارس أجنبية جاءت من هنا وهناك، بقدر ما كانت من صنيع أبناء هذا الوطن الذين خلقوا من ترابه، وعاشوا على خبزه.

أما العوامل الخارجية فأوشك أن أقول: إنها كانت في جملتها انحرافاً يقترب أو يبتعد عن الصراط المستقيم، والخطوطُ السليمة في كتلة هذا الانحراف ضاعت في الكتلة كلها وإن لم تخل من أثر"[18].

وما هي إلا عقود أربعة أو خمسة، حتى ظهرت الجمعيات والاتحادات والمحافل التي تناوئ الدين بالباطن، وترفع شعار الإصلاح في الظاهر، وأخذت تدعو للقومية والعصبية وتذكي نارها، وانخدع بها وقتئذ الكثير من العامة والخاصة، كما انخدع بها بعض العلماء الذين يوصفون بالإصلاحيين، فدافعوا عنها، وتبنوا آراءها، وانخرط بعضهم في سلكها، بل صار منها وحمل لواءها، ولما انكشف لهم – فيما بعد – حقيقة أمرها وتآمرها، كان الأوان قد فات، والسوس قد نخر، والأجل قد اقترب، إذ دبّ الضعف في جسم الخلافة كلها وانتشر في كيانها، وأصبحت المصيبة الفاجعة تخيم بسوادها وظلامها، والجميع يتفرجون منتظرين وقوعها، إلى أن كانت القاصمة بسقوط دولة الخلافة آخر قلاع هذه الأمة![19]، فمُزقت الدولة الواحدة دويلات، وقُسّمت

---

[18] مقتبسة من تقديم الدكتور شكري فيصل، رحمه الله، لكتاب علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري.

[19] وفي هذا كتب الأستاذ محمد عبده رسالة إلى شيخ الإسلام أحمد أسعد العرباني سنة (1304هـ)، نشرت في مجلة المنار سنة (1324هـ) قال فيها: "إنّ من له قلب من أهل الدين الإسلامي يرى أنّ المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله، فإنها وحدها الحافظة لسلطان الدين، الكافلة ببقاء حوزته، وليس للدين سلطان في سواها، وإنا والحمد لله على هذه العقيدة، عليها نحيا وعليها نموت". انظر: (مقالات الكوثري:469).

المنطقة العربية إلى كيانات تقاسمها المستعمر، ضاحكاً على ذقون دعاة الإصلاح والقومية العربية، ناكثاً بكل وعوده وعهوده- ومتى كان للعدو عهد أو وعد؟! - فاستحكم التغريب والتهميش، وزادت وتيرة الفساد والإفساد، وبدأ العامة يفقدون شيئاً فشيئاً العادات الحميدة النابعة من قيم الدين الإسلامي، فأخذت القيم الدينية تضمحلّ في النفوس وتذوب من الرؤوس رويداً رويداً، فضاعت النخوة والمروءة، وقلّت الأمانة، وسادت الأثرة والأنانية، وهان الشرف، واسترخص العرض، ولم يعد للعلماء هيبتهم الأولى في نفوس الحكام والمحكومين بل تناقصت وبهتت مع الوقت - وإن بقي يحسب لهم حساب - وصارت الشعوب تتحسّر على ماض لم يبق منه سوى نشوة الذكرى وألم الحسرة.

هذا هو باختصار شديد جداً حال البيئة التي سبقت ميلاد الشيخ يحيى محيي الدين الصباغ وحتى النصف الأول من حياته، أي تقريباً من الفترة (1825-1925م) و (1230-1330هـ)، أحببت أن أضع القارئ في شيء من أجوائها، عسى أن تكون إضاءة تسهم في توضيح ما سأذكره في الصفحات المقبلة من أحداث تخصّ الفترة التي عاش فيها المترجَم[20].

---

[20] انظر: دمشق في مطلع القرن التاسع عشر، أحمد حلمي العلاف، تحقيق علي جميل نعيسة. ومجتمع مدينة دمشق، د.يوسف نعيسة.

وصف لمدينة دمشق القديمة

إلى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، كانت دمشق محاطة بالبساتين من سائر أطرافها، ولها سبعة أبواب ما تزال قائمة تحيط بها وهي: باب الفرج (باب المناخلية)، وباب الفراديس (باب العمارة)، وباب السلام، وباب توما، والباب شرقي، والباب الصغير (باب الشاغور)، وباب الجابية، وكان هناك باب ثامن في رأس سوق الحميدية يسمى باب النصر.

وكانت الصالحية، والمزة، وكفرسوسة، والقدم، والقابون، وجوبر، عبارة عن قرى منفصلة تماماً عن دمشق.

فكانت قرية الصالحية مثلاً لا تزال تفصلها كثير من البساتين عن مدينة دمشق، وكانت تضم عدداً من الأحياء، وحي الصالحية – الذي يقع على سفح جبل قاسيون المشرف على مدينة دمشق من شمالها – من أهمها[21]، وهي أول قرية اتصلت بالمدينة، نظراً لكثرة الأضرحة والمزارات فيها؛ ثم لجودة هوائها وتربتها المرتفعة الجافة، حتى أصبحت اليوم أكبر من دمشق نفسها في ذلك الوقت.

كنت إذا تجاوزت بوابة الصالحية قليلاً باتجاه الشمال خلفت وراءك دمشق، مستقبلاً بساتين خصبة، وأراض زراعية واسعة، تكسوها حلة خضراء من المزروعات المختلفة، وتظللها الأشجار الوارفة، كما تتخللها جداول الماء العذبة تجري هنا وهناك، مروراً بمحلّة الشهداء اليوم الذي لم يكن فيها سوى مسجد الشهداء بين البساتين[22]، أما الدور والمساكن فقد كانت تبتدئ من الجسر الأبيض، وتكاد تكون معدودة بالنسبة إلى ما آل إليه الحال اليوم، تشغل هذه الدور بعض العائلات الدمشقية.

وكانت دمشق تقسم إلى ثمانية أقسام، هي: القنوات، مأذنة الشحم (الخراب)، القصاع، العمارة، سوق ساروجة، اليهود، باب السريجة، الميدان، ثم لما اتصلت الأبنية بقرية الصالحية أصبحت من أقسامها الرئيسية أيضاً، وكل منها يقسم إلى: أحياء، وحارات، وأزقّة.

---

[21] يذكر الأستاذ محمد أحمد دهمان في مقدمته على تحقيق كتاب القلائد الجوهرية أن تأسيس الصالحية على مقربة من دمشق كان حدثاً خطيراً في تاريخ دمشق العمراني والاجتماعي والعلمي، فقد ساعدت على انفراج الضيق عن مدينة دمشق، وأحدثت منطقة صحية جميلة زادت في دعم كيان دمشق، وأنشئ فيها من معاهد العلم والمصانع الجميلة ما يحقق لها أن تدعى مدينة المدارس والقباب.

[22] وكانت هذه المحلة قديما تعرف باسم أرزة، وأما قبور الشهداء فقد ذكر أنها لثلاثة إخوة من الصحابة، استشهدوا في فتح دمشق ودفنوا في هذه المحلة التي أصبحت تعرف بحي الشهداء، ثم بعد فترة من الزمن عمّر أحد الصالحين عندهم مسجداً، وهو معروف اليوم بمسجد الشهداء. انظر مقدمة الأستاذ محمد أحمد دهمان على القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية لابن طولون (58).

تصل الأزقّة والحارات والشوارع بين أحياء دمشق وأقسامها الصغرى، فما كان نافذاً متصلاً بالشوارع الكبرى يدعى الزقاق، وما كان غير نافذ يدعى الدخلة.

أما الأسواق فكان أهمها: سوق الحميدية، وسوق مدحت باشا، وسوق البزورية، وسوق الخجا، وهي مغطاة بسقوف مرتفعة للوقاية من شمس الصيف ومطر الشتاء.

كان تعداد سكان دمشق في نهاية القرن التاسع عشر يقدر بين مئتي ألف وثلاثمئة ألف نسمة على أكثر تقدير، بما فيهم من الغرباء القاطنين، كالأفغان والعجم والشركس وغيرهم، وكانوا كثرة لا يستهان بها.

أما وسائط النقل فكانت عبارة عن عربات تجرها الخيول، وكان مقرها في المرجة، حيث تقف إلى الجانب الشرقي تحت ظلال شجيرات الصفصاف حول حوض ماء مرتفع قليلاً، تشرب منه خيول هذه العربات، وكانت قليلة جداً، فجميع القرويين كانوا يستخدمون دوابهم الخاصة، أما أهل المدينة فكانوا بوجه عام يعتمدون على أقدامهم في قضاء حوائجهم.

ثم ظهر فيما بعد الدراجة الهوائية (في السنة العاشرة من القرن العشرين).

كان الناس يتعاملون بالدراهم العثمانية والأجنبية، فكانت الليرة الذهبية العثمانية، والليرة الذهبية الإنكليزية، ثم الليرة الذهبية الفرنسية، وكانت هذه الثلاث مستعملة بكثرة، أما الروسية والألمانية والإيطالية فنادرة، وكانت الليرات العثمانية منها ما ضرب في عهد السلطان محمود الثاني ومنها ما ضرب في عهد السلطان عبد المجيد (ت:1277هـ) وتسمى (المجيدية)، ثم بعد ذلك صار الأكثر شيوعاً ما ضرب قبيل الحرب العالمية الأولى وأثناءها في عهد السلطان محمد رشاد (ت:1336هـ). وكانت الليرة الذهبية تعادل مئة قرش صاغ، أي: سليم، وكان هناك نصف ليرة ذهبية وربع ليرة ذهبية.

وإذا أردت أن تعرف شيئاً عن صناعات دمشق في ذلك الوقت؛ فإليك هذه الكلمات للشيخ محمد رشيد رضا (ت:1354هـ)، رحمه الله، لما زار دمشق في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ودخل بيوتاتها، حيث كتب في مجلته المنار التي كان يصدرها في القاهرة آنذاك بعد عودته من دمشق: "ومما سرّني بدمشق وأهلها سرورًا عظيمًا حياة كثير من الصناعات فيها، وكيف لا ينشرح صدري لذلك وقد رأيت ذلك الجامع الفخم الذي كان هو الأثر العظيم في هذه العاصمة لأول دولة عربية تأسست فيها، فدمّره عصر الظلم والاستبداد بالنار، فأعاده أهل دمشق إلى ما كان عليه،لا ينقصه إلا ما كان فيه أولاً من زينة الفسيفساء التي يعجز عنها حتى الإفرنج من أهل هذا العصر، ثم إنّني رأيت معظم أثاث البيوت ورياشها[23] من صنع أهل البلد، حتى في بيوت الكبراء، كبيت عبد الرحمن باشا اليوسف، أمير الحج، الذي هو أوسع أهل دمشق ثروة،

[23] الرياش: المال. وقيل الرياش والريش واحد، وهو ما ظهر من اللباس. صحيح البخاري (131/4).

وأعلاهم جاهًا ومنزلة، فقد تأملت أثاث بعض الحجرات ورياشها في داره، فلم يقع نظري على شيء فيها من غير صنع الشام، إلا السجاجيد العجمية، حتى إنّ القناديل الكهربائية النحاسية التي فيها هي من صنع الشام، فلنا أن نفتخر بصناعات الشام في النسج والحفر والبناء والتجارة وغير ذلك، وأن نجتهد في توسيع دائرتها بالطرق الحديثة".

وأخيراً فإنّه يتحتم على من يكتب عن دمشق أن يذكر نهر بردى الذي وهبه الله لهذه المدينة الجميلة وحباها به، فهو سرّ حياتها، وشريان وجودها، إنه النهر الذي يرويها مع غوطتها بقسميها الشرقي والغربي، ترفده العيون والينابيع، تغذيه أثناء جريانه من منبعه في سهل الزبداني، وأشهر هذه الينابيع: عين الفيجة، وعين الخضراء، وعين الكفير، وعين البجاع وغيرها، فيتكامل عند قرية الهامة، حيث يتفرع منه نهر يزيد، ثم بين دمر والربوة يتفرع منه نهر تورا، اللذان يتجهان نحو الغوطة فيرويان قراها وسهولها، ثم عند مضيق الربوة يتفرع منه: الداراني، القناة، بانياس، القنوات، ثم فرع عقربا، حيث تدخل بعض هذه الفروع – كالقنوات – إلى الدور، والبعض الآخر يتجه إلى الغوطة الغربية، وما فضل من مياه بردى يستمر بجريانه إلى أن ينتهي في بحيرة العتيبة شرقي الغوطة.

لقد كانت دمشق بالنسبة لما حولها من البساتين المتصلة بقرى الغوطة المحيطة بها إحاطة السوار بالمعصم كبناء داخل حديقة غناء[24].

قمر دمشقي يسافر في دمي   وسنابلٌ وخمـائلٌ وقبابُ
الحب يبدأ من دمشق فأهله   عشقوا الجمال وذوّبوه وذابوا
والماء يبدأ من دمشق فأينما   أسْنَدتَ رأسك جدولٌ ينسابُ

تلكم هي دمشق قبل مئة سنة خلت، فهل تراها تغيرت كثيراً اليوم؟؟!!

"أنا مسكون بدمشق، حتى حين لا أسكنها.
أولياؤها مدفونون في داخلي.
حاراتها تتقاطع فوق جسدي.
...
...
دمشق ليست صورة منقولة عن الجنة.. إنها الجنة.

[24] المراجع: – دمشق في مطلع القرن التاسع عشر، أحمد حلمي العلاف، تحقيق علي جميل نعيسة.
- القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، ابن طولون.
- مجلة المنار، الشيخ محمد رشيد رضا.

وليست نسخة ثانية للقصيدة.. إنها القصيدة.
وليست سيفاً أموياً على جدار العروبة.. إنها العروبة.
...
...
فبصدور هذا الكتاب ...
أشعر أنّ حلماً قديماً من أحلامي قد تحقّق.
وهو أن أصبح ذات يوم جزءاً من تاريخ دمشق.
...
...
تلميذاً من تلاميذ الشيخ محي الدين بن عربي".[25]

ومما وجدت في كراسة سيدي يحيى التي كان فيها بخطه بعض خواطره، أو بعض ما يمليه هذين البيتين:

عرّج ركابك عن دمشق لأنها   بلد تذّل لها الأسود وتخضع
ما بين جابيها وباب بريدها   قمر يغيب وألف بدر يطلع[26]

---

[25] مقتبسة من الانترنت عن كتاب (دمشق..نزار قباني) للأديب الراحل نزار قباني.

[26] وهما في كتاب (رحلة الشتاء والصيف) لمحمد بن عبد الله بن محمد، من أحفاد شرف الدين بن يحيى الحمزي الحسيني المولوي المعروف بـ كِبْرِيت (المتوفى: 1070هـ)، حققها وقدمها وفهرسها: الأستاذ محمَّد سَعيد الطنطاوي.

وجاء في مجلة (الثقافة) السورية، لخليل بن أحمد مختار مردم بك (ت: 1379هـ) وآخرون، من العدد الرابع مايلي:

مما فقد من تلك الكتابات حجر كان بجانب قوس النصر في مدخل الهيكل الغربي الذي شيد محله الجامع الأموي الشهير قد نقش عليه بيتا شعر يتناقلهما الدمشقيون خلفاً عن سلف وهما:

عرّج ركابك عن دمشق فإنها ... بلد تذلّ لها الأسود وتخضع
ما بين جابيها وباب بريدها ... قمر يغيب وألف بدر يطلع

وجاء فيها أيضاً ولكن في العدد السابع مايلي: وقد رأيت في مخطوط بدمشق هذه الحاشية أنقلها بحرفها وهي: مراد باشا القبوجي عمّر سوق البريد وقبته، وكانت أمام الجامع الأموي إلى الغرب، وعلى جانبها الأيمن مكتوب قول علي بن رضوان:

عرّج ركابك عن دمشق فإنها ... بلد تذلّ لها الأسود وتخضع
ما بين جانبيها وباب بريدها ... قمر يغيب وألف بدر يطلع

وعلى الجانب الثاني:

كل من تلقاه يشكو دهره ... ليت شعري هذه الدنيا لمن

وقربه أيضاً:

إذا ما رأيت الله في الكل فاعلاً ... رأيت جميع الكائنات ملاحا

فلا غرابة أنّ كثيراً من أهل دمشق يردّدون قائلين: الحمد لله على نعمة الإسلام، والسكنى في الشام.

التصوف ومقام الإحسان

كان دأب الصحابة الكرام رضوان الله عليهم الإقبال على الله تعالى بالكلية، وهبوا أنفسهم لمرضاته وصرفوا أوقاتهم في عبادته وخدمته، وروّضوا أنفسهم على صدق التوجه إليه وحده، فكانوا في كل لحظة من أعمارهم، وفي كل حركة من أبدانهم، وفي كل نفس ومع كل دقة قلب بل مع كل خاطر وارد أو صادر يراقبون الله تعالى حق المراقبة.

لم يعرفوا الركون إلى الدنيا، ولا الاسترسال مع متعها، فلم تكن منهم على بال، وليس لها في نفوسهم مكان ولا شان، ولا في قلوبهم محالّ.

ثم استنّ بهديهم التابعون واقتدى بنهجهم العاملون، ومشى على دربهم الدعاة والمصلحون، فعاشوا لله ولدينه، ولم يعيشوا للدنيا ولا لأنفسهم، فملكوا زمامها واستخدموها، ولم تملكهم فتسخدمهم.

هذا المسلك الخلقي الصافي لهؤلاء الصحب الكرام ومن تبعهم عرف فيما بعد باسم التصوف، وأصله إنما هو مقام الإحسان الذي فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"، فهو أحد أجزاء الدين الذي علمه عليه الصلاة والسلام جبريل عليه السلام، ليتعلمه الصحابة رضي الله عنهم[27].

وسيرة الصحابة الكرام – وخاصة الراشدين – مدد من سيرة هذا الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ونتاج تربيته وتوجيهاته.

فها هم أهل الصفة – رضي الله عنهم – وقد كان لهم عبيد وإماء وأموال، وعقار وأهل وعيال، خرجوا عن ذلك كله، وتركوا ما كانوا عليه من الدنيا وانقطعوا إلى الله ورسوله، فانتقلوا إلى المدينة المنورة ليس معهم شيء، وآثروا التجريد للعبادة ومجالسة سيد المرسلين، فأقرّهم عليه الصلاة والسلام على ما اختاروه من الانقطاع عن الدنيا بالكلية والتجرد عن الأسباب، حيث علم منهم عدم التشوّف لها. وقد رأيناهم – رضي الله عنهم – يتقدمون صفوف المجاهدين في الغزوات، فاستشهد منهم الكثير في ساحات المعارك والجهاد.

فليس شأن الصوفية أمراً مُحدَثاً، إذ قدوتهم في طريق التجريد وترك الأسباب والانقطاع إلى رب الأرباب هم هؤلاء الصحب الكرام، ثم التابعون من بعدهم الذين نهجوا منهجهم، فلم يغيّروا ولم يبدّلوا، وكانوا متبعين لا مبتدعين.

---

[27] قواعد التصوف، أحمد بن أحمد البرنسي المشهور بزرّوق.

وسواء سمّينا هذا المسلك الخلقي (الأخلاق)، أو (الإحسان)، أو بما عرف فيما بعد القرون الأولى (بالتصوف)؛ فإن الغاية والمقصد هما التحلّي والتأسّي بما كان عليه أولئك الأصحاب وخيار التابعين من بعدهم.

والتصوف كما يقول ابن خلدون (ت:808هـ) رحمه الله في مقدمته: "من العلوم الشرعية الحادثة في الملّة، وأصله أنّ طريق هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريق الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخارف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة والعبادة". أي تحقيق معنى العبودية لله تعالى وحده.

وهذا التصوف العملي الذي هو: "العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن الدنيا وزخارفها وزينتها" مأخوذ من خلق[28] رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي اختصرته السيدة عائشة عندما سُئلت عنه فقالت: "كان خلقه القرآن"، وبه كان اقتداء الصحابة رضي الله عنهم، وتلقى التابعون عنهم هذه الأخلاق وجروا على سننهم وساروا في طريقهم.[29]

ومعلوم لدى كل مسلم أنّ الطرق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها مسدودة؛ إلا ما كان عن طريق أصحابه رضي الله عنهم، وكذلك فإنّ الطرق إلى الله تعالى كلها مسدودة؛ إلا طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم في سيرته وسمته وسائر أحواله وأفعاله.

روي أنّ أبا يزيد البسطامي (ت:261هـ) رحمه الله قال لبعض أصحابه: قم بنا ننظر هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية، وكان رجلاً مقصوداً مشهوراً بالزهد، فمضينا إليه، فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه، وقال: هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يكون مأموناً على ما يدّعيه؟!.

وقد بيّن القشيري[30](ت:465هـ) أنّ الغرض من ترجمته لعدد من شيوخ الطائفة التنبيه على أنهم كانوا مُجمعين على تعظيم الشريعة، مُقيمين على متابعة السنة، غير مُخلّين بشيء من آداب الديانة، وأنّ من لم يبْنِ أمرَه على أساس الورع والتقوى كان مفترياً على الله سبحانه وتعالى فيما يدّعيه، مفتوناً هلك في نفسه وأهلك من اغترّ به ممن ركن إلى أباطيله[31].

لذا فإنّ الإمام الغزالي (ت:505هـ) بعد أن خاض غمار التصوف وغاص في أعماق بحاره قال: "علمت يقيناً أنّ الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأنّ سيرتهم أحسن السيَر، وأنّ

---

[28] ومأخوذ من هديه صلى الله عليه وسلم الشامل للإسلام والإيمان والإحسان كما جاء في حديث سيدنا جبريل عليه السلام.

[29] التصوف، محمد الصادق عرجون.

[30] هو الإمام أبو القاسم عبد الكريم القشيري، صاحب الرسالة القشيرية.

[31] التصوف(106).

طريقتهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جُمع عقل العقلاء وحكم الحكماء، وعِلْم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيّروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً، وأنّ جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به"[32].

ويقول الشيخ أحمد بن أحمد، المشهور بزرّوق (ت:899هـ)، رحمه الله: "وقد صحّ أنّ شرف الشيء بشرف متعلقه، ولا أشرف من متعلّق علم التصوف، لأن مبدأه خشية الله التي هي نتيجة معرفته، ومقدمة اتباع أمره، وغايته إفراد القلب له تعالى، فلذلك قال الجنيد (ت:297هـ) رحمه الله: لو علمتُ أنّ تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا لسعيتُ إليه"[33].

"إنّ أَمر التصوف في الواقع ليس أَمر جدلٍ أَو بحثٍ أو أَخذ وردّ وإنما هو تعرّف، والقياس فيه والمنطق والاستدلال والبحث والدراسة والأسلوب العلمي يُصِيب ظاهراً منه وشكلاً أَو رسماً، وربما كانت حجاباً أَو ظلمة تبعد الدارس عن النُّور بدل أَن تغمره بلألائه، ومن المؤكّد أَنّ الذين لا يعلمون إلا ظاهراً من الأمر هم عن الحقيقة محجوبون، والتصوف تجربة، والتجربة شعور، والشعور ليس منطقاً ولا برهاناً إنما هو تعَرّف.

وحينما دخل المنطق والبرهان في التصوف –وكان أوضح مثل لذلك دراسات المستشرقين ومن لفّ لفّهم من الشرقيين– أفسد ذلك التصوف لأَنّه حوّل النبع المتدفق إلى ركود آسن، وحوّل السناء المتلألئ إلى ظلمة حالكة، وأرجع فضل الله ونعمته إلى مرض من الأمراض يعالج بالمادة ويشفى بالعاقير.

إن التصوف ليس علماً، وإذا تدخل العلم فيه أفسده، لأن العلم الصحيح لا يتعدّى حدوده، وللعلم الصحيح دائراته وهي التجربة المادية التي لا يتعداها، والتصوف تجربة روحية، وليس للمادة شأن بالروح، فليس للعلم بالمعنى الحديث إذن شأن بالتصوف، إن العلم أَرض ومادة وحسّ، والتصوف سماء وروح وذوق، وأمر التصوف في النهاية تعرّف لا دراسة أو جدل أو علم، ومعنى ذلك أَنه من لا يشعر بالشعور الصوفي فإنه لا يتعرف عليه، كما أَن من لم يسلك طريقا معيناً بالذات – ولو مرّة واحدة – فإنه لا يتعرف على ما فيه من ظلّ ظليل أو زهور ناضرات، وقديماً قالوا: من ذاق عرف، وبالتالي فإنّ من لم يذُق لا يعرف"[34].

---

[32] المنقذ من الضلال(131)، الإمام محمد الغزالي.

[33] قواعد التصوف، القاعدة(14).

[34] انظر ما كتبه عبد الحليم محمود رحمه الله في تقديمه لكتاب (التعرّف لمذهب أهل التصوف) لأبي بكر الكلاباذي.

لذلك كثرت تعاريف التصوف كثرة بالغة لأنّ كلّ من عرّفه وحدّه وفسّره إنما تكلّم من خلال تجربته الخاصة وتذوقه الشخصي، ومن هنا يقول الشيخ زرّوق: "وقد حُدّ التصوف ورُسم وفُسّر بوجوه تبلغ نحو الألفين، ترجع كلها لصدق التوجه إلى الله تعالى، وصدق التوجه مشروطٌ بكونه من حيث يرضاه الله تعالى وبما يرضاه، فلا تصوف إلا بفقه، ولا فقه إلا بتصوف، ولا هما إلا بإيمان"[35].

ومنه قول الإمام مالك (ت:179هـ) رحمه الله: "مَن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسّق، ومن جمع بينهما فقد تحقق".

وكل شيخ لم يظهر بالسنة فلا يصح اتباعه لعدم تحقق حاله، وإن صحّ في نفسه وظهر عليه ألف ألف كرامة من أمره[36].

وقال الجنيد: "من لم يسمع الحديث، ويجالس الفقهاء، ويأخذ أدبه عن المتأدبين، أفسد من اتبعه"[37].

ويشبّه أحد أهل العلم الفرق بين الشريعة وبين التصوف؛ والعلاقة بينهما بمثل الفرجار بذراعيه الثابتة والمتحركة، فالذراع الثابتة للفرجار هي الشريعة، لا يندّ عنها الفرجار قيد أنملة، فعليها ثباته وحولها مداره، وأما الذراع الثانية للفرجار فهي التصوف، الذي يدور وراء التوجيهات الإلهية والأساليب التربوية الراقية، وأما المسافة بين الذراعين في الفرجار، فهي التي تتقارب وتتباعد وفق قدرة السالك في جهاده لنفسه، واستعداد قلبه للتلقي والتَّزَكّي والتطهر.

وخلاصة أصول التصوف خمسة أشياء: تقوى الله عز وجلّ في السرّ والعلن، واتباع السنة قولاً وعملاً، والإعراض عن الخلق، والرضا من الله تعالى بالقليل والكثير، والرجوع إلى الله تعالى في السرّاء والضرّاء.

[35] قواعد التصوف، القاعدة(2).

[36] المصدر السابق، القاعدة(216).

[37] المصدر السابق، القاعدة(46).

حاجة الدعاة إلى التصوف:

والدعاة اليوم بحاجة ماسة إلى التأسّي بذلك الجيل والتمسك بتلك الأخلاق، والأخذ بذلك التوجه الذي كان عليه الأوائل؛ ليرتقوا بهذه الأمة ولينهضوا بهذا الجيل، وسبيلُهم إلى ذلك نشرُ سيَر أولئك ومآثرهم، وأمجادهم وبطولاتهم وتضحياتهم، ليفوح عبقهم في كل مكان، ويصير ذكرهم على كل لسان، ويعرف أحوالهم كل صغير وكبير، وكل شاب وفتاة، فيستنوا بهم ويعملوا بعملهم.

كما أنّ الدعاة اليوم بحاجة إلى مراعاة مقام الإحسان الذي بدأ يخبو ويخفت في قلوب الكثيرين منهم مع انشغالهم بأمر العامة، وغلبة المادة في التعاملات والعلاقات بين الناس.

إن التزام الدعاة بالمنهج الصوفي الصادق المنضبط بضوابط الشريعة، يساهم لا محالة – في عصرنا الراهن – في انتشال الحضارة الإنسانية من واقعها المادي المأساوي القائم على طغيان النفس الأمارة بالسوء والاستعباد لشهواتها، انطلاقاً من النظرة الغريزية المصلحية التي تحقق للإنسان أكبر نفع ممكن، بمعزل عن كل القيم الروحية ومبادئ الحق والعدل.

ولا بد من التفريق بين التصوف الذي هو التخلق والتعبد على مقتضى الشرع كما سبق بيانه، وبين بعض الطرق الصوفية المستحدَثة، فإنّ بعض هذه الطرق لازمتها البدع ودخلها كثير من الوسائل والسلوكيات التي لا تسلم من مقال وانتقاد، على تفاوت بينها في ذلك بين مستكثر من البدع أو مقلّ.

لقد حمل بعض أدعياء التصوف – خاصة قبيل مرحلة الاحتلال الأوروبي – معاول الانحراف والهدم، فأصبحوا يقدّمون أسوأ صورة للإسلام، يكرّهونه للجيل الجديد من خلال طغيانهم واستغلالهم وسلوكهم المنحرف واصطباغ الدين بصبغة الجهل والتخريف، وتفضيلهم التقليد على الاجتهاد والابتكار، والاتجاه إلى الشعوذة والتدجيل، فكانت النتيجة أن يرتمي الجيل الجديد من الشباب المسلم في أحضان الثقافة المادية والعلمانية، نتيجة للتصوف المنحرف الذي يبرأ منه علماء التصوف الحقيقي وأتباعه أهل الصفاء والاتباع.

لذلك يقول الإمام بديع الزمان سعيد النورسي (ت:1379هـ) رحمه الله في إحدى رسائله (رسائل النور): "إنّ هذا العصر ليس بعصر تصوف وطريقة، وإنما هو عصر إنقاذ الإيمان".

وكان رحمه الله يعتقد أنّ الطرق الصوفية في هذا العصر لا تستطيع الوقوف أمام قوة الهجوم المشكك في الإسلام، لأنها تعتمد على التجربة الذاتية، ولا تعتمد في إدراك الحقائق على البراهين المنطقية والحجج العقلية والأدلة العلمية، التي هي صفة هذا العصر وما يموج فيه من تيارات وفلسفات.

ولذلك أيضاً كان شيخي الشيخ عبد الكريم الرفاعي (ت:1393هـ) رحمه الله، صاحب النهضة التربوية والدعوية التي عمّت بركتها سوريا وتحدثت بآثارها الركبان[38] ينأى بطلابه عن الطرق الصوفية، ويوجههم للتصوف العملي، فكان يرى أنّ الشباب اليوم بحاجة ماسة إلى الانكباب على العلوم والتضلع منها والرسوخ فيها، بما في ذلك العلوم الكونية مع التميز والإبداع، وأنهم بحاجة إلى ثقافة العصر ونضوج الفكر، على أن يُحكَم كلّ ذلك ويسيّج بالعلم الشرعي، ويُرعى ويصان بالإخلاص وتهذيب الروح، عن طريق الاهتمام بصنوف العبادات البدنية والمجاهدات القلبية، وذلك بالإكثار من الأذكار والتلاوة والقيام والتهجد، وغيرها من القُرَب التي هي ثمرة العلم والإيمان، وكان يرى أنّ الاهتمام بالطرق وتلقيها قد انقضى زمانه، وأنّ الدعوة للتصوف ليست بالضرورة دعوة لاتباع طريقة من الطرق الصوفية بحال من الأحوال، بل إذا تجرّدْتَ في كل أعمالك لله فأنت متصوف، سواء انتسبت إلى طريق معيّنة أم لا.

وقد بين ولده شيخي الشيخ أسامة الرفاعي حفظه الله ذلك في أحد محاضراته في ترجمة والده، فقال: "ما كان الوالد يقصد الطعن في الطرق، فقد بقي ملازماً لأوراد الطريقة النقشبندية إلى وفاته رحمه الله، ولكن المقصود أنّ لبّ التصوف هو الأذكار والأوراد وتربية النفس وتزكية القلوب وتوجهها إلى الله سبحانه وتعالى، فليست الطريقة إلا وسيلة من الوسائل وليست هي الغاية، وإنما الغاية أن تصل إلى هذا الهدف من التزكية بترويض النفس وترفعها عن الأخلاق الخبيثة وحملها على الأخلاق الحميدة، وهذا يمكن تأديته بوسائل متعددة، وليس بالضرورة أن يكون بالطرق الصوفية المعروفة".

[38] يقول الشيخ علي الطنطاوي في كتابه "رجال من التاريخ" بطبعته المزيدة: والشيخ عبد الكريم الرفاعي وعنده مئات ومئات من الطلاب، وهو قائد من أفضل قواد الجبهات الإسلامية، إخلاصاً وعملاً، وعفة يد، ونزاهة نفس، وحسن خلق.

معنى الولاية والولي

الولاية مراتب ودرجات، فليس كل الأولياء بمرتبة واحدة، والذي ينشرح صدري له ويميل قلبي إليه أنّ الولاية الكبرى الكاملة لا تحصل بالاكتساب والاجتهاد، فطالب الولاية لا يولّى، وإنما هي اصطفاء من الله ومنحة، ومنّة ورحمة، فكما أنّ النبوة اجتباء واصطفاء لا تُنال بالكسب والاختيار، فكذلك الولاية لأنها من إرث النبوة، فإذا كان العلماء ورثة الأنبياء، والمقصود ولا شك العلماء العاملون، فالأولياء أحق بهذا الإرث، لأنّ الوليّ هو العالم والعارف الحقيقي بالله عز وجلّ، وهو الوارث الكامل، لأنه ورث النبي صلى الله عليه وسلم علماً وعملاً وحالاً.

"وأحسن ما يُعتمد عليه في معرفة الولي: اتباع الشريعة الغراء، وسلوك المحجة البيضاء، فمن خرج عنها قيد شبر بعُد عن الولاية بمراحل، فلا ينبغي أن يطلق عليه اسم الولي ولو أتى بألف خارق، فالولي الشرعي اليوم أعزّ من الكبريت الأحمر ولا حول ولا قوة إلا بالله"[39].

لكنّ جمهور المحققين على أنّ الولاية مكتسبة، تحصل بمجاهدة النفس وتصفية القلب.

والاكتساب هو طلب الشيء بقوة واجتهاد. وعليه فالعمل لأجل تحصيل الولاية التي معناها القرب من الله تعالى برفع الحجب، وإخلاص العبودية إليه وصدق التوكل عليه، والانحياش ظاهراً وباطناً إليه؛ ليس بعلة قادحة في العبادة، وأما إذا قصد بالعمل الولاية التي معناها ظهور الخوارق والكرامات وانتشار الصيت وإقبال الخلق؛ فهذا لا يشك أحد أنه علة، بل شرك. وعليه يُحمل قول من قال: "لا يصل أحد إلى الله، ما دام يشتهي الوصول إليه"[40].

فمن أشهر من حصّل الولاية بالسعي والاكتساب الإمام الغزالي رحمه الله، فقد اعتزل المناصب بعد أن صارت بين يديه، وانحاش إلى العزلة عن الناس، وأخذ نفسه بالمجاهدات والرياضات النفسية والبدنية والروحية حتى حصلت له الولاية والمعرفة، وترك لنا كتابه الإحياء وغيره يحدّثنا عن هذه المجاهدات والرياضات، وعن النفس وكيفية تربيتها.

وأما أشهر من أكرمه الله بالولاية والمعرفة ابتداء؛ من غير مجاهدة ورياضة، فهو سلطان العارفين وشيخُ الصوفية الأكبر الشيخ محيي الدين بن عربي (ت:638هـ) رحمه الله، فقد حاز الولاية وهو على مشارف السابعة عشر من عمره، وترك لنا ثروة في فنون المعرفة والتصوف والفلسفة، قاربت الخمسمائة مخطوطة، جعلته يتربع على كل من سبقه في هذا المضمار، ولم يخلفه بعده مثله[41].

---

39 تفسير روح المعاني للألوسي، (يونس:30).

40 المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، موقف(67)، عبد القادر الجزائري.

41 انظر فصل الشيخ الأكبر وتحقيق المقال فيه.

وقد قال عن نفسه متحدثاً بنعمة الله عليه:

فلكلّ عصرٍ واحدٌ يسمو به وأنا لباقي العصر ذاك الواحدُ

وأما الولي فهو من كان همّه الله، وشغله الله، وفناؤه دائماً في الله[42]. وله معنيان:
الأول: أنه من يتولى الله تعالى أمره (وهو يتولى الصالحين) [لأعراف:196]، فلا يكلُه إلى نفسه لحظة، بل يتولى الحق سبحانه رعايته.
والثاني: أنه الذي يتولى عبادةَ الله تعالى وطاعتَه، فعبادته تجري على التوالي من غير أن يتخللها عصيان، ومن شرطِ الولي أن يكون محفوظاً كما أن من شرطِ النبي أن يكون معصوماً[43].
وروي عن أبي منصور مولى الأنصار – رضي الله عنه – أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "قال الله تعالى: إنّ أوليائي من عبادي وأحبائي من خلقي الذين يُذكَرون بذكري وأُذكَر بذكرهم"[44].
قال إبراهيم بن أدهم (ت:161هـ) لرجل: أتحب أن تكون لله ولياً؟ قال: نعم، قال: لا ترغب في شيء من الدنيا والآخرة، وفرّغ نفسك لله عز وجل، وأقبِل بوجهك عليه يرفق عليك ويواليك[45].
وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سُئل عن أولياء الله تعالى قال: "الذين إذا رُؤوا ذُكر الله"[46].
أما قوله تعالى: (الله ولي الذين آمنوا) [البقرة:257] فالمراد به الولاية العامة وهي النصرة والإعانة لعموم المؤمنين المذكورين بالآية.
وأما الحديث السابق فهو نصٌّ يدلّ على الولاية الخاصة لبعض المؤمنين التي لا تدل عليها الآية الكريمة، ولذلك لما سأل الصحابة النبيَّ عليه الصلاة والسلام عنها عرّفها لهم بما تقدم في الحديث.
ونظراً لما لأولياء الله من مكانة عند الحق تعالى، ولما لهم من جاهٍ عنده، فإنّه عز وجل قد يغار عليهم فينتقم من أعدائهم إذا آذوهم، ومن غيرته عليهم أن لا يظهرهم لجملة الخلق، فيضنّ بهم على خلقه حتى يلقوه تحت أستار الخمول وهم عرائس حضرته[47].

---

42 معراج التشوف وحقائق التصوف، ابن عجيبة.
43 انظر الرسالة القشيرية (201 و 202).
44 أبو نعيم في الحلية (6/1).
45 معراج التشوف وحقائق التصوف(25)، ابن عجيبة.
46 البزار في مسنده.
47 معراج التشوف وحقائق التصوف.

فكم من عبد مدفوع بالأبواب، لا يعيره عامة الناس اهتماماً ولا يقيمون له وزناً ولا يلقون له بالاً، هو عند الله مقبول، وهو عند الله ذو شأن لو أقسم عليه لأبرّه، أخفاه الله عن أعين العامة حفظاً له ورعاية لشأنه، فعن أَبي هريرة –رضي الله عنه– أَنَّ رسول اللَه صلَى الله عليه وسلم قَال: "رُبَّ أَشْعثَ مدفوعٍ بالأَبواب لو أَقسم على اللَّه لأَبرّه"[48]. بل قد يخفيه الله عن نفسه فلا يعلم أنه من أولياء الله وأحبابه.

فالأولياء كما وصفهم أحد المحبين: صانوا قلوبهم أن يدخلها غير الله، أو تتعلق بكون من الأكوان سوى الله، هم بالله قائمون، وفي الله ناظرون، وإلى الله راحلون ومنقلبون، وعن الله ناطقون، ومن الله آخذون، وعلى الله متوكلون. ما لهم معروف سواه، ولا مشهود إلا إياه. هم ضنائن الحق المستخلَصون.

[48] أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب فضل الضعفاء والخاملين.

الباب الثاني: من الأصول إلى الفروع

الفصل الأول: الجذور والنشأة

1- شجرة أصلها ثابت

2- الميلاد والنشأة

3- طلب العلم فريضة

الفصل الثاني: انخراطه في الحياة

1- التكسب سنة الأنبياء

2- أداء فريضة الحج

3- زوجاته وأولاده

4- الشيخة يسرى يحيى الصباغ

5- الشيخ حسن يحيى الصباغ

لو أن ابني يحيى جاء بحبل أو رسَن ولفّه على عنقي ثم أخذني وباعني في السوق ما نهيته عن ذلك، وكنت عنه راض!!.

والـد الشيخ يحيى

الشيخ يحيى هو الوارث المحمدي للشيخ سليم المسوتي.

محمد أبو الخير الميداني رئيس رابطة العلماء

لم أرَ نظيراً للشيخ يحيى في تفسير القرآن الكريم، وكان له فيه ذوق فريد.

محمود الغراب

شجرة أصلها ثابت

في بداية النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري (1255هـ–1840م) كانت المساكن في حي الصالحية تبتدئ من الجسر الأبيض، وتكاد تكون معدودة بالنسبة إلى ما آل إليه الحال اليوم، وكانت تشغل هذه الدور بعض العائلات الدمشقية، منها عائلة الشيخ صالح بن أحمد بن رجب الصباغ.

كانت هذه العائلة تمتلك كثيراً من دور هذا الحي وأراضيه ومزارعه وبساتينه، متناثرة قريباً من المفوضية الفرنسية حالياً قرب جادة العفيف شمالاً وحتى الجسر الأبيض جنوباً، وإلى حي أبي رمانة غرباً مروراً بشارع نوري باشا وحي الروضة، وكذلك البساتين المجاورة إلى قصر زيوار باشا[49] وهو ما يُعرف اليوم بثانوية جول جمال قرب المشفى الطلياني، إضافة إلى كثير غيرها في أماكن أخرى، كبستان النَّيْرَبَيْن[50] في آخر خط المهاجرين اليوم.

كثير من سكان هذه المنطقة كانوا من عائلة الصباغ ومن بعض العائلات التي تربطهم بها قرابة من مصاهرة ونحوها، كعائلة الجمّال، والبكري، أو ممن استأجر عندهم كعائلة أبي راشد التخين،

---

[49] قصر زيوار باشا العظم شيده في عام (1321هـ–1903م) الحاج زيوار باشا العظم في محلة الطلياني، وكان القصر متاخماً لبستان حمص من الجنوب، وبستان الرئيس من الشمال والشرق، وبستان الطاسات من جهة الغرب في أحضان هذه الطبيعة الخلابة.

والقصر عبارة عن بناء حجري ضخم، بديع الإنشاء، تحيط به حديقة واسعة، ويتمتع بواجهة حجرية كبيرة، ومشيد على طراز العمارة الأوربية البحتة، ويشبه في طراز عمارته أبنية القرون الوسطى، على شكل أربع أبراج متعامدة ومتداخلة مع بعضهما البعض ويتوسطهما المبنى الرئيسي، وفوق كل منهم سقف هرمي جملوني من القرميد.

إلا أن المنية قد عاجلت الحاج زيوار باشا فلم يتمكن من سكناه ومن تحقيق حلمه بسكن هذا القصر الكبير والجميل على الطراز الأوروبي. (نقلاً عن الباحث الأستاذ عماد أرمشي).

[50] النيرب: محلة كانت عامرة آهلة بالسكان تلي الربوة من جهة دمشق، والنيرب كلمة سريانية معناها الوادي ولكن يراد بها سفح جبل قاسيون مما يلي الربوة، ويقال أيضاً النيربان: يعني النيرب الأعلى والنيرب الأسفل.

ويصف ياقوت الحموي (النيرب) فيقول: قرية مشهورة بدمشق . . في وسط البساتين أنزه مكان رأيته.

وقد ورد مدحه ووصفه على لسان كثير من الشعراء منهم ابن لؤلؤ الذهبي حيث يقول:

ويوم لنا بالنيربين رقيقة — حواشيه خال من رقيب يشينه

وقفنا وسلمنا على الدوح بكرة — فردت علينا بالرؤوس غصونه

انظر: مقدمة الأستاذ محمد أحمد دهمان على القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية لابن طولون(54).

وقد ذكرها من المعاصرين خير الدين الزركلي صاحب الكتاب الشهير "الأعلام" في قصيدة مطلعها:

الأهل أهلي والديار دياري — وشعار وادي النَّيْرَبين شعاري

وقد أتت الساحات والشوارع الحديثة على هذه البساتين كلها. انظر: ذكريات علي الطنطاوي(297/1).

إضافة إلى بعض العائلات القليلة الأخرى كعائلة سكر، وسويد، وغيبة، وقطيط، وعبد ربه وغيرهم.

والد الشيخ يحيى:

في داره التي يسكنها في هذا الحي، ينعم الله على الشيخ صالح بمولود كثيراً ما تمناه وحلم به، فقد كان يسأل الله تعالى أن يكرمه بابن يسميه محيي الدين عسى أن يكون له شأن في نصرة الدين وإعلاء شأنه، وإحياء ما غفل الناس عنه من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام، فيكون اسماً على مسمى.

تغمر الفرحة قلب الشيخ صالح بهذا المولود وبهذه العطية والمنحة من رب العالمين، وتكبر الفرحة يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، وسنة بعد سنة، وما إن اجتاز الولد سنّ الطفولة وميعة الصبا، وبلغ ريعان الشباب فبقل وجهه وطُرّ شاربه، وبدأت تظهر عليه ملامح الرجولة، حتى أخذت السعادة تملأ الأبوين، ويخيّم الهناء على بيتهما ويظلّله، فها هما يريان فلذة كبدهما محيي الدين يصبح شاباً مفتول العضلات، قوي البنية، اكتسب من العمل ببساتين والديه صفات جميلة –يتحلّى بها عادة المزارعون– كالجد والمثابرة، والنوم باكراً بعد صلاة العشاء، فيكون ذلك عوناً له على أداء صلاة الفجر مع الجماعة في المسجد، ثم الجلوس لذكر الله قليلاً أو لقراءة آيات من كتاب الله تعالى بتفكر وتدبر، ثم بعد ذلك يعود أدراجه إلى بيته فيتناول ما تيسر من طعام يقيم أوده، لينطلق إلى عمله بهمة ونشاط.

فضل البكور:

وهذا – أعني عدم السهر والاستيقاظ فجراً، ثم مباشرة العمل مع ساعات النهار الأولى – كان حال الأغلبية من ذلك الجيل، كباراً وصغاراً، لا كما نراه اليوم من انقلاب الحال، وتغير العادات الجيدة والحميدة إلى عادات سيئة مقيتة، ليست من أخلاق الآباء ولا من شيم الأجداد، ولا هي من التحضر والمدنية في شيء، كما يتوهم بعض المولعين بالغرب، فإنّ الغربيين أنفسهم الذين فتن بهم بعض شبابنا فراحوا يتنافسون بتقليدهم والتشبه بهم، ويتسابقون للسير على خطاهم حذو القذّة بالقذّة، هؤلاء الغربيون أنفسهم، يبدؤون أعمالهم من ساعات الصباح الأولى، ويحرصون على اغتنام أوقاتهم والاستفادة منها مما لا يأبه له كثير من أولئك المفتونين.

لقد كنتَ إلى وقت ليس ببعيد تنزل إلى الأسواق مع طلوع الشمس فترى الدكاكين والمحلات بأنواعها كمحلات الخضار والبقالة والسمانة، ومحلات المهن من حدادة وسباكة ونجارة وخياطة، ودكاكين التجار من جملة ومفرق، كلها مفتوحة، فضلاً عن الخبازين والعمال والموظفين الحكوميين، كلهم بلا استثناء، تراهم على رأس عملهم مبكرين، فالمحلات والدكاكين بدأت من

ساعات الصباح الأولى تستقبل الوافدين، والحركة التجارية أخذت تعج بالمتعاملين، والكل منهمك في عمله وشغله بمثابرة وهمة، على عكس ما آل إليه حالنا.

حاول أن تجوب أسواق اليوم بعد أن يمضي ثلث النهار الأول وعلى مقربة من ثلث النهار الثاني فستُفاجأ بأن المحلات مقفلة والسوق داثرة، وكأنها في حالة إضراب أو عزاء، وإن صادفت أحداً على رأس عمله، رأيته يغالب عينيه من النعاس، وليس له مزاج أن يبيع الناس، قد أضناه السهر، وزاغ منه البصر، أرهقه البحث في القنوات الفضائية، ومتابعة البرامج التلفزيونية، عقله مشوّش، وخاطره مكدر، قد بال الشيطان في أذنه[51]، وعقد على قافية رأسه، فأصبح خبيث النفس كسلان[52]، إلا من رحم ربك من بقية صالحة لا تزال على نهج الآباء والأجداد، من التمسك بالقيم والفضائل والعادات المستوحاة من السنة النبوية الشريفة كقوله صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة رضي الله عنها: "يا بنية قومي اشهدي رزق ربك ولا تكوني من الغافلين، فإن الله يقسم أرزاق الناس ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس"[53] وكقوله عليه الصلاة والسلام في حديث آخر: "بورك لأمتي في بكورها"[54].

ورسخ في قلب محيي الدين وانطبع فيه من خلال طبيعة عمله ببساتين والديه صدق التوكل على الله تعالى مقروناً ببذل الجهد في العمل، فهو يغرس الشتلة ويلقي البذرة وكله يقين بأن عمله لن يؤتي أكله، وبأن غراسه وبذاره لن تُجنى ثمارُه إلا بمشيئة الله وإرادته، فلذا بعد أن يدفن بذاره ويواري التراب غراسه، يرفع يديه إلى السماء ويتوجه بقلبه إلى الله تعالى مناجياً إياه: الغيث الغيث، الرحمة الرحمة.

سعد الزوجان بفتوّة هذا الشاب وما تحلّى به من مكارم الأخلاق، وحلوِ الصفات، فتوافقا على أنّ وقت زواجه قد أزف، فلتجدّ أمه بالبحث عن العروس المناسبة، بعد أن اشتدّ عوده، وقوي ساعده، وخبر الحياة وعركه الدهر بتجاربه.

---

[51] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "ذُكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل نام ليله حتى أصبح، قال: " ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه، أو قال: في أذنه" أخرجه البخاري في بدء الخلق، بَاب صفة إبليس وجنوده. ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي في من نام الليل أجمع حتى أصبح.

[52] عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب كل عقدة عليك ليل طويل، فارقد فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان" أخرجه البخاري في الجمعة، باب عقد الشيطان على قافية الرأس. ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح. ومعنى يعقد: يربط فيثقل عليه النومه. والقافية: مؤخرة العنق أو القفا.

[53] البيهقي في شعب الإيمان.

[54] المعجم الأوسط للطبراني.

ما إن طرق هذا الخبر سمْع محيي الدين إلا وبدأت نشوة الرجولة تطوف في رأسه، والرغبة في عروس الغد تملأ نفسه، وأخذت مشاعر متباينة لم يعهدها من قبل تتسلل إلى كيانه، فها هو ذا مقبل على تحمل مسؤولية جديدة، وقريباً سيصبح زوجاً وعائلاً لأسرة توشك أن تولد.

الدين والخلق عماد الأسرة:

ودون طول عناء تعثر الأم على طِلْبتها، عروس كأنها خلقت لولدها، كيف لا، وهو من عائلة ذات دين وخلق ومال، فكل فتاة في العائلة أو حواشيها، بل كل بنت من بنات الحي وأطرافه وجيرانه، تتمنى أن تكون عروساً لشاب بصفاته وأخلاقه، فهل هناك نعمة للمرأة مثل نعمة الزوج الصالح الخلوق؟ وهل يوجد نعمة للعروس[55] تعدل نعمة الانتساب لعائلة معروفة بدينها وخلقها؟ هل ترجح كفّة المال والعقارات التي يملكها رجل من الرجال أو عائلة من العائلات على كفة الخلق والدين؟ لا، وألف لا، فالكيّس العاقل لا يؤخذ بمتاع الدنيا الزائل، ولا يلتفت لحطامها الفاني بل يحرص على سلامة الدين ومحاسن الأخلاق، ويا له من توفيق لو اقترن ذلك بالحسب والنسب! فإنه لا يمكن إنكار ما للنسب من تأثير وراثي على الصفات والخلال، فعن عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم"[56]. وقال عليه الصلاة والسلام: "تزوّجوا فى الحجز الصالح فإنّ العرق دسّاس"[57]. وفي المثل المشهور على الألسنة: "العرق نزّاع"، ومحيي الدين من عائلة يقال أنها ترجع في نسبها إلى (بني شيبة) سدنة الكعبة المشرفة، ويرجّح البعض أنها تنتسب إلى آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم[58]، فشرف وأيّ شرف لمن ينتسب لمثل هذه العائلة التي جمعت المجد من أطرافه، حسب ونسب، وخلق وأدب، ومال ونشب.

---

[55] العروس في اللغة تطلق على الذكر والأنثى، وقد تعمدت هذه الكلمة للإشارة لكلا الصاحبين.

[56] أخرجه ابن ماجه (1968).

[57] الديلمي عن أنس رضي الله عنه. وهو حديث ضعيف، والحجز: بالضم والكسر، العشيرة والأصل.

[58] يقال بأن أصل نسب عائلتنا يرجع إلى بني شيبة سدنة الكعبة المشرفة، وجدهم هو شيبة بن عثمان بن أبي طلحة من قريش، ولم يُعرف أن أحداً من أصول العائلة اشتغل بمهنة الصباغة، ولكن هذا اللقب جاء – كما هو مشهور عند أجداد هذه العائلة – بسبب أن أحد الأجداد كان من الصالحين العارفين، يأتيه الناس ليتبركوا به ويستمعوا لوعظه ونصحه، فكان بعضهم يقول له: يا شيخنا إصبغنا بصبغة الله التي صبغك الله بها، فسُمي (الصباغ) وانتقلت هذه الكنية للعائلة واشتهرت بها، والعلم عند الله.

ومرة كنت في مجلس للشيخ السيد النسيب محمد الفاتح الكتاني بحضرة أستاذي الشيخ أسامة عبد الكريم الرفاعي، فسمعت السيد محمد الفاتح يقول أن الشيخ يحيى منسوب إلى بيت النبوة، وأن نسبه غير مشكوك فيه، والسيد محمد الفاتح لا يتكلم بمثل هذا الكلام إلا عن معرفة وغلبة ظن إن لم يكن عن يقين، لأن العلاقة بين والده السيد محمد المكي وبين الشيخ يحيى كانت علاقة حميمة ووطيدة ومميزة كما يأتي.

إنه لا شك ولا ريب أنّ التوفيق سيكون حليف الفتاة التي سيكون نصيبها هذا الشاب الذي تحلى بكل هذه الشمائل، والتي جمعت عائلته كل هذه المزايا والفضائل.

ويسمع الشاب أمّه وهي تقول لأبيه: لقد رأيت نفيسة الصباغ، إنّ عهدي بها صغيرة ولكنها – ما شاء الله – طري لحمها، واكتمل حسنها، وأصبحت عروساً سبحان من خلقها فجمّلها خلْقاً وخلُقاً، وأنشأها إنشاءاً فجعلها مؤدبة حالاً ومخبراً! ثم هي من عائلتنا وقرابتنا، ومشهود لأهلها بالخلق والكرم، فضلاً عن أنهم يعدلوننا مالاً وثراء، فما رأيك أن نخطبها لولدنا محيي الدين؟ فيهزّ زوجها صالح رأسه، ويردف قائلاً: إذا كانت كما وصفْتِ وقلتِ فتوكلي على الله، ولا تنسي أن تسمعي رأي محيي الدين في ذلك، فإن هشّ وبشّ، وعزم ولم يتلكأ، فليستخر الله تعالى في هذه الزيجة وهذه الفتاة، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلّم صحابته الاستخارة في الأمور كلها[59]، فإن انشرح صدره لذلك، فاضربي من أجل ذلك موعداً، ورتبي له مشاهدة، وهيئي ما يجعل نفيسة وأهلها في غاية السرور، فإنّ من السنة كما جاء عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى

وقد أحببت بعد فترة أن أتأكد من هذا الكلام فسألت الشيخ السيد محمد الفاتح (2009/6) عن هذا الأمر فأكد لي أن الشيخ يحيى منسوب لبيت النبوة.

وقد التقيت عدة مرات بأفراد من عائلة الصباغ الذين لا يزالون في موطنهم الأصلي مكة المكرمة، وتعرفت على بعضهم أثناء إقامتي الطويلة في مدينة جدة.

ومما يؤكد نسبنا لآل بيت النبوة أيضاً أن ولدي أحمد أثناء عمله في جدة تعرف على رجل فاضل من مكة المكرمة اسمه عبد الأحد البخاري، فسأل ولدي عن اسمه وأصله، فقال له ولدي: أصلنا من مكة المكرمة. فقال له هذا الشخص: إنّ آل الصباغ الذين في مكة حالياً هم من آل بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وأيضاً جمعت علاقة عمل في جدة بين ولدي أحمد وشخص كبير في السن من آل بيت النبوة اسمه علي محرق، فكان لما يكلم ولدي يناديه: إما (السيد) لقناعته أنّ بيت الصباغ في مكة هم من آل البيت، وإما يناديه (ابن العم).

ومما يُستأنس به في هذا أنّه لما خُطبت إحدى بنات الشيخ يحيى استخار الخاطب الله تعالى في الزواج منها فرأى في الرؤيا الشيخ عبد الغني النابلسي – رحمه الله – يقول له: إسأل الشيخ الأكبر، ويشير له إليه، فنظر فإذا بشيخ جليل وعليه مهابة كبيرة يقول له: أتعرف من تخطب؟ هذه بنت الشيخ يحيى الصباغ!! وهو بضعة من السيدة فاطمة الزهراء، ومثلها لا يحتاج إلى استخارة!!.

وقد كان الشيخ يحيى رحمه الله، – ككل أهل الله – يكره الظهور وينهى عنه، فلم يكن يذكر أي شيء تشتمّ منه رائحة الظهور أو التعالي، كتفاخره ومباهاته بكثرة شيوخه أو بعلمه أو بحاله، أو بنسب أو جاه أو مال ونحو ذلك.

لا تقل أصلي وفصلي أبداً إنما أصل الفتى ما قد حصل

[59] عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: "إذا همّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري – أو قال عاجل أمري وآجله – فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري – أو قال في عاجل أمري وآجله – فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني" قال: "ويسمي حاجته". أخرجه البخاري في الجمعة، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى.

الله عليه وسلم: "إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل"[60].

وينتشي محيي الدين فرحاً بهذه البشرى، وربما كانت هذه الليلة من أطول الليالي في حياته، فقد مضت بطيئة ثقيلة وهو ينتظر قدوم الصباح ليرى عروسه المرتقبة، فقد عرّضت له أمه بحسنها وأنوثتها، وأومأت له على استحياء بما حباها الله من إشراق وجمال ونضارة، وحدثته عن دينها وخلقها وأدبها، ولم تنس أن تذكّره بأنّ "الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة"[61] وطاف في ذاكرته ما تعلمه من قول المصطفى عليه الصلاة والسلام لعمر رضي الله عنه: "ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة، إذا نظر إليها سَرتْه، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته"[62].

ويحصل النصيب ويتزوج محيي الدين من نفيسة، ويبني بها، ولم يخطر في باله ولا بالها أن تتحقق أمنيتهما بهذه السرعة، فيجمعهما الله تحت سقف واحد وعلى فراش واحد.

والدة الشيخ يحيى:

لقد كانت نفيسة من نفس العائلة، ومن والد ثريّ له كثير من العقارات، وكانت كريمة من أصلاب كرام، وصالحة من أرحام أمهات صالحات، وها هي ذي قد ارتبطت برجل من عائلتها يكافئها حسباً ونسباً ونشباً، مما كان له أكبر الأثر في أن يعيش الزوجان عيشة هنيّة وحياة رضية، ينعمان بالسكينة والهدوء، ويجد كل واحد منهما في صاحبه ما يحبه من الآخر، خلق حسن، ودين وأدب، ولطافة وحسن عشرة، ولا ينغّص حياتهما شيء من متاعب الدنيا إلا ما هو من طبيعتها وسنتها، فالدنيا لا يؤمن جانبها!!، ومن رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها مع غفلة عن الآخرة، فجأته وغدرت به، فالمؤمن الفطن دائم الحذر منها، لا تغرّه ولا تجرّه، ولا تغويه **ولا** تستهويه، لأنه يحتاط لنفسه، فهو دائماً مع الله قانت آناء الليل ساجداً وقائماً، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، يدعوه رغباً ورهباً.

وتمرّ الشهور وتتعاقب السنون، ولم يرزق الزوجان بمولود يكمل فرحتهما، ويملأ عليهما البيت فرحة وتغريداً، ومن ثمّ بدأ تأخر نفيسة في الإنجاب يقلقها ويزعجها، ويرمي بثقله على حياتها، فهي تريد أن تسعد مع زوجها بذرية تصل ما قد يتباعد من قلبيهما، وتودّ لو تكتحل عيناه وعيناها بأولاد يكونون ثمرة من ثمرات هذا الزواج الميمون، فالغاية من الزواج في ديننا ليست

---

60 أخرجه أبو داود (2082).

61 أخرجه مسلم في الرضاع، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة.

62 أخرجه أبو داود (1664).

مقصورة على قضاء الوطر وبلوغ الشهوة، ولا محصورة في ضبط الغريزة وتهذيبها، فهذه الأشياء هي تحصيل حاصل في هذا الارتباط التعبدي الذي تدعو إليه الفطرة، وتحض عليه تعاليم الإسلام، ولكن الهدف الأسمى من الزواج هو الذرية!! نعم إنجاب الذرية الصالحة التي تعبد الله وتذكره، وتعمر الدنيا بما يرضيه، ذرية تقرّ بها عين المصطفى عليه الصلاة والسلام ويباهي بها الأمم يوم القيامة.

وتتوالى الأيام متثاقلة على نفيسة وزوجها محيي الدين دون أن يتحقق المراد، رغم أنّهما جرّبا كلّ ما وصفه لهما أهل الخبرة من دواء، وتعاطيا كلّ عشب ينصح به العطارون لمعالجة الأدواء، ولم يتركا وصفة وصفها صديق أو أشار بها قريب أو بعيد.

وفي ليلة من الليالي المباركة وبينما الزوجة مستغرقة في الدعاء والبكاء، يقع في قلبها – وكان لها اعتقاد بالأولياء والصالحين – أن تذهب إلى المسجد الأموي وتزور نبي الله يحيى الحصور على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأتم التسليم لتناجي الله عنده وتتوسل به، وألّحت نفسها عليها في ذلك وما هدأت، وبقيت على ذلك دهراً، إلى أن جاءت المسجد يوماً تجرّ إليه خطاها حزينة مهمومة، فتوجهت إلى مرقد النبي يحيى بكل أمل وثقة بالله، مع اعتقاد راسخ بالأنبياء وجاههم ومكانتهم عند الله.

مشروعية زيارة قبور الأنبياء والأولياء والتوسل والتبرك بهم:

وكانت – رحمها الله – تعرف بيقين لا يعتريه شك أنّ مراقد الأنبياء تحفّها الملائكة، وتتنزل عليها الرحمات، فلا ريب أنّ هذا قرينة قوية لاستجابة الدعاء، فإذا كانت الرحمة تتنزل عند ذكر الصالحين، فما ظنك بمواطن اجتماعهم على ربهم!!؟

"وما في قبور الأنبياء والصالحين من كرامة الله ورحمته، وما لها عند الله من الحرمة والكرامة فوق ما يتوهّمه أكثر الخلق!"[63]. إذاً فزيارتهم فيها تعرّضٌ لما يتجدّد من نفحات الرحمة عليهم.

وعلى التوسل بالأنبياء والصالحين – أحياء وأمواتاً – جرت الأمة طبقة فطبقة، وقد جُرِّبت إجابة الدعاء عند قبور كثير من الأولياء في عدد من الأقطار، جرّبها العوام والخواص، كما جرّبها العلماء والصالحون، وقد وجد كثير منهم فيها طِلبته، وحقق الله بها رجاءه واستجاب دعاءه[64]، فهذا الإمام الشافعي رحمه الله يقول: "قبر موسى الكاظم الترياق المجرّب"[65]. ويقول: "إني لأتبرك بزيارة أبي حنيفة (ت:150هـ) وأجيء إلى قبره في كل يوم، فإذا عرضت لي حاجة صليتُ

[63] اقتضاء الصراط المستقيم (373)، ابن تيمية.

[64] بشرط مراعاة آدابها من ترك التمسح بالقبر، واستحضار أنّ النافع والضارّ هو الله تعالى وحده، فلا يسأل الميت وإنّما يسأل الله، ويشترط أيضاً مراعاة حرمة الميت كحرمته حياً.

[65] انظر قواعد التصوف لزروق، قاعدة (154).

ركعتين وسألت الله الحاجة عنده، فما تبعد عني – أي الزيارة – حتى تُقضى"[66]. وقبر الإمام الغزالي بطوس يدعو الناس عنده فيستجاب لهم[67]، وأهل العراق يقولون: الدعاء عند قبر معروف الكرخي (ت:200هـ) ترياق مجرب[68].

وهذا الحافظ عبد الغني المقدسي الحنبلي خرج في عضده شيء يشبه الدمّل فأعيته مداواته، ثم مسح به قبر أحمد بن حنبل فبرئ ولم يعد إليه[69].

وروى السبكي أثناء ترجمته للإمام البخاري عن الحافظ أبي علي الغساني (ت:498هـ) قال: أخبرنا أبو الفتح، نصر بن الحسن التُنكُتي، السمرقندي (ت:486هـ) – قدم علينا بلنسية عام أربع وستين وأربعمائة – قال: "قحط المطر عندنا بسمرقند فى بعض الأعوام، فاستسقى الناس مراراً فلم يُسقوا، فأتى رجل صالح معروف بالصلاح إلى قاضي سمرقند فقال له: إني قد رأيت رأياً أعرضه عليك، قال: وما هو؟ قال: أرى أن تخرج ويخرج الناس معك إلى قبر الإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت:256هـ) ونستسقي عنده، فعسى الله أن يسقينا، فقال القاضي: نِعم ما رأيت. فخرج القاضي والناس معه، واستسقى القاضي بالناس، وبكى الناس عند القبر، وتشفّعوا بصاحبه، فأرسل الله تعالى السماء بماء عظيم غزير، فقام الناس من أجله بخرتنك (محلة أو مدينة) سبعة أيام أو نحوها لا يستطيع أحد الوصول إلى سمرقند من كثرة المطر وغزارته، وبين سمرقند وخرتنك نحو ثلاثة أميال"[70].

والضابط في هذا: أنّ كل من يُتبرك به في حياته يجوز التبرك به بعد موته[71].

هذا عند قبور الأولياء والصالحين، فكيف عند قبور الأنبياء والمرسلين[72]؟

فهذا الصحابي بلال بن الحارث رضي الله عنه يأتي قبر النبي عليه الصلاة والسلام أيام القحط في عهد عمر رضي الله عنه فيقول: "يا رسول الله استسق الله لأمتك فإنهم قد هلكوا، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال: ائت عمر فأقرئه السلام وأخبره أنهم يسقون"[73].

---

66 تاريخ بغداد (123/1)، الحافظ الخطيب البغدادي، بسند صحيح.

67 طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي. ذكره عند ترجمته للإمام الغزالي.

68 كما ذكر الخطيب في تاريخه، والذهبي في سير أعلام النبلاء، والقشيري في الرسالة، وغيرهم.

69 من كتاب (الحكايات المنثورة) للحافظ الضياء المقدسي الحنبلي المحفوظ تحت رقم(98) من المجاميع بظاهرية دمشق، حسب ماذكره الكوثري في مقالاته (338) ثم عقّب على القصة بقوله: "وأي حنبلي يستطيع أن يقول عن هؤلاء إنهم قبوريون يتعبدون الضرائح؟!!"

70 طبقات الشافعية الكبرى.

71 هذا ما يقرره الإمام الغزالي رحمه الله في كتابه (إحياء علوم الدين) في كتاب آداب السفر.

72 انظر مشروعية التوسل بالرسل والأنبياء والتبرك بآثارهم أحياء وأمواتاً في (كتاب كبرى اليقينيات الكونية:294-296) للأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي. وانظر كذلك مقالة الكوثري "محق التقول في التوسل" من (مقالاته:339).

وقد علّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الضرير أن يتوسل به فيقول: "يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي" وفيه التوسل بالشخص[74]، وورد أيضاً في حديث فاطمة بنت أسد رضي الله عنها قوله صلى الله عليه وسلم: "بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي"[75] وهو نصٌّ على أنه لا فرق بين الأحياء والأموات في باب التوسل، وهو توسل بجاه الأنبياء صريح.

صحيح أنه لم يثبت صحة مقام نبي إلا مقام نبينا عليه الصلاة والسلام، إلا أنّ الصالحين والأولياء يعظّمون هذا المكان، ويعتقدون بصحة كونه مقام النبي يحيى – على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام – ومعلوم أنّ للأمكنة في القلوب تأثيراً، فكما تتفاضل المنازل الروحانية كذلك تتفاضل المنازل الجسمانية، ففرق كبير بين مدينة يكون أكثر عمارتها الشهوات، وبين مدينة يكون أكثر عمارتها الآيات البينات، وذلك من أجل من يعمر ذلك الموضع إما في الحال من الملائكة المكرمين أو من الجنّ الصادقين، وإما من همّة من كان يعمره وفُقِد، وعلى قدر جلسائك يكون وجودك[76].

عند النبي يحيى الحصور ومرقده الطهور، أخذت الزوجة الصابرة تناجي ربها، وتستعطف خالقها بدموع الافتقار والمسكنة له تعالى، وهل هناك شيء أفضل من التذلل والتمسكن يتقرب به العبد إلى ربه؟؟ فما عُبد الله بشي أفضل من التذلل، وطال بها المقام وهي تدعو بحرقة وتضرّع، وبقلب مفعم بالثقة بمن بيده الخلق والأمر، وأنه لا يكون إلا ما يشاؤه ويقدره، وكلها يقين وإيمان أنّ كل الناس بل كل من في الكون أحياء وأمواتاً لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، وإنما نحن متعبدون بالأسباب، والدعاء في المواطن التي هي مظنة الاستجابة واحد من هذه الأسباب، وجادت قريحتها بالطلب، وأسعفها الفتح الإلهي بدعاء المنكسر المضطر الذليل، ورفعت حاجتها إلى مولاها الباري، ثم توسلت بمن هي في حضرته، ونذرت لئن رُزقتْ بولد لتسمينّه يحيى، ولم تنس أن تسأل الله تعالى أن يكون هذا المولود باراً صالحاً، إذ ما فائدة الولد العاق أو الفاسق؟

---

[73] انظر نص الحديث في مصنف ابن أبي شيبة، كتاب الفضائل، باب ماذكر في فضل عمر، عن مالك الدار رضي الله عنه. وسنده صحيح كما في (فتح الباري).

[74] مسند أحمد، حديث عثمان بن حُنَيف – بالتصغير – رضي الله عنه.

[75] المعجم الأوسط، مَن اسمه أحمد. صححه الطبراني وأقره عدد من الحفاظ كأبي الحسن الهيتمي في (مجمع الزوائد) والمنذري في (الترغيب والترهيب) وغيرهما، كما روي من طرق أخرى عند غير الطبراني.

[76] انظر تفصيل ذلك في كتاب (الفتوحات المكية:2/120-123)، محيي الدين بن عربي الحاتمي.

وما الحاجة في الولد الشارد عن سيده والآبق من مولاه؟ إنه إذا كان كذلك فهو وبال على والديه ولا شك، وهمّ لهما ومحنة بلا ريب، وبلاء ما بعده بلاء.

إنها كانت تطمع أن يكون هذا المولود أكثر من ولد بارّ وصالح، لقد رجت أن يعمّ نفعه، ويكون لها صدقة جارية فلا ينقطع عملها إذا حضرها الموت، فإنه " إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"[77]، فتوسّلت أن يكبر هذا الغلام الذي ترجوه، ويصبح عالماً وشيخاً يدرّس في الجامع الأموي!!

وتمضي الأيام، ويصبح الحلم حقيقة، والأمل واقعاً، فقد تحقق الرجاء واستجاب الله الدعاء، فأكرمها بالمولود الذي طالما ناجت الله من أجله، فلم تنس ما نذرته عند قبر النبي يحيى، فسمّت مولودها يحيى!!

وهذا النذر عند مقام النبي يحيى مع هذا التضرع والدعاء شبيه بقصة الشيخ يحيى المكتبي الشهير بزميتا (ت:1378هـ)، فقد تزوج والده بسبعة نسوة ولم يرزق بمولود ذكر، وفي زواجه الأخير رأى في نومه نبي الله يحيى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والتسليم يبشره بمولود، ويقول له: سمّه يحيى. فاستبشر بهذه الرؤيا واكتنى بأبي يحيى، فما لبث أن أكرمه الله بمولود، فحفظ القرآن منذ صغره، وطلب العلم حتى صار عالماً، وكان من خواص الشيخ المحدث الأكبر محمد بدر الدين الحسني (ت:1354هـ)[78].

ثم تتابعت الخيرات والعطايا والهبات على نفيسة، فولدت بعد يحيى أربعة من الذكور، ولم يكن لها نصيب بالبنات، إذ كان نسلها كله ذكوراً.

كان يحيى أحب أبنائها إليها، فهو بكرها وفرحة عمرها الذي نذرت من أجله ما نذرت، وسألت له من الله ما سألت.

فهل حقق الله رجاءها؟ وهل استجاب دعاءها؟

هل أصبح يحيى – كما تمنّت – عبداً من عباد الله الصالحين، وواحداً من العلماء المشهورين؟

وهل درّس يحيى في الجامع الأموي؟

هذا ما سنعرفه في الصفحات التالية من هذا الكتاب.

---

[77] أخرجه مسلم في الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته.

[78] تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر، نزار أباظة ومطيع الحافظ.

الميلاد والنشأة

ولد الشيخ يحيى في عام (1296هـ-1878م)، أي بعد سنتين تقريباً من تولي السلطان عبد الحميد (ت:1363هـ) أمور الخلافة في الدولة العثمانية، وعاصر انتهاء الحكم العثماني ثم الاحتلال الفرنسي لسوريا (1338هـ-1920م)، وواكب مسيرة الثورة السورية المباركة والجهاد والنضال ضد الاستعمار، إلى أن تتوّجت تضحيات الثوار والمجاهدين ومن خلفهم الشعب السوري بكل فئاته وأطيافه برحيل المحتل عن بلادنا الحبيبة في عام (1365هـ-1946م)، كما عاصر الحكم الوطني، ثم أول انقلاب عسكري في سوريا بقيادة الزعيم (العميد) حسني الزعيم (ت:1368هـ-1949م)، ثم الوحدة مع مصر إلى آخر عهدها حيث وافاه الأجل قبيل الانفصال بشهرين تقريباً (1381هـ-1961م).

في بداية هذه الحقبة من الزمن كانت سوريا تمر بمرحلة صعبة، وتتقاذفها أحداث عديدة، وكانت تنتظرها شدائد مزعجة، فإرهاصات سقوط الدولة العثمانية بادية، والأطماع في هذه المنطقة متزايدة، والمسلمون في وضع لا يُحسدون عليه.

في هذه البيئة وتلك الظروف ولد الشيخ يحيى، وكان ميلاده في منازل العائلة من حيّ الصالحية خارج أسوار دمشق، وعلى سفوح قاسيون قريباً من مسجد الشيخ الأكبر وضريحه، حيث كان للعائلة تعلق قلبي وارتباط روحي بالشيخ محيي الدين بن عربي (ت:638هـ)، فمعظم أجداد العائلة مدفونون في المقبرة الملاصقة لروضة الشيخ الأكبر ولمسجده المبارك، وقد تحوّلت اليوم إلى حديقة لمدخل المسجد من الجهة القبلية.

فقد كانت الصالحية وجوار الشيخ الأكبر مراح طفولته، ومربع صباه، ودار نشأته، ومجلى نبوغه.

ولد سيدي يحيى من أبويين صالحَين عابدَين، وثريين في نفس الوقت، فأمه نفيسة الصباغ كانت امرأة صالحة ومحبة للعلماء والصلحاء، وقد كان لها اعتقاد بالعارفين والأولياء، كما مرّ، وقد تأثرت أيضاً بزوجها محيي الدين، المولع كأبيه وأجداده وخاصة جده الأكبر أسعد[79] بمحبة الشيخ محيي الدين بن عربي، فقد شب وكبر ليجد نفسه يحمل هذا الاسم، ولا شك أنه كان يتساءل من هو محيي الدين؟ ولم سُمّيتُ بهذا الاسم يا ترى؟ كما يتساءل كثير من الأطفال، لما يبلغ الواحد منهم سنّ الصبا. ولكن الشيخ صالح استبق تساءل ابنه محيي الدين، فزرع في نفسه منذ صغره

[79] هو واحد من أجداد العائلة الأولياء والصالحين، إذ أنه لما رزق والدي الشيخ حسن بولده الثاني وكان الأول – حسني– قد انتقل إلى رحمة ربه في السنة الأولى من ولادته، جاء والدي يطلب الإذن من جدي الشيخ يحيى ليسمي المولود "جمعة"، فقال له: بل سمّه "محمد أسعد" على اسم جدّنا الأكبر، وذكر له أن هذا الجدّ كان من أهل الولاية وذو حال عليّة من المعرفة الربانية، فامتثل والدي لأمر والده.

أنه سَمِيٌّ لعلّامة من أكابر العلماء، ولشيخ من كبار الشيوخ؛ بل إنه الشيخ الأكبر، سَمِيّ لعارف من أشهر العارفين؛ بل إنه سلطان العارفين وقطب الأولياء الواصلين، هو المسجّى في ذاك الضريح الرابض على سفح ذاك الجبل الشامخ، هو محيي الدين الحاتمي، الجبل الذي احتضنه جبل اشتهرت سفوحه وروابيه باحتضان عشرات بل مئات من أضرحة الأنبياء والصحابة والأولياء، حتى قيل فيه: "هناك في جبل صالح كنز من الجواهر، ونحن نحب دمشق ونهيم بها لوجود هذا الكنز بها". لذا سُمي واشتهر بجبل الصالحين، نسبة للصالحين الذين عمروه وسكنوه من المقدسيين المَقادمة الذين هاجروا منذ قرون خلت (منتصف القرن السادس الهجري) إلى دمشق، إنّه قاسيون حاضن دمشق، وسورها الطبيعي من جهة الشمال، الشاهد على تاريخها العريق، يحكي مجدها التليد.

يا نسيماً سرى إلى قاسيونا حيَّ حبراً بسفحه مدفونا

لقد عاش والد شيخنا المترجم محباً لسلطان العارفين، يكثر من زيارته والتردد عليه، وأوصى أن يدفن بجواره في روضته، كما هو حال أبيه وأجداده، وتحقق مراده فدفن هناك مع أجداده.

من هذين الأبويين الكريمين ولد الشيخ يحيى، فلا غرابة أن ينشأ على الصلاح والتقوى، وعلى محبة العلماء العاملين والأولياء العارفين وإجلالهم ومعرفة قدرهم، وخاصة الشيخ الأكبر.

إنّ العناية الإلهية التي اختارت له هذين الأبويين، فكانت معه تلاحظه قبل ولادته، هي نفسها التي تولته في مهده ثم كانت معه تلاحظه في طفولته، فقد ظهرت عليه وهو طفل صغير بعض العجائب والآيات التي جعلت والديه يحبانه حباً شديداً، ويتعلقان به تعلقاً كبيراً، فكانا حريصين كل الحرص على أن يتربى على العلم والتقوى، فيتتلمذ على علماء عصره، ويلزم أولياء وقته.

وإذا رأيت من الهلال نموّه أيقنت أن سيصير بدراً كاملاً[80]

[80] من قصيدة للشاعر أبي تمام.

طلب العلم فريضة

لما رأى الوالد على فلذة كبده ومهجة قلبه يحيى علائم النباهة والنجابة، مع ما عليه من الاستكانة والخضوع والتذلل لله في سنّ مبكرة جداً، أحسّ أنّ مظاهر العناية الإلهية تحفّه وترعاه، فدفعه إلى طلب العلم وأخذ يشجعه ويحضّه عليه، وسهّل له سبيله ومهّد له الطريق إليه.

فبدأ أول ما بدأ – وهو غلام يافع – بالتردد على مدرسة كانت تعرف بالمدرسة التكريتية[81]، وكان يرعاه فيها ويشرف عليه وقتها الشيخ أحمد السوسي[82]، فبدأ فيها التعلم على طريقة التعليم في ذلك الوقت، وكان حفظ كتاب الله تعالى هو أول ما يبدؤون به مع الطلاب.

فهل حفظ القرآن الكريم في هذه السنّ المبكرة، وهو بعد غضّ الإهاب طريّ العود؟ وكيف حفظه؟ وكم هي المدة التي استغرقها لهذا الإنجاز؟

قد يتبادر للذهن أنه لما شرع في الحفظ كان ينجز كل يوم حصة من كتاب الله تعالى صفحة أو صفحات، ثم هكذا تتابع الأمر كل يوم حتى أتى على إتمام حفظ القرآن الكريم وإتقانه كله، هكذا يتخيل المرء، وهذه هي الطريقة المعهودة في الحفظ. هذا الظنّ هو الشائع بين أفراد العائلة الأقارب والأباعد فضلاً عن المحبين والمعجبين بالشيخ، ولكن إذا عدنا للشيخ لنلتقط من دروسه ومجالسه ما يفيدنا عن كيفية حفظه لكتاب الله تعالى لوجدنا شيئاً عجيباً، ولأدركنا أمراً غريباً، ولكنه متناغم ومتناسق كل التناسق مع ما عُرف عن صلاح الشيخ منذ طفولته، ومع ما شاهده عليه والداه من عجائب تدل على ولاية الله له في سنّ مبكرة كما مرّ معنا، وأيضاً متوافق كل التوافق مع ما اشتهر عن الشيخ من أنّ علمه علم لدنّي وهبيّ فيضي من الله تعالى، وسيأتي تفصيل ذلك في الصفحات التالية، فماذا ورد عن الشيخ في كيفية حفظه لكتاب الله تعالى؟

جمعني مجلس مع عدد من أهل العلم بالحافظ المتقن الشيخ عبد الفتاح السيد – تلميذ شيخي الشيخ عبد الكريم الرفاعي، رحمه الله تعالى– فمرّ الحديث عن الصالحين ومن جملتهم الشيخ يحيى، فروى الشيخ عبد الفتاح السيد –حفظه الله– في هذا المجلس أنه كان في مقتبل شبابه كثيراً ما يجتمع بالشيخ في مجالس العلم ومجالس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وكان

---

[81] وهي التربة التكريتية، كانت قائمة في جادة المدارس بحي الصالحية وكان يقابلها المسجد التكريتي، في زقاق النواعير، وكان في الأصل دار الحديث القلانسية، وهو اليوم دار للسكن، بنى المدرسة الوزير تقي الدين ابن علي بن مهاجر (ت:698هـ). انظر: معجم الأسر والأعلام الدمشقية، محمد شريف الصواف.

[82] الصوفي المشارك أحمد السوسي ثم الدمشقي. ولد في المغرب ببلدة سوس، وهاجر إلى دمشق فنزل بحي الصالحية بالمدرسة التكريتية، ثم سكن بدار الشيخ إسماعيل اليعقوبي خمس سنوات.

شهد له علماء عصره بالفضل، وأقروا له بالإرشاد وكانوا يزورونه ويوادّونه، كما كان أعيان البلد يترددون عليه (ت:1350هـ). أعلام دمشق، للشطي.

قد أتم الحفظ في سنّ مبكرة، فإذا رآه الشيخ في هذه المجالس طلب منه أن يقرأ عشراً من القرآن الكريم، بعد ذلك يشرع الشيخ فيفسّر ما قُرئ، كعادته في ذلك، فمع المدة وتكرر المجالس التي جمعت الشاب اليافع عبد الفتاح بالشيخ يحيى، أُعجِب بمتانة حفظ الشيخ وسرعة استحضاره للشواهد، يقول: ورغم أني حافظ متقن لكني لا أستطيع أن أستحضر الشواهد القرآنية كما يستحضرها الشيخ في دروسه وأثناء وعظه، فقلت في نفسي ذات مرة وأنا أسمع الشيخ يفسر القرآن بالقرآن ويأتي بالشواهد بطريقة مدهشة حتى للحفظة المتقنين: كيف حفظ الشيخ القرآن الكريم بهذه الصورة من المتانة والتثبت؟ فإذا بالشيخ يقول: تسألون كيف حفظت القرآن الكريم؟!! . . . الله عز وجلّ هو حفّظني!! يقول الشيخ عبد الفتاح: قلت في نفسي: كلنا الله حفّظنا، أودّ أن أعرف كيف حفظ الشيخ، فإذا بسيدي يحيى يتابع فيقول: رغبت في الحفظ فالتجأت إلى الله عزّ وجلّ في الليل وبكيت وبكيت وبكيت طويلاً، ثم نمت بعد ذلك، ولما استيقظت فجر اليوم التالي وجدت نفسي أحفظ القرآن الكريم!! .. عرفتوا كيف الله حفّظني؟

يقول الشيخ عبد الفتاح للحاضرين في المجلس: هذا الذي سمعته من الشيخ كأني أسمعه اليوم، ولا أنساه أبداً، وأذكره بكل دقّة (يؤكّد أنه ليس واهماً أو متشككاً أو أنّ الزمان قد لبّس عليه ما سمعه).

وأيضاً فإن الشيخ حفظ معظم صحيح البخاري عن ظهر قلب، فهل حفظه بنفسه على طريقة من يحفظون كتب السنة الشريفة؟ أم حُفّظه وهباً وفيضاً من الله تعالى كما وُهب القرآن الكريم؟ كلّ ذلك محتمل، والله أعلم بحقيقة الأمر إذ لم يصلني ما يوضح ذلك.

بدأ الشيخ منذ أول صباه بعد أن حفظ كتاب الله تعالى وصحيح البخاري يتلقى بعض العلوم الشرعية الأساسية متدرجاً فيها مرحلة مرحلة، فتتلمذ على عدد من شيوخ ذلك الوقت كالشيخ صالح الموصلي (ت:1868هـ)، وهو عالم صوفي كان يقرئ الطلبة صحيح البخاري في جامع الشيخ محيي الدين ويسلك المريدين[83]، والشيخ عبد الرحمن العطار[84] وغيرهما، فقد كانت دمشق تحتضن كثيراً من العلماء الأفذاذ الربانيين، والشيوخ الأجلاء العارفين، كمفتي الشام العام الشيخ محمد المنيني (ت:1316هـ)، وعلامة الشام الشيخ بكري العطار (ت:1320هـ)، والفقيه الولي الزاهد المتوكّل الشيخ سليم المسوتي (ت:1324هـ)، وشيخ الطريقة النقشبندية الفقيه الشافعي العلامة عيسى الكردي (ت:1331هـ)، ثم بعدهم المحدث جمال الدين القاسمي (ت:1332هـ)، والشيخ طاهر الجزائري (ت:1338هـ) مؤسس المكتبة الظاهرية في دمشق، وهما من كبار الإصلاحيين، والعلامة عبد الحكيم الأفغاني (ت:1326هـ)، ثم شيوخ سيدي يحيى الكبار: الشيخ

---

[83] تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر (706).

[84] لم أعثر على ترجمة له.

محمد أمين الكردي الزملكاني (ت:1346هـ)، والشيخ المحدث الأكبر محمد بدر الدين الحسني (ت:1354هـ)، والشيخ العلامة محمد أمين سويد (ت:1355هـ).

فكنت تلقاهم في كلّ حيّ وفي كلّ مسجد وزاوية، وكان المسجد الأموي يغصّ بحلقاتهم ودروسهم، فلا شك أنّ الشيخ نهل من علوم بعضهم ومعارفهم وتأثر بأحوال آخرين منهم وبسلوكهم من خلال مجالسهم، إذ كان يحرص على أن لا تفوته مجالس العلماء، ولم يكن يألف أن يقرأ كعادة الطلبة كتباً بعينها من أولها إلى آخرها، فأتقن من خلال مجالسته للعلماء العربية والنحو، وكم يذكر أحفاده أنّه كان يطلب منهم أن يُسمعوه شيئاً من القرآن من محفوظاتهم، ثم يستوقفهم ليسألهم عن إعراب أية أو كلمة مما يقرؤون، ثم يصحّح ويعلّل لهم وجه إعرابها.

كما تفقّه بالفقه الشافعي حتى أتقنه، وكثيراً من الأحيان كان يلقي على من يلتقيهم من طلاب العلم بعض الأسئلة على وجه الملاطفة، فيسألهم بعض المسائل الفقهية التي تتعلق بالطهارة والصلاة مما يجب أن لا يغيب عنهم، فيلفت نظرهم إليها وينشط ذاكرتهم ويشحذ هممهم.

كان المذهب الشافعي محبباً إليه كثيراً، ومع ذلك فإنّه كان يأخذ بأحكام المذاهب الأخرى لمّا يجد مصلحة شرعية في ذلك، فكان يحب الأخذ بالرخص والتسامح فيما يمكن فيه التقليد، ويمقت التعصب، ويرى في اختلاف الفقهاء رحمة بالناس وسعة لهم، ولكن بقي المذهب الشافعي هو مذهبه طيلة حياته، فهو مذهب أهل التصوف[85]. فقد قرأت أنّ المحدث السيد الشريف محمد بن جعفر الكتاني (ت:1345هـ) كان يحب الإمام الشافعي (ت:205هـ) منذ صغره، وله رؤيا رمزية دوّنها في ترجمته لنفسه في كتابه (النبذة)، قال: رأيت مرة – وقد ناهزت الاحتلام – الإمام الشافعي رضي الله عنه، وهو رجل أبيض اللون، حسن الصورة، طويل القامة، ناعم البدن، معتمّ بعمامة بيضاء، عليه ثياب بيض، فقال لي: على مذهب من أنت؟ فقلت له: على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه. فقال لي: يجب عليك أن تكون أيضاً على مذهبي. فذكرت ذلك لبعض المعبّرين، فقال: مذهب الشافعي هو مذهب الصوفية، فكأنه يشير لك إلى التمذهب بمذهبهم، والتخلق بأخلاقهم، والشراب من معينهم[86].

---

[85] انظر الرسالة المستطرفة، الطبعة التي اعتنى بها السيد محمد المنتصر الكتاني حفيد المؤلف، (ص:31). وانظر قصة توجه المحدث محمد بن جعفر الكتاني للتصوف في فصل الزهد والتوكل من كتابنا هذا (ص:).

[86] طبعا هذا أغلبي، وإلا فقد كان الإمام الجنيد وآخرون على مذهب سفيان الثوري، والشبلي وجمْع على المذهب المالكي، والجريري وكثيرون على مذهب أبي حنيفة، والجيلاني وجماعة على المذهب الحنبلي، رحمهم الله جميعاً.

وذكر الكوثري رحمه الله أنه يوجد نوع غلوّ في التصوف عند بعض المالكية من عهد ابن تومَرْت. كما في مقدمات الإمام الكوثري(48).

وقد ذكر الشيخ الأكبر أنّ الشافعي هو أحد الأوتاد الأربعة لكن حجبه علم الشرع عن أهل زمانه وعن من بعدهم[87].

وكذلك تلقى سيدي يحيى عن أعلام عصره خلال تلك الفترة – إضافة إلى العلوم الشرعية الأساسية – علوم التصوف والسلوك، حتى استهوته وغلبت عليه وعلى حياته، واصطبغت بها نفسه، فاشتهر بأحوال الأولياء العارفين.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ علوم الشيخ كلّها – من نحو أو فقه أو تصوف أو غيرها – يرجّح أنّه اكتسبها بالوهب من الله تعالى والفيض منه عزّ وجلّ، وهذا هو المشهور عند كلّ من عرفه، لأنّ الشيخ لم يُعرف أنّه تلقى علوم الشريعة على العلماء بالتتلمذ كما يفعل الطلاب، بحيث يبدؤون بالكتب البسيطة في العلم ثم ينتقلون إلى الأوسع فالأوسع، حسب ما يرشدهم مشايخهم، بل كان يجالس بادئ الأمر العلماء في المجالس العامّة ليقتبس منهم، ثمّ في مرحلة لاحقة كانت له مجالس خاصة ينفرد فيها مع بعض كبار العلماء لا يعلم أحد ما يكون فيها، إلا ما ترشّح لي من بعض أهل العلم أنّ هذه الجلسات كانت جلسات روحانية يخصّ بها المشايخ بعض الخواصّ الذين يرون فيهم الأهلية، وكانت جلسات طويلة في كثير من الأحيان.

بدأ الشيخ المرحلة الثانية من عمره – وهو في ريعان الشباب – يتردد على العلماء الكبار الذين ذاع صيتهم وانتشر خبرهم وخيرهم، فتتلمذ على عدد منهم، فاستفاد وانتفع أكثر ما انتفع بثلاثة من الشيوخ الكمّل، فأخذ عنهم العلم والعمل جميعاً، وهم الشيخ محمد أمين الكردي الزملكاني والشيخ محمد أمين السويد، والشيخ المحدث الأكبر محمد بدر الدين الحسني، كما سنرى ذلك بتوسع في الباب القادم المخصص للكلام عن مصادر الشيخ الأساسية في التحصيل والتلقي.

---

[87] الفتوحات المكية (491/13).

التكسّب سنّة الأنبياء

ما إن تجاوز سيدي يحيى مرحلة البلوغ بقليل حتى بدأ يتوجه مع طلبه للعلم إلى الكسب والعمل، فلم يكن طلب العلم وملازمة العلماء وحضور مجالسهم ليمنعه عن السعي للرزق، أو يكون عائقاً له عن أن يكون ممن أثنى عليهم النبي عليه الصلاة والسلام، بأنهم يأكلون من عمل يدهم. فاختار بل اختار الله له أن يعمل كوسيط لبيع العقارات، وهي المهنة التي تسمى ببلاد الشام مهنة الدلالة، ويُسمّى من يقوم بها دلّالاً.

عُرف سيدي يحيى بهذه المهنة، فحاز ثقة الناس وأصحاب العقارات، لما كان يتيسر على يديه من البيوعات ما يعسر على كثير غيره.

وبحكم مهنته هذه كان يتصرف بأملاك والديه برضاهما، فيبيع ما شاء منها، ويتصدق بثمنها على الفقراء والمساكين، وعلى تفريج كربات أصحاب الحاجات، فباع معظم أملاك والديه في حياتهما، وأنفقه في وجوه البرّ وأعمال الخير.

برّ الشيخ بوالديه:

كان يُقبل على والدته فيقبّل يديها، ويلثم رجليها، خافضاً لها جناح الذلّ، طالباً منها الرضى، ثم يبشّ لها فيمازحها بكلامه اللطيف، ويضاحكها بفكاهته النادرة، فقد عُرف عنه طلاقة اللسان بحلاوة، ومتعة الحديث مع طلاوة، ولا يزال يلاطفها حتى (تكلّله) بالرضا، وهذه دعوة تجري على لسان كل امرأة من جداتنا، وتكاد تكررها في اليوم عشرات المرات، فكلّما أحبت جدة أن تدعو لأحد من أولادها أو أحفادها تقول له: (الله يكلّلك بالرضا).

بعد أن تغمره برضاها يطلب منها بوداعة وحب ولطافة، وتواضع وتأدب وبشاشة، أن تمضي صفقاته من أملاكها، فكانت تقرّه على ذلك وتوافقه، وتشجعه على فعله وتباركه، لشدة محبتها له، وعظيم ثقتها به، ولما تعرفه من كرامة الله له وعنايته به منذ أن كان طفلاً صغيراً، مما لا يعرفه غيرها ولم يطلع عليه سواها، فكانت لذلك فضلاً عن برّه بها وإحسانه إليها لا تردّ له طلباً ولا تخيب له رجاءً، ولا تعيق له مسعى.

وكذلك كان حاله مع والده، فلم يكن ليبرّ أمه ويعقّ أباه، فقد بلغ حب أبيه له حداً قلّ نظيره، فهو أيضاً يعرف من حال ابنه والعناية الربانية له مما يشاهده بنفسه أو تحدّثه به زوجته ما يجعله في سويداء قلبه وحشاشة فؤاده، وقد بلغت شدة محبته له ورضاه عنه، أنّ بعض أهل الحي جاؤوا إليه – وبعضهم من أقرباءه – يشكون له تصرف ولده يحيى في أملاكه وأملاك زوجته، فهو يبيع منها شيئاً فشيئاً ويصرف أثمانها على وجوه البر وأعمال الخير، فكان مما قالوه: إذا لم تكفّ

يد ابنك يحيى عن ذلك فإنه في خلال فترة وجيزة لن يُبقي لك ولزوجتك شيئاً!! فكان ردّه عليهم أن قال: لو أنّ ابني يحيى جاء بحبل أو رسَن ولفّه على عنقي ثم أخذني وباعني في السوق ما نهيته عن ذلك، وكنت عنه راض!!.

ولقد سمعت هذه القصة من والدي رحمه الله ومن عدد من معارف الشيخ وأهل حيه، وقد أكدوا لي أنّ هذه القصة معروفة ومشهورة في الحي في ذلك الوقت.

إنّ هذا الجواب من الوالد كان مفاجئاً لهؤلاء المشفقين، لم يتوقعوه ولم يخطر لهم على بال، وكان وقع مقالته على نفوسهم كالصاعقة، فانكفؤوا مندهشين مذهولين، فهذه الكلمات من أبي يحيى تدل دلالة ما بعدها دلالة على عظيم محبته ورضاه عن ابنه يحيى، وتسلط الضوء على الشأن الكبير والمنزلة العالية التي ينزلها الولد من قلب أمه وأبيه، ولا شكّ أنّ ما عُرِف عن الوالدين نفسهما من صلاحٍ وإقبالٍ على الله مع الزهد في الدنيا، كان له أكبر الأثر في مباركتهما لتصرفات ولدهما.

لم أسمع عن محبة والد لولده وتسليمه له تسليماً مطلقاً يعادل هذا الحال الذي كان عليه والد سيدي يحيى مع ولده إلا ما سمعته عن والد الشيخ ياسين الزملكاني مع ولده الشيخ ياسين، فقد سمعت مع جمع من طلبة العلم – وكنا في زيارة للشيخ ياسين – ابن الشيخ ياسين يقول ووالده يسمع: كان جدي ذا صلاح وتقوى وصاحب كرامات، وبرغم ذلك كان يرى أنّ مقام ولده ياسين أعلى من مقامه وذلك لما رأى وشهد من أحواله، فكان – كما تحدثه عماته – يحبه محبة شديدة، ويعتقد فيه اعتقاداً كبيراً، لدرجة أنه كان يقول له (لولده ياسين): ليتني شعرة في بدنك، ولو ترضى لقبّلت قدمك!! (هنا أخذ البكاء الشيخ ياسين حفظه الله).

إنّ العاقل الحصيف ليستشفّ بل ويتيقن من هذه القصة أنّ لسيدي يحيى حالاً عجيباً عند والديه جعلهما يسلّمان له كل هذا التسليم، ويباركان كل تصرفاته في العقارات والأملاك، ولو أن يبيعهما مع جملة ما يبيع!! يا ترى ماذا هو هذا الشيء؟ وما هو هذا السرّ؟ هل هو فقط صلاحه وتقواه؟ أم برّه بهما وتذلّلِه لهما؟ أم هي مجرّد المحبّة؟ أم أنّ هناك شيئاً آخر غير ذلك؟ إنه بالتأكيد شيء مهم، وهو لا يبعد كثيراً عن صلاحه وحاله، إنّها أحوال شوهدت منه سمعت عنها من والدي رحمه الله لا يَحسُن ذكرها في هذا الكتاب، إذ ما كلّ ما يُعلم يقال، وما يصحّ أن يقال للخاصة لا يصح أن يقال للعامة، فعن عبد الله بن مسعود قال: "ما أنت بمحدّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة"[88].

وقد يتساءل المرء لماذا باع الشيخ يحيى كل أملاك والديه في حياتهما ولم يبق شيئاً لأعقابهما؟

[88] أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه.

لعلّ الإجابة عن هذا السؤال نتلمسها فيما روى خباب رضي الله عنه قال: "إنّ المسلم ليؤجر في كل شيء ينفقه، إلا في شيء يجعله في هذا التراب"[89].

لابدّ أنّ هذا المعنى كان حاضراً في نفس الشيخ كما هو حاضر في نفس الوالدين، فأحبّ أن يجعل ذلك في صحيفة والديه لكي يخرجا من الدنيا بصحائف مليئة بالحسنات والطاعات لا بالتراب والعقارات، وهذا هو عين البرّ وأفضل الإحسان للوالدين بأن يكون الولد سبباً في علوّ منزلة والديه عند الله تعالى.

ولقد سمعت من سيدي الوالد رحمه الله أنّ جدي باع أراضي واسعة جداً من أملاك والديه في قرية الحمّة السورية وتصدق كعادته بكل ثمنها، ثم كان ما كان من احتلال العدو الصهيوني لها مع غيرها من أراضي الجولان بعد ذلك بعشرات الأعوام (1387هـ/1967م).

لذا كان سيدي يحيى لما يشرح قول الله عز وجلّ: (لله ما في السموات وما في الأرض) [البقرة:284] يقول: "فجميع سندات الطابو[90] لله تعالى". وهو كلام بسيط يرسخ في ذهن السامع ويفهمه العوام والخواصّ، بأنّ ما في أيدينا هو عارية مملوكة لله رب العالمين.

حكمة عمله دلالاً:

هذا الاسم (دلال) لعمل سيدي يحيى ينطبق عليه تماماً من ناحيتين:

– الأولى من حيث النسبة للعمل بالدلالة، وهي الوساطة في بيع العقارات، فقد مارسها فعلاً لفترة طويلة من حياته.

– والثانية كونه عاش طيلة حياته، مرشداً ودلالاً على الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيم) [الصف:10] ودلالاً على فعل الخيرات وقضاء الحوائج والسعي في أمور المسلمين، يدل الأغنياء على الفقراء، فيأخذ من أولئك لهؤلاء، ويعطي هؤلاء من أولئك، ودائماً يكون الثمن هو ابتغاء الأجر والثواب من الله عز وجل، وبقيت هذه الصفة أعني دلالته الناس على الله تعالى هي الغالبة على حاله، بل واقتصر عليها في شيخوخته إلى أن لقي وجه ربه.

لقد كان في عمله وسعيه على نفسه وعياله عبد يقتدي ويستنّ بسنة الأنبياء والمرسلين، فما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم[91]، و"ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإنّ نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده"[92].

---

[89] البخاري في المرضى، باب تمني المريض الموت.

[90] سندات الطابو في سوريا تعني الوثائق التي تثبت ملكية العقار لصاحب الوثيقة، أي صكوك الملكية.

[91] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم"، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: "نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة". البخاري في الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط.

ثم الصحابة الكرام اشتغلوا وتاجروا وسعوا وضربوا في الأرض، ولما أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه على قوم قال: ما أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون، قال: بل أنتم المتكلون، ألا أخبركم بالمتوكلين؟ رجل ألقى حبة في بطن الأرض ثم توكل على ربه[93].

ولما رأى أناساً يجلسون في المسجد قال: "لا يقعد أحدكم عن طلب الرِّزق ويقول: اللهم ارزقني، وقد علم أنّ السَّماء لا تمطر ذهباً ولا فضة؛ وإنّ الله تعالى إنما يرْزق الناسَ بعضهم من بعض، وتلا قول الله جلّ وعلا: (فإذا قُضيت الصَلاةُ فانتشروا في الأرْض وأبْتَغُوا مِنْ فَضْل الله واذْكُرُوا الله كثيراً لَعَلَّكُم تُفلحُون) [الجمعة:10][94].

السعي والكسب لا ينافي التوكل:

فالعمل والسعي على الرزق لا ينافي التوكل أبداً، فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل، ولكنّ الناس في التوكل كما يقول أهل العلم على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: متسبّب بالكلية، نظره مقصور على السبب وقوته وضعفه، فهو أعمى، لم ير الحقيقة ولم يعرف الفاعل.

الصنف الثاني: متوكل بالكلية، معرض عن الأسباب ظاهراً وباطناً، وهو صاحب حال لا يُقتدى به ولا يُحتجّ عليه.

والصنف الثالث: متسبّب بظاهره متوكل بباطنه، يده في السبب وقلبه متعلق بخالق السبب، وهذا هو الكامل الناظر بعينين.

وقد كان سيدي يحيى من هذا الصنف، يتعامل مع الأسباب ظاهراً، ولكنه في قرارة قلبه لا يعوّل إلا على الله، ولا يركن إلا إليه. وهكذا شأن العارفين، تتلبس ظواهرهم بالأوامر والأفعال الشرعية، ويعلمون أنهم ظروف لإجرائها، لا فاعلون لها، فلذا لا يرجون بما يُنسب إليهم من الأفعال حصول خير ولا دفع شرّ[95].

كان الشيخ يعمل ويسعى على نفسه وعياله رغم أنه لم يكن بحاجة إلى العمل، فأملاك والديه كانت كفيلة – لو أراد – أن تجعله من كبار الأغنياء والملاك هو وإخوته، لكنه آثر أن يأكل من عمل يده، وأن لا يتكل على ما يملكه والداه، وهو في كل ذلك لا يغادره صدق التوكل على الله تعالى والاعتماد عليه، ولم يكن صدق التوكل هذا مدعاة إلى الكسل، أو ذريعة لترك التكسب، بل

---

[92] أخرجه البخاري عن المقدام رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده.

[93] البيهقي في شعب الإيمان.

[94] العقد الفريد، باب التماس الرزق وما يعود على الأهل والولد.

[95] انظر المواقف الروحية، الموقف(77). وانظر في هذا الكتاب فصل زهده في الدنيا (ص ؟؟)، وفصل توكله على الله وحاله في الادخار (ص ؟؟).

كان توكلاً مبنياً على قواعد الشرع، وكم كان يردّد قائلاً: لا تعتمد إلا على الله، كل أمر بيد الله، وهذه الأسباب حِجابه، فلا تكن إلا مع الله.

فما كان الشيخ ليدع الكسب والعمل بحجة التوكل، بل كان مع صدق توكله ومع ما أخذ به نفسه من الزهد في الدنيا، يعمل ويشتغل، وكان الله يجري على يديه ويتمّ كثيراً من العقود التي يعجز عنها غيره من أهل هذه المهنة، فيوفِّق بين المتبايعين مع النصح لكليهما.

إنّ معظم حي أبي رمانة، وكان وقتها كله بساتين، بيع معظمه على يد سيدي يحيى، وكان يأتيه من ذلك أموال طائلة، يُعرض عليه أحياناً من بعض البيوعات ما يزيد على مئة ليرة ذهبية، فيأخذها ويصرفها كلّها!!، ولك أن تتخيّل قيمة وغرابة أن يتصدّق المرء بمئة ليرة ذهبية في ذلك الوقت، وما يدله هذا على زهد وترفّع عن الدنيا لا يعادله إلا ترفّع أجلاء صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخاصة في زمن الشحّ والفقر، وكثيراً ما كان يتوسط في صفقات فيكون أجره من هذه الوساطة وحصته منها كبيرة ولكن مؤجلة ليوم أو يومين، فيقول: أعطوني نصفها نقداً .. ثلثها ... ربعها، وسامحتكم في الباقي، ومن رزقني اليوم يرزقني غداً!!.

فلو أراد مثل هذا الرجل أن يكون صاحب ثروة وغنى لكان من أكبر الناس ثروة وأكثرهم غنى، لكنّه كان يؤثر أن يأخذ مما يرزقه الله تعالى حاجته وحاجة عياله فقط – وكثيراً ما كان ينسى نفسه وعياله – وينفق كل ما زاد عن ذلك على المستحقين وأصحاب الحاجات، ولا يترك في بيته درهماً واحداً يبيت معه كما سيأتي لاحقاً[96].

هذا الحال من العمل والسعي من أجل الرزق كان حال العلماء العاملين ورّاث النبوة، يجتهدون في طلب العلم، ولا يترفعون عن التكسب وعن مزاولة مهنة من المهن، وربما تعلم بعضهم حرفة من الحرف من أجل ذلك، أو اشتغل بما يتيسر ليكفّ نفسه عن سؤال الناس، وليكون له أجر وثواب الذي يأكل من عمل يده، وكي لا يكون في نفس الوقت عالة على أحد من الخلق، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "إني لأكره الرجل فارغاً لا في عمل الدنيا ولا في عمل الآخرة"[97].

وعن عمر رضي الله عنه قال: "إني لأكره أن أرى أحدكم سَبَهلَلاً – فارغاً – لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة"[98].

وروي من طريق عروة بن الزبير رضي الله عنه قال: "يقال: ما شرّ شيء في العالَم –بفتح اللام– ؟ قال: البطالة"[99].

---

[96] انظر فصل كرمه، وفصل قضاء الحاجات بالصدقة. وفصل توكله على الله.

[97] الطبراني في المعجم الكبير.

[98] ذكره ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث.

[99] البيهقي في شعب الإيمان.

لذا كان لكثير من العلماء أعمالٌ يتكسبون منها، فمنهم من اشتغل بالتجارة، وبعضهم كانوا يزاولون مهنة، وآخرون يتقنون صنعة أو حرفة، فهذا الشيخ صالح العقاد (ت:1390هـ) الملقب بالشافعي الصغير كان تاجراً، وهذا الشيخ العارف بالله أحمد الحارون (ت:1382هـ) كان حجاراً، وهذا الشيخ العالم المربي صالح الفرفور (ت:1407هـ) كان نجاراً، ولم يمنعه ذلك من أن يكون من كبار العلماء والمربين وأن يؤسس صرحاً علمياً – معهد الفتح – ويتخرّج على يديه كثير من العلماء والأفاضل، ولو ذهبت أعدّد العلماء الذين اشتهروا بحِرفهم لطال المقام إذ أنّ منهم في بلاد الشام: العطار، والخياط، والمسدّي، والكتبي، والمكتبي، والطيان، والفحام، والبنّا، والسقّا، وغير ذلك، فما بالك في بقية بلاد العالم الإسلامي بأسره. ومن يتصفّح كتب التراجم يرى من قصصهم في ذلك عجباً!!.

"يتكسبون بعملهم لئلا تدفعهم الحاجة إلى الخضوع للحكام، أو إلى استجداء احترام العوام، أو إلى مد أيديهم إلى أصحاب الأموال، وهذه سنة سلفنا من الصحابة والتابعين والأئمة الكبار، يتكسبون أموالهم بعملهم، وما ذلّ العلماء إلا عندما مدوا أيديهم إلى أرباب الحكم، أو أصحاب الأموال"[100].

التكسب للكفاية لا للسرف:

ولا يعني اشتغالهم بمهنة واحترافهم لصنعة أو حرفة للتكسب أنهم كانوا يمضون معظم يومهم في العمل، فالذي يطالع سيرهم ويسبر حياتهم يجد أنّ كثيراً منهم كان يشتغل بقدر الكفاية فقط، وقد سُئل الإمام الحارث المحاسبي (ت:243هـ): ما تفسير "خير الرزق ما يكفي"؟ قال: هو قوت يوم بيوم، ولا تهتمّ لرزق غد[101].اهـ. وهكذا كان أسلافنا وعلماؤنا منذ عهد ليس ببعيد عنّا، إذا امتلك أحدهم كفاية يومه انصرف لآخرته.

والشيء الذي يجب التوقف عنده ولفْت النظر إليه أنّ كفاية أحدهم كانت كفاية الزاهد المقتر على نفسه، لا مثل كفاية أحدنا اليوم التي ربما تعدل كفاية أحدهم لأسبوع أو لشهر، فكان الواحد منهم إذا حصّل ما يسدّ رمقه التفت إلى عمل الآخرة، مِن عِلم وتعليم، وذكر وتلاوة، ونظر في حوائج المسلمين.

ففي ترجمة الشيخ العلامة عبد الحكيم الأفغاني (ت:1326هـ) أنه كان يشتغل يوماً واحداً في الأسبوع مع الطيانين ليأكل من كسب يده، وكان أُلهم نسخ القرآن من المصحف الدمشقي

---

[100] رجال من التاريخ، علي الطنطاوي.

[101] أبو نعيم، حلية الأولياء (75/10). وهو يشير إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم عند ابن أبي شيبة في مصنفه: "خير الرزق ما يكفي وخير الذكر الخفي".

(الشامي) على طبق رسمه قبل وفاته بسنوات قلائل وقبل الحرب العامة، كأنه كان أحسّ أنّ المصحف الشامي يُنقل من دمشق إلى الأستانة، فأتمّ نسخه على طبق رسمه بيده الكريمة.

هذا الشيخ الجليل كان طعامه الخبز اليابس ومرق المخلّل طوال الأسبوع، ما عدا يومين يأكل في أحدهما لحماً وفي الآخر حمصاً. وقد زاره الوالي العثماني في أوائل رمضان مرة، ودفع إليه صرّة من مال فتأبّى، ولما قال له الوالي: هذه مؤونة رمضان، ردّ عليه بأنه قد اتخذ مؤونة، ثم أشار إلى رفّ عليه أرغفة يابسة وقطرميز (مطربان) من مرق المخلّل[102].

وهذا ليس ابتداعاً منهم بل تأسياً بالمعصوم صلى الله عليه وسلم، ففي حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما في بيتي من شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رفّ لي"[103].

وفي مسند الفردوس عن عائشة رضي الله عنها: "لم يمتلئ جوف النبي صلى الله عليه وسلم شبعاً قطّ، ولم يبثّ شكوى إلى أحد، وكانت الفاقة أحبّ إليه من الغنى، وإن كان ليظلّ جائعاً يتلوّى طول ليلته من الجوع فلا يمنعه (أي هذا الجوع) صيام يومه، ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها، ولقد كنت أبكي له رحمة مما أرى به، وأمسح بيدي على بطنه مما به من الجوع، وأقول: نفسي لك الفداء، لو تبلّغت من الدنيا بما يقوتك؟ فيقول: "يا عائشة مالي وللدنيا، إخواني من أولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشدّ من هذا فمضوا على حالهم، فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم، فأجدني أستحيي إن ترفّهت في معيشتي أن يقصر بي غداً دونهم، وما من شيء هو أحبّ إليّ من اللحوق بإخواني وأخلائي".

وإذا سألت عن بيوتهم وما كان فيها من فرش وأثاث ورياش، فلن تجد إلا ما يزيدك عجباً ويملأك دهشة، فتروي كتب التاريخ[104] أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما استدعى عامله على حمص عُمير بن سعد رضي الله عنه لبّى أمره، فأخذ جرابه (وعاء يحفظ فيه الزاد ونحوه) فجعل فيه زاده وقصعته، وعلّق إداوته وأخذ عنَزته (عصاه أو حربته)، ثم أقبل ماشياً من حمص حتى دخل المدينة.

---

[102] تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر. كان هذا العلامة زاهد دمشق ومن كبار علماء الأصول، وروى تلميذه العلامة محمد سعيد الباني في كتابه (عمدة التحقيق) أنه سأله مرة عن فائدة علم أصول الفقه، قال: فأجابني على البداهة: إنّ فائدته الاجتهاد. فقلت: ألم يقولوا يا سيدي إنّ باب الاجتهاد مقفل؟ فقال بحدّة على سبيل الاستفهام الإنكاري: من أقفله؟ أصلح الله حالك! لكن طالب العلم في بلادكم يدعي الاجتهاد وهو لمّا يقرأ بعد (نور الإيضاح).

[103] أخرجه البخاري في فرض الخمس، باب نفقة نساء النبي صلى الله عليه وسلم.

[104] تاريخ دمشق (489/46)، ابن عساكر.

فلما رآه عمر قال له – بعد أن تبادلا التحية والسلام –: وما معك؟ فقال: معي جرابي أجعل فيه زادي، وقصعتي آكل فيها وأغسل رأسي وثيابي، وإداوتي أحمل فيها وضوئي وشرابي، وعنَزتي أتوكأ عليها وأجاهد بها عدواً إن اعترض، فو الله ما الدنيا إلا تَبَع لمتاعي[105].

فانظر– يا أخي – ما آل إليه حالنا اليوم من الإسراف والترف المؤسف، وكيف انجررنا إلى التورط في اللصوق بالأشياء والماديات التي لا لزوم لها البتة، فتعودنا على النمط الاستهلاكي وأصبحنا أسرى له، وهو نمط ما فتئت الرأسمالية تروّجه منذ زمن، ثم أطلّت علينا العولمة تسوّقه لنا بكل وسائلها كي تضمن تأمين أسواق لمنتجاتها، وتحقيق أهدافها في السيطرة الاقتصادية على شعوب العالم الثالث، وإدخالها في دائرة الانشغال بالمُتع والمُلهيات.

لقد تحولت كثير من الكماليات في حياتنا إلى ضروريات لا نستطيع – من الناحية النفسية – أن نستغني عنها، مما فتح علينا أبواباً من الشرور التي كانت موصدة عندما كنا نميزّ بوعي بين حاجاتنا التي هي من مستلزمات قوام حياتنا، والتي يشقّ الاستغناء عنها وتصعب الحياة بدونها، وبين الكماليات التي هي مظهر من مظاهر الترف والتي تسوق إلى السرَف والتبذير المنهي عنه، لما ينتج عنه من تحطيم الذات، "وإذا بلغ التأنّق في هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات، فتتلوّن النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دينها ولا دنياها"[106]، فالإسراف في النفقة رذيلة، والمبذرون إخوان الشياطين، "ومن مفاسد الحضارة الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف، فيقع التفنّن في شهوات البطن من المآكل والملاذّ فيفضي ذلك إلى فساد النوع"[107].

وللأسف أصبحت هذه الكماليات التي تجرّ إلى الإسراف والتبذير تملأ كثيراً من بيوتاتنا، وتنخر في كثير من عائلاتنا وأسرنا، وصارت سيفاً مشرعاً ومسلطاً علينا، فالحذر الحذر من أن يقع المرء من جرّاء إسرافه وتبذيره على أمّ رأسه فيردَى ولا يودَى.

---

105 حلية الأولياء (247/1).

106 ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة (372).

107 المصدر السابق (374).

أداء فريضة الحج

لم يكد شيخنا يبلغ العشرين من عمره حتى هاجه الشوق لأداء فريضة الحج واستبدّ به الحنين لزيارة مسجد المصطفى عليه الصلاة والسلام وقبره الشريف، فقد كان الشوق المبرح لزيارة بيت الله الحرام والطوافِ حول الكعبة المشرفة والصلاةِ قبالتها، وزيارةِ مدينته المنورة الطيبة المباركة والسلامِ على أشرف ساكنيها، مع شدة الحنين لرؤية الأماكن المقدسة والمشاهد والآثار النبوية، وحرصه على الاقتباس من أنوار تلك الأماكن التي تشرفت بالنبي المصطفى والحبيب المجتبى، إضافة إلى رغبته الجامحة للوقوف على أعتاب الحضرة المحمدية والسلام على الحبيب المحبوب طبيب الأرواح والقلوب، والصلاة في روضته البهية وأعتابه الزكية، كلّ هذا كان يأخذ عليه فكره وروحه، ويغلب على كامل شعوره حتى استولى على نفسه وعقله وحاله، فكانت هذه الرحلة التعبدية الروحية بالنسبة إليه أولى من الزواج ومتعته، أو حتى التفكير به قبل الارتواء من جناب تلك الحضرة وبركات تلك الأعتاب، وتهدئة النفس من لهيب شوقها وألم حنينها المستبدّ، وكان حريصاً على أن تكون هذه العبادة بمعية والدته ورفقتها ليقوم على خدمتها والتقرب إلى الله تعالى ببرّها، فأراد أن تكون العبادة ببركتها مضاعفة، فأكرمه الله بذلك وكان هذا قمة سروره وسعادته، وشعر أن العناية الإلهية تحفّه والرعاية الربانية تحوطه إذ هيأت له أسباب هذه الرحلة بخدمة والدته.

أعدّت الأم زادها، وشدّت رحالها مع ولدها لتلك الديار المقدسة قريباً من عام (1900م)، وكانت رحلة شاقة وعسيرة في ذلك الوقت، إذ لم يكن الخط الحديدي الحجازي قد أنجز بعد، فكانت الدواب هي الوسائط والرواحل، لذا فإنّ الرحلة ستستغرق زمناً لا يقلّ عن خمسين يوماً ذهاباً ومثلها إياباً، تحت حراسة بضع آلاف من المشاة والفرسان والهجّانة، خوفاً من اللصوص وقطاع الطرق الذين قلّ أن تسلم منهم قافلة حجيج أو غيرها. ولكن الشوق لتلك الديار، والحنين لملاقاة الحبيب المختار ومنازل صحبه الأبرار كانت تنسيه – كبقية الحجيج يومها – كل تعب، وتذهب بكل مشقة، فأدّى نسكه وأتم عبادته وفريضته، وعاد بصحبة والدته هانئاً راضياً مرضياً، ومسروراً وبرّاً وزكيّاً، بما أفاض الله عليه من أنوار تلك الأماكن التي شهدت تنزل الوحي والقرآن، وبداية التبليغ والدعوة للهدى والإيمان، وبما تضلّعه من بركات تلك المشاهد التي تملأ القلب خشوعاً والجوارح خضوعاً.

تاريخ هذه الرحلة يوافق تقريباً تاريخ رحلة الحج الأولى للشيخ بدر الدين (1901م)، فمع ما عرف عن تعلق سيدي يحيى الشديد بشيخه البدر وحرصه على ملازمته أينما توجّه يوحي بأن سيدي يحيى ربما كان في معية شيخه في تلك الرحلة المباركة، وليس عندي ما يثبت ذلك،

ولكني أتوقع أنّ رحلته هذه كانت قبل رحلة شيخه بعامين أو ثلاث، وأنها كانت مخصصة لرفقة والدته وخدمتها وملازمتها والقيام على شؤونها، مع أنّ هذا لا يتعارض مع أن يكون في هذه الرحلة في نفس الركب مع أحد من مشايخه كالبدر أو غيره. والله أعلم.

وأياً يكن الأمر فإنّ الله جلّ وعلا أكرمه بعد عقد ونصف من الزمن – تقريباً – بحجة ثانية بعد أن ناهز الخامسة والثلاثين من عمره، فكان له شرف مرافقة شيخه البدر[108] في زيارته لتلك الديار المقدسة بالقطار في حجته الشهيرة عام (1332هـ/1914م) والتي كان من أحداثها توقف القطار في وسط الصحراء الملتهبة، لعطل طارئ، وعندما تمّ إصلاحه وأطلق صافرته إيذاناً بالمغادرة، كان الحجيج – ومنهم تلامذة البدر – يصلون الظهر، فقطعوا صلاتهم ليلحقوا بالقطار، وبقي الشيخ البدر مستغرقاً في صلاته، لم يأبه ببقائه وحيداً في وسط الصحراء القاحلة[109].

ومما يجدر ذكره هنا أنّ سيدي يحيى كانت له رحلة ثالثة للحج غير هاتين الرحلتين، ولكنه لم يتمّها. وملخّصها: أنه سافر مع الشيخ أمين خادم الأربعين (ت:1384هـ) رحمه الله ومعهما بعض من الأصحاب إلى بيروت قاصدين الحج عن طريق البحر، فلما وصلوا، قال الشيخ يحيى للشيخ أمين: إني قد عدلت عن الحج هذا العام فاعدلوا، فاستهجن الصحب ذلك منه، وخاصة أنهم قد وصلوا المرفأ، والحج في تلك الأيام تعترضه صعوبات جمة، فتيسّره في كل وقت ليس بالأمر الهيّن، فخالفوا رأي سيدي يحيى، فعاد رحمه الله ولم يتمّ رحلته، وتابع الصحب رحلتهم فلقوا فيها أهوالاً جمّة، واعترضتهم مشاكل عديدة، منها تعرضهم للنهب والسرقة، وهيجان البحر لدرجة مخيفة، فعرفوا أنّ الشيخ تكلّم عن كشف وإلهام وأنه ربما عدل عن الحج لذلك.

---

[108] علمت بمرافقة سيدي يحيى والشيخ رفيق السباعي للشيخ البدر في هذه الرحلة من بعض محبيه، وأكد لي ذلك السيد بدر الدين ابن حفيد المحدث الأكبر. ولكن لم يسبق لي سؤال أحد من أبناء الشيخ الكبار قبل وفاتهم، ولم يؤكد لي ذلك أحد من أقرباء شيخنا المترجَم أو أبنائه، وخاصة أن نسكه الأول كان قبل أن يتزوج، وأما حجه الثاني فلم يكن عند الشيخ غير بنت واحدة في التاسعة من عمرها.

[109] انظر أمر هذه الرحلة في فصل التلقي عن الأكابر.

زوجاته وأولاده

منزله ومسكنه:

تنقل الشيخ في حياته المديدة فسكن عدة أحياء، فالأصل من حيّ الصالحية كما مرّ بيانه، وبالتحديد في الجسر الأبيض قرب المفوضية الفرنسية اليوم، وفي الأربعينيات نزل منطقة المزة فسكن فيها قريباً من مقام الشيخ سعد، وكذلك سكن حي كيوان بين المزة والربوة، وأما آخر دار سكنها فكانت داراً صغيرة في قبو من بناء قريب من جادة شورى بحي المهاجرين في الصالحية، وبالضبط بالجهة الجنوبية المقابلة لجامع الأفرم، فقد اشترته زوجته بالمشاركة مع والدي رحمهما الله، وكان جدي يعطي زوجته أجرة حصتها، ثم باع والدي بعد مدة حصته لأبي عدنان موسى، وأمضى سيدي يحيى في هذه الدار بقية حياته إلى أن انتقل إلى جوار ربه.

لم يتملك الشيخ بيتاً طيلة حياته، فقد كان سكنه دائماً بالأجرة، إذ كان كلما ملك عقاراً باعه على الفور وتصدق بثمنه، رغبة بأن لا يكون ممن ينفق في التراب، فقد ورد – كما ذكرت سابقاً – أن المسلم يؤجر في نفقته كلها إلا في شيء يجعله في التراب.

ونظراً لأنه لم يترك لأهله وأولاده شيئاً من حطام الدنيا ومتاعها، فقد كان كثيراً ما يقول لهم مواسياً: تركت لكم الله ورسوله[110].

زوجاته:

لم يتزوج سيدي يحيى في سن مبكرة، كما كانت العادة في تلك الحقبة، وكما كان هو الغالب والشائع، ولكنه تأخر قليلاً مقارنة بشباب ذلك الوقت، فقد تزوج في منتصف العقد الثالث من عمره، أي في أول الخامسة والعشرين تقريباً، وكان مردّ تأخره اشتغاله بطلب العلم، وملازمة العلماء ومجالستهم، إضافة إلى أن همّه كان الاشتغال بالذكر والعبادة والأنس بالله عز وجل، ورغبته في أداء فريضة الحج أولاً، ولكنه لم يكن ليترك هدي المصطفى عليه الصلاة والسلام في هذا الأمر، وخاصة أنّ الله أكرمه بكامل مستلزماته، وأعطاه الباءة –التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا معشر الشباب، من استطاع الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء"[111] بل كان من قدر الله له أن يتزوج عدة

---

[110] وفي الحديث الشريف "وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر" أبو داود (3641) والترمذي (2682) وهو من معلقات البخاري.

[111] البخاري في النكاح، باب من لم يستطع الباءة فليصم. ومسلم في النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ووجد مؤنه الخ.

نساء على مرّ حياته، بنى بأربع منهنّ، أنجبن كلّهنّ، وعقد على ثلاث من النساء دون أن يبني بهنّ.

شجرة الزوجات والأولاد

الزوجات **الأولاد**

الشيخ يحيى الصباغ

1- أنيسة الصباغ

1- نظمية

2- حسن

2- فاطمة الطرودي

3-عبد الباسط

4-ملكة

5- نجاح(أم وفاء)

3- ناجية الصباغ

6- سلمى

7-منصور

8-سعيد

4- هدية مالو

9-فتحية

10-يسرى (أم بدر)

5-إسعاف الإمام (عقد)

أما سبب تعدد زوجاته، فمردّه لأكثر من سبب، ولكن أحد أهم هذه الأسباب أنّ ما كان عليه حاله من الزهد والتوكل والتعبد، مع كثرة الضيفان والزوار، مما لا تتحمله كثير من النساء، فكان إذا وجد من زوجته التضجر والتذمّر، أو لمس منها عدم الرضا على نمط حياته، وعلى حاله التي أقامه الله عليها، صبر، حتى إذا كثرت شكواها وتوالى تذمّرها، أو تنافرت الطباع واختلفت السجايا، ولم تتلاق الأرواح ولم تنسجم، كان يلجأ إلى الطلاق الذي جعله الشرع حلاً للزوجين عند تعسّر العشرة بينهما، وتعطّلِ الحلول الأخرى وعدم نجاعتها، وربما طلبت الزوجة الطلاق بنفسها واختارته بملء إرادتها، لعدم قدرتها على تحمل أعباء الشيخ وحاله من الزهد والتوكل، كما حدث مع بعضهنّ.

الزوجة الصالحة هي خير معين للرجل في حياته ومسيرته، ولها أثر كبير في نجاحه وثباته، وعلى الشباب الدعاة الانتباه إلى هذا الأمر أثناء البحث عن شريكة العمر، وترجيح كفة الصلاح وحسن الخلق على كل ميزة أخرى، حتى لا يكون الزواج عائقاً في مسيرة الدعوة والعلم والتعليم، ولا يكون مثبطاً عن اللحاق بالأفاضل والتخلق بأخلاق الأوائل.

لما نزل قول الله تعالى: (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة) [البقرة:245] قال أبو الدحداح رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إني أقرضت ربي عزّ وجلّ حائطي – بستاني –، وكان فيه ستمئة نخلة، وأمّ الدحداح فيه مع عيالها، وجاء أبو الدحداح فأخبرها بنزول الآية وبما فعل، فعمدت إلى صبيانها تخرج ما في أفواههم من تمر وتنفض ما في أكمامهم منه، وقالت له مباركة صدقته: ربح البيع ربح البيع**!!**[112].

وفي تفسير قوله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) [التغابن:14–15]. قال الألوسي: "ومن الناس من يحمله حب الزوجة والأولاد والشفقة عليهم على أن يكونوا في عيش رغد في حياته وبعد مماته، فيرتكب المحظورات لتحصيل ما يكون سبباً لذلك وإن لم يطلبوه منه فيهلك".

فزوجاته هنّ:

الأولى: كانت ابنة عمّه، وهي أنيسة الصباغ أخت الشيخ العالم إبراهيم الصباغ، أنجبت منه بنتاً واحدة، مكثت عنده سنين قليلة ثم طلقها، فتزوجت وأنجبت، وعمّرت طويلاً.

والثانية: جدتي فاطمة الطرودي (أم حسن)، طلقها بعد أن أنجبت منه ولدين، تزوجت بعده وأنجبت بنتاً واحدة، وتوفيت وهي في طريقها لأداء فريضة الحج، وكانت برفقة ابنها عمي عبد

[112] مجمع الأحباب (1/493).

الباسط (ت:1401هـ) رحمه الله، ودفنت في البقيع بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهنيئاً لها هذه الميتة وهذا الجوار الذي يتمنّاه الأولياء وعباد الله الصالحين.

وأما الثالثة: وهي أيضاً قريبته، فهي ناجيّة إحدى البنتين الوحيدتين لأبي محمد عبد الرحمن الصباغ –لم يرزق بذكور– رحمه الله، بقيت ناجية عند جدّي إلى وفاته، أنجبت منه ثلاث بنات وعدة ذكور، لكن لم يعش لها من الذكور إلا عمي المهندس منصور حفظه الله.

صبرت هذه الزوجة على طريقة حياته، ورضيت بحاله، وكانت له خير عون، حيث استطاعت بفضل الله عليها، وبتوفيق منه، أن تصبر على الضرائر، والأهم هو صبرها على حاله من الزهد والتوكل، والكرم وكثرة الضيفان، وبسط الموائد الكبيرة العامرة التي قلّ أن يخلو منها يوم من الأيام.

وأما الرابعة: فهي هدية مالو (أم منير)، وكانت سيدة فاضلة جميلة، أرملة لرجل وجيه يسمى حلمي البكري[113]، فقد توفي عنها وهو في مقتبل عمره وترك لها أيتاماً صغاراً، خمسة ذكور وبنت، وكان ابنها الكبير (منير) تلميذاً لسيدي يحيى فحفظ القرآن على يديه، وكان جدي يأتي بوعاء (زبدية صغيرة) يضع فيه عدداً من الليرات الذهبية، ويقول له: سمّع لي القرآن عن ظهر قلب، وكل غلط تمسكه عليّ تأخذ به ليرة ذهبية من هذه الزبدية، وكان يغلّط نفسه مرة أو مرتين حتى يعطيه الذهب كي ينفقه على أمه وإخوته الأيتام.

فجرى أن طلب سيدي يحيى يد أخت تلميذه منير للزواج، ولكن النصيب كان على الأم بدل البنت، حيث طلبها من أبيها فتزوجها، قاصداً – إضافة لمقاصد أخرى – أن يرعى أولادها الأيتام، والتبرك بنسب سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فأنجبت له ذكراً وبنتين.

وأشير إلى أني لاحظت توافقاً بين الشيخ الأكبر ابن العربي وبين سيدي يحيى رحمهما الله فيما يتعلق بالزيجات، فالشيخ الأكبر تزوج أربع زيجات: اثنتين في الأندلس، وواحدة في مكة، ورابعة في دمشق. وكذلك سيدي يحيى تزوج من أربع نسوة. كما أنّ الشيخ الأكبر تزوج أمّ أحد تلامذته، وكذلك سيدي يحيى تزوّج (هدية) أم تلميذه منير البكري رحمه الله.

وأما النساء اللواتي عقد عليهنّ ولم يدخل بهنّ، فأشهرهنّ شابة من عائلة الإمام، عقد عليها في آخر سنيّ حياته، وبقيت على عصمته حتى وفاته دون أن يبني بها، وكانت صالحة عابدة، ذات خلق وجمال، تقوم على خدمته والنظر في شؤونه، وكانت في الحقيقة تلميذة له، وما كان عقده عليها إلا وسيلة للتوصل لهذه التلمذة، حيث أحبته حباً شديداً، حباً روحياً خالصاً لله تعالى، فاستفادت منه وانتفعت به، وتأثرت بأحواله وصلاحه بشكل كبير، وهي السيدة إسعاف الإمام

---

[113] وذلك نسبة إلى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حيث لدى هذه العائلة ما يثبت صحة نسبهم هذا.

رحمها الله، وقد تزوجت بعد وفاته بعدة سنين، وتوفيت سنة (1994م) تغمدها الله برحمته الواسعة وأجزل ثوابها.

أولاده:

رُزق سيدي يحيى بأربعة من الذكور هم على الترتيب حسب الأصغر سناً:

الرابع: عمي المهندس منصور حفظه الله، ويعرفه كثير من طلاب جامعة دمشق الذين حضروا دروسه في علم المساحة.

الثالث: عمي سعيد (ت:1432هـ) رحمه الله، عاش ما يقرب من تسعين عاماً قمرية. ولم يكن في حياته سعيداً.

الثاني: هو عمي عبد الباسط (ت:1401هـ) رحمه الله، عاش ثلاثة وستين عاماً، طلب العلم صغيراً ثم تزوج في بداية العشرينيات من عمره من بنت الشيخ أمين خادم الأربعين[114]، فتأثر به وأحبه وانتفع بعلمه وحاله، ثم كان له محل (بقالية) يقوم عليه ويسترزق من خلاله، وهو شقيق والدي الوحيد، والباقي كلهم إخوة لأب، ذكوراً وإناثاً، ولعمي هذا ووالدي أخت وحيدة من والدتهنّ، وكان اسمها فاطمة على اسم جدتي، امرأة صالحة، صابرة، برّة، تعمل بالخياطة، وكم أهدتني بعض الملابس من صنع يديها، (ت:1431هـ)، رحمها الله رحمة واسعة.

الأول: أما الابن الأول لجدي فهو والدي الشيخ حسن رحمه الله، وقد عقدت له فصلاً خاصاً.

أما أولاده من الإناث فقد رزق رحمه الله بست إناث، فكانت بكره أنثى، وهي عمتي نظمية (أم وجيه) وهي من مواليد (1904م)، من زوجته الأولى أنيسة الصباغ، عاشت ما يقرب من تسعين عاماً، وتوفيت عام (1418هـ)، رحمها الله.

زوّجها جدي من ربيبه الحاج إبراهيم البكري رحمه الله وكان تربى في حجره. كان هذا الرجل من المحسنين المنفقين بالسر والخفاء، الذين لا تعلم شمالهم ما أنفقت يمينهم، وكان على غاية من الخلق والحلم، فقد اعتدت وأنا في مقتبل عمري أن أمضي العطلة الدراسية في الصيف زائراً عندهم، واستمر ذلك على مدى بضع سنين، لم أذكر أني وجدته غاضباً في يوم من الأيام طيلة هذه الفترة، ولم أذكر أنه قال لي يوماً لشيء فعلته لم فعلته!! أما زوجته عمتي هذه فقد كانت أيضاً على غاية من الصلاح والتقوى، كثيرة العبادة والذكر، فقد كان وردها في كثير من الأيام أن تقرأ آية الكرسي ألف مرة، وسورة الفاتحة ألف مرة، وسورة الصمد ألف مرة، وتصلي على

[114] انظر ما كتبت عنه في فصل علاقة جدي مع العلماء.

النبي صلى الله عليه وسلم ألف مرة، إن لم يكن أكثر، وبصيغ متعددة وطويلة، وربما تركت بعضاً من هذه الأوراد، لكنها لا تترك الصلاة على النبي الأكرم أبداً.

كانت كثيرة الحدب عليّ صغيراً وكبيراً، ولها ولزوجها عليّ أفضال كثيرة، دينية ودنيوية، فكم كانت تحثّني على تلاوة القرآن، وعلى أن أختم في كل أسبوع مرة، وكانت تحبب لي الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وتشركني معها في أورادها التي ذكرت، وتشجعني على ذلك بالعطايا والهبات والهدايا. فرحمها الله وزوجها رحمة واسعة وجزاهما الله عني خيراً.

ورزق من زوجته ناجية ثلاث بنات: ملكة، ونجاح (أم وفاء)[115]، وسلمى، تزوجت الأولى من أحد تلاميذه الفقراء، والثالثة من ابن عمها، وأما أم وفاء فقد كان جدي يحبها محبة كبيرة، لتواضعها وعظيم برّها به وبوالدتها، فتزوجت من رجل صالح هو الشيخ محمد بن رشيد عاشور (ت:1401هـ)، وقد كان هو وأبوه من أهل الصلاح، كما كان لأبيه ملازمة لجدي وصُحبة.

ولزواجه من عمتي قصة طريفة فيها عظة وعبرة، تدلّ على غلبة الأقدار، وعلى منزلة أهل الله عند الله عز وجل، فحوى هذه القصة أنه شاهد نفسه في الرؤية أنه طار وحطّ في بيت الشيخ يحيى، فاستيقظ وحدّث أمه بما رأى – وكانت امرأة صالحة وتربطها وزوجها علاقة طيبة بعائلة سيدي يحيى– ثم طلب منها أن تخطب له بنت الشيخ، فكان النصيب بعد تردّد من أمّه وتلكؤ، حيث كانت تتمنى له زوجة أجمل، كما تصرّح بذلك عمتي أم وفاء وهي تضحك وتترحّم على الجميع.

كان صهري هذا محباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ورده من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم كل يوم عشرة آلاف مرة، كما فهمت من حديثه يوماً في غرفته في مسجد (بعيرة) في ساحة السبع بحرات يوم كان مسؤولاً عن الخدمة والأذان فيه، وكان لمّا أزوره وأصلي عنده في المسجد يعظني ويحضّني على الإكثار من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول لي: إنّ من يتذوق حلاوة هذه الصلاة فإنه يشعر بلذة لا يعادلها لذة من لذائذ الدنيا وشهواتها، ويضرب لي مثلاً لذلك – وكنت في أول شبابي– أضرب صفحاً عن ذكره.

ومما يشهد لصلاح هذا الرجل وحاله من الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ العلامة المعمّر النسيب الحسيب، السيد الحبيب عبد القادر السقاف (ت:1431هـ) رحمه الله لما زار دمشق عام (1973م) زاره في بيته المتواضع، رغم أنّه لا سابق معرفة بينهما، وليس هو من المشهورين عند العامة أو الخاصة، واختاره – مع القلائل الذين زارهم – من قائمة فيها مئتا اسم مرشحين للزيارة، حيث أنّه لم يمكث في دمشق في هذه الزيارة سوى ثلاثة أيام.

---

[115] انظر قصة سبب تسميتها بأم وفاء في فصل فراسة المؤمن.

وأما زوجته هدية فقد أنجبت له عمتي فتحية، وعمتي يسرى المعروفة بأم بدر، وقد كانت من أولياء الله، ولذا عقدت لها فصلاً خاصاً.

وأما عمتي فتحية (ت:1422هـ)، فقد تزوجت وعمرها ثلاثة عشر سنة من الحاج محمد عيد بن الشيخ أمين خادم الأربعين[116] رحمه الله، كانت صالحة عابدة، لها حظ كبير من الذكر والعبادة لا يقلّ عن ما ذكرته من حال أخواتها، وقد انتفعت كثيراً بعمها والد زوجها الشيخ أمين خادم الأربعين.

ولزواج عمتي هذه بالحاج محمد عيد قصة طريفة، وهي أنه بعد أن جاء أهله لخطبتها، أراد جدي أن يعرف الشاب عن قرب، فلم يكتف بمعرفة والده وصحبته الطويلة له، بل أراد أن يتثبّت من كرم الخاطب وحسن خلقه، فذهب إليه في دكانه – وكان يومها حلاقاً – فدخل عليه، فسلّم، ثم جلس على كرسي الحلاقة، فاستقبله أحسن استقبال ثم قام بعمله، فلما انتهى من الحلاقة قال له جدي: أعطني نصف ورقة!! وكانت يومها تعدل عمل الحلاق شهراً كاملاً أو أكثر، فبدل أن يعطيه أجرته طلب منه هذا المبلغ، فاستغرب هذا الشابّ الحلاق، ودُهش، إذ لا علم له أن أهله قد خطبوا له ابنته، ومع ذلك أخرج من جيبه نصف ورقة – ولا أدري كيف علم جدي بوجودها معه، إلا أن يكون الكشف – ودفعها للشيخ، فقال له الشيخ: زوّجتك بها ابنتي!! فقد جاء أهلك وطلبوها لتكون زوجة لك، ولقد وافقت!!

وبعدها بفترة قصيرة جداً تزوج عمي عبد الباسط رحمه الله إحدى بنات الشيخ أمين، ولم تمكث عنده طويلاً، فما لبثت أن مرضت واختارها الله لجواره فزوّجه الشيخ أمين بابنته الثانية لِما رأى من استقامته وحسن خلقه وصبره على مرض زوجته الأولى.

وقد وعدت أن أفرد فصلاً خاصاً لكل من والدي الشيخ حسن (أبو أسعد)، وعمتي الولية الصالحة يسرى (أم بدر) عليهما رحمة الله، ولأبدأ بعمتي ثم أثنّي بوالدي مستعيناً بالله عز وجلّ.

---

[116] انظر شيئاً من أحواله في فصل علاقاته ومجالسه.

الحاجّة (أم بدر) يسرى يحيى الصباغ

هكذا كانوا يحبون مناداتها الحَجّة أم بدر رغم أنها لم تحجّ، وبدر هو أكبر أولادها، هي عمتي يُسرى وهي أمي من الرضاع، أكرمني الله تعالى بالرضاع من هذه العمة الولية، الصالحة، الزاهدة، الصابرة، المحتسبة، التقية النقية، فنهلت من لبنها صغيراً، واستفدت من حالها شاباً كبيراً.

وُلدت أمي الحجة أم بدر سنة (1342هـ/1924م)، من زوجة سيدي يحيى (هدية)، لم تدخل المدارس ولم تتعلم في دور الخجا، تزوجت صغيرة وهي في حدود الحادية عشر أو الثانية عشر من عمرها من رجل يكبرها بنحو ثلاثين عاماً، وهذا شيء معتاد في ذلك الوقت، فقير الحال، هو السيد إسماعيل العرودكي (ت:1396هـ)، رحمه الله، فكانت له خير زوجة، صبرت على الفقر الذي عضّ أسرتها بشدة في بداية أمرها، كما صبرت على صعوبة الحياة في ذلك الوقت، دون تضجرّ ولا تأفّف ولا شكوى، ولم تكن تبح بحالها لأحد من أهلها.

سكنت ملاصقة لأختها زوجة محمد عيد ابن الشيخ أمين خادم الأربعين، وكانت أحوالهم المادية ميسورة جيدة، فلم تدخلها الغيرة من حال أختها ولا الحسد، بل كانت نفسها راضية هنية، تسدّ العوز ببعض الأعمال التي تقوم بها، كغزل بعض الملابس الصوفية، والقيام ببعض الأعمال الخفيفة، تساعد بما يأتيها من ذلك زوجها، فتصرفه على بيتها وأولادها، وبقيت صابرة على هذا الحال سنين طويلة.

تلقت أم بدر رحمها الله عن والدها كل ما يمكن أن يتلقاه الأطفال والصغار من أبائهم، فانتفعت به واستقت من معينه، ولما تزوجت حاولت الاستفادة من الشيخ أمين خادم الأربعين عم شقيقتها، فتلقت منه مع أختها بعضاً من الدروس، وبعضاً من الرقى الشرعية فانتفعت به، وكان سبب هذا الاتصال والانتفاع بهذا الشيخ هو المجاورة الملاصِقة إضافة للمصاهرة، فشقيقتها كانت تسكن مع زوجها محمد عيد في منزل والده الشيخ أمين، فكانت تسألها عن كل ما تتعلمه من عمها وتتلقاه عنه، فتحفظه وتهضمه ثم تطبقه، وربما حضرت بعض جلسات العلم والذكر التي يعقدها الشيخ أمين في منزله بحكم هذه المجاورة والمصاهرة.

ثم أكرمها الله تعالى بتعلم القراءة وفك الخط بفتح منه وفيض وإلهام، فقد كانت من شدة ولعها بالقرآن الكريم وحرصها على تلاوته – وهي الأمية التي لا تقرأ ولا تكتب – أن سلكت طريقة خاصة بها لتلاوة القرآن، فكانت تفتح القرآن الكريم وتمرّ عليه كاملاً فتقرأ لكل صفحة قبل أن تقلبها سورة الصمد، واستمرت على ذلك فترة طويلة، وفي ليلة من الليالي رأت رؤيا بأنّ آتٍ أتاها فعلمها التلاوة، فاستيقظت من نومها وقد تعلمت كيفية القراءة وفك الخط، وقد كانت تقرأ أمامي –

وأنا شاب يافع- بعض أسطر من كتاب الفتوحات المكية تبركاً، وتعظني بما يفتح الله عليها، رحمها الله، فكانت تقرأ قراءة سليمة شبيهة بقراءة حديثي عهد بتعلم.

لم تنقطع خلال زواجها عن والدها والانتفاع به، فكانت تزوره ويزورها – على قلة – بين الفينة والأخرى فتسأله وتستفيد منه بحسب ما يسمح لها ظرفها ووقتها.

أما عبادتها وأذكارها، فلا تسأل عن حسن ذلك منها، فقد كانت فيه على نهج والدها، ذكراً، وعبادة، وتهجداً، وخاصة بعد أن توفي زوجها، فكانت تقوم الليل كله، صاحبة حال مع الله، تستغرق في الذكر والمناجاة استغراقاً عجيباً، فأكرمها الله من فضله، وأعطاها من نعمه، والعطايا الإلهية مِنَح، ولا يستطيع العبد وخاصة إن لم يكن صافي السريرة أن ينال كل شيء بكدّه وسعيه وجدّه، إذ لا انفكاك له عن غلبة سوابق الأقدار، ولا بدّ لفلاحه من الفتح الإلهي والكرم الرباني، فلا غناء للعبد عن ربه، مهما نصب وتعب، فليس كل شيء يُنال بسعي الأقدام، وهذا لا يتنافى ولا يتعارض مع إيماننا الراسخ بأنّ الله عز وجل لا يضيع أجر من أحسن عملاً، كما نصّ عليه القرآن في عدة مواضع.

اجتهدت أمي أم بدر بالعبادة والطاعة، فكانت ملازمة لأوراد وأذكار لا تتركها مع كل أعبائها كزوجة وفية صبور، وكأم حنون راعية ومربية لتسعة من البنين والبنات، فكان من جملة أورادها الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عدة آلاف، وقراءة آية الكرسي، وسورة الصمد، وسورة الفاتحة، بالمئات إن لم يكن بالآلاف، وقراءة سورة ياسين عدة مرات، تصل أحياناً إلى إحدى وأربعين مرة في اليوم الواحد.

وكان لها حال عجيب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قريب من حال والدها، فكانت كلما ذكر النبي عليه الصلاة والسلام تأخذها قشعريرة تهز كل جسدها، وإذا تكرر ذكره عدة مرات غلبها البكاء، وأخذها حال غريب.

اشتهر حالها وصلاحها عند الجيران والمعارف في الحيّ (المهاجرين)، وكانت البداية بجلسة بينها وبين تلميذة والدها وزوجته في آن، السيدة إسعاف الإمام، ثم انضمّ لهنّ بعض الصالحات الفاضلات، على رأسهنّ العابدة الصالحة البتول بديعة طه سكر شقيقة شيخي الفقيه المقرئ الحسيب النسيب الشيخ أبي هشام محمد بن طه سكر، ثم شقيقتها الأكبر البتول أيضاً منيرة طه سكر، والحاجة الصالحة أم نعيم الحريري[117]، رحمهم الله جميعاً، وصار النساء يقصدنها للتبرك بها والاستفادة منها، فكانت تعظهم وتوجههم وتنصحهم، كل امرأة بحسبها، فإن كانت زوجة أكدت في موعظتها ونصحها لها على طاعة الزوج وعدم مخالفته، وحثتها على الصبر على حاله وأخلاقه، ونصحتها بحسن التبعّل وتربية الأولاد والقيام على شؤون البيت، وإن كانت بنتاً ذكّرتها

[117] انظر فصل الشيخ العارف أحمد الحارون.

بفضل البرّ بالوالدين، وحثّتها على المحافظة على الفرائض والعبادات، وإن كانت مبتلاة بمرض أو تمرّ في ضائقة نصحتها بالصبر وذكّرتها بفضله وأجره عند الله، وذكرت لها محاسن عاقبة الصابرين . . وهكذا تنصح كل امرأة على حسب حالها، وتكثر من النصح على ترك الكذب والغيبة والنميمة، وهي الأمراض التي تكثر في النساء عادة، وتحضهم على شغل اللسان والقلب بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والأذكار والقرآن، فكانت لا تدع زوارها يخرجون من بيتها إلا وحمّلتهم وظيفة، إما قراءة سورة يس عدداً من المرات، أو حصة معينة من كتاب الله، أو ألفاً من الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام، أو نحو ذلك من الأوراد.

بدأ النساء ينتفعن بها وبحالها فكثرن على بابها، وثقل حملها وكبرت مسؤوليتها، وصار بيتها كعبة تقصد، ومحجّاً يزار، وموردا يروي العطشى، ومنهلاً عذباً لمن أراد الاستفادة وتهذيب الروح.

لما كثر الناس وصار بابها يُطرق فلا يهدأ، وزوارها دائمون لا ينقطعون، لجأت تخفيفاً على أسرتها وحرصاً منها على عدم التهاون في واجباتها كزوجة وأمّ؛ إلى مجلس أسبوعي للنساء كل يوم اثنين، جعلت منه مجلس تلاوة وأذكار، فكان يقرأ فيه حوالي ثماني ختمات من كتاب الله تعالى، إضافة لما يكون فيه من ذكر لله عز وجلّ وصلاة على رسوله عليه الصلاة والسلام، تتخلله بعض المواعظ والإرشادات، ثم قبل الختام توزّع الوظائف من الأذكار، وسورة ياسين، وبعض الأجزاء من كتاب الله، وعدداً معيّناً من الصلاة على رسول الله، على النسوة الحضور، ليقرأنها في بيوتهن خلال الأسبوع، بعد ذلك توزع عليهنّ الضيافة – قبل الانصراف – وغالباً ما تكون ما تيسّر من طعام يحضّر كله في البيت مما يبذله أهل الخير ويجودون به.

ثمّ ازداد المحبون والقاصدون، فخصصت لهنّ مجلساً ثانياً كل يوم أربعاء، فصار المجلس مرتين في الأسبوع، يبدأ في الساعة الثامنة صباحاً وينتهي مع أذان الظهر تقريباً.

لم يكف ذلك القاصدين والزائرين ولم يشف غليلهم، فلم يخفّ العبء عليها، فخصصت بعض أيام الأسبوع في الفترة الصباحية لقضاء حاجة أصحاب الحاجات، والإجابة على استفسارات النساء واستشاراتهنّ، فهذه تريد ورداً ودعاء ليشفي الله مريضها، وتلك تأخّر زواج ابنتها فترغب في ورد خاص لها ييسر الله بسببه زواجها، وثالثة تريد أن يكرمها الله بالإنجاب، وأخرى تشكو عسر أخلاق زوجها، و.. و.. وهكذا، فكانت تستقبل الجميع وتزودهم بالنصائح والإرشادات وتحملهم الوظائف من الأدعية والأذكار، فكم قُضيت على يديها من حاجات، وكم شُفيت بأدعيتها النبوية ووصفاتها القرآنية نساء! وكم انحلّت عقدة صبايا وفتيات! وكم أنجبت بعد عقم وطول انتظار غاديات ورائحات لم تسعفهنّ محلات العطارة ولا عيادات الأطباء والطبيبات. وكان كلّ هذا من إكرامات الله لها ومن عطاءاته وهباته وفتوحاته.

وكما كان لأمي أم بدر أحوال عجيبة في العبادة والإقبال على الله؛ كان لها أيضاً أحوال مدهشة في الكرم والجود، فقد سارت على درب والدها في ذلك، فورثت شيئاً من أحواله، فكانت تأتيها الأموال من أهل الخير فتضعها في أيدي الفقراء، كان لها موائد عامرة، يشهد لها بها تلك الحلل الكبيرة والقدور العظيمة من شوربة العدس المليئة باللحم الوفير التي كانت تطبخها أسبوعياً بكميات كبيرة تنوء بها المطاعم المتخصصة، لتوزع على أهل مجلسها وعلى كل من يطرق بابها ليأخذ نصيبه، فقيراً كان أم غنياً، إذ كان كثير من النساء يرغبن فيها لهنّ ولأهلهنّ تبركاً واستشفاء، لا عن فقر أو قلة ذات يد.

وهكذا كنت تجد أنّ بيت الحاجة أم بدر الصباغ يقوم كل يوم بوظيفة، فيوماً هو مسجد عامر بمجالس الذكر وتلاوة القرآن والصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام، ويوماً هو عيادة إيمانية لمعالجة أمراض القلب ومفاسد النفس، ويوماً هو دار استشارات لحلّ مشاكل الزوجات والأبناء والبنات، ويوماً هو ملحمة مليئة بالخراف تذبح ثم تُقطّع لتوزع على البيوت والعوائل، ويوماً هو مطبخ ضخم يجهز الطعام للعشرات من الناس، وتَعجبُ كيف تكفي تلك الحلل والقدور لهذا الكمّ الكبير من الناس، وتوقن أنّ البركة التي يطرحها الله عز وجل في هذا الطعام هي التي تطعم هذه الأعداد الكبيرة.

كذلك كان هذا البيت قاعة للزوار والمحبين من أهل العلم، إذ كثيراً ما يأتيه العلماء والصالحون يقصدون هذه المرأة الصالحة الولية بغية التبرك والانتفاع بما يفيضه الله عليها، فضلاً عن أنها بنت الشيخ العارف يحيى الصباغ، فقد كان كثير منهم يعتقدون ولايتها، وكل ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وليس بغريب أن أذكر أنّه اشتهر عنها أحوال من الكشف المحققة العجيبة، والتي كانت ظاهرة كفلق الصبح، لا يُماري فيها إلا مكابر أو حسود، ولا يزال بعض النسوة الثقات ممن أدركن بأنفسهن تلك الأحوال يتحدثن بها في مجالسهن ويتناقلنها بشغف وتعجّب، ومثل هذا الكشف لا يُنكر ولا يُستهجن على امرأة صالحة – كأم بدر – عابدة زاهدة، نذرت حياتها لله ولرسوله ولخدمة المؤمنين ونصحهم وإرشادهم وحثهم على محبة الله ورسوله بغية الفوز برضا الله تعالى.

بقيت أمي على هذه الحال منذ أكرمها الله تعالى بمحبته واصطفاها لخدمة خلقه، فترة طويلة من الزمن، في حياة زوجها وبعد مماته، لم تكلّ ولم تملّ –رغم الظروف الأمنية الصعبة في بعض الفترات– بل كانت مع كل يوم يمضي يكثر محبوها، ويتألّق اسمها، وتزداد هي جلاء وصفاء وحباً ومعرفة، وكان جميع إخوتها ذكوراً وإناثاً، مَن هم أكبر منها سناً أو أصغر، يُجلّونها ويحترمونها، ويستشيرونها في كل صغيرة وكبيرة، وكانت هي بدورها وفية محبة تنزل كل واحد منزلته، وبقيت تبرّ جميع أقربائها وذويها ومعارفها وصديقاتها وتلامذتها إلى أن اختارها المولى عز وجلّ لجواره في يوم الخميس الخامس من شهر ذي الحجة سنة (1427هـ) الموافق للخامس

من كانون الثاني سنة (2006م) ودفنت في اليوم الثاني، فشُيّعت بجنازة حافلة، وصلى عليها خلق كثير، ثم دُفنت بمقبرة بئر التوتة في المهاجرين بجانب ضريح والدها الشيخ يحيى، وعلى مقربة من مرقد أخيها سيدي الوالد الشيخ حسن وأختها ملكة، رحمهم الله جميعاً رحمة واسعة.

الشيخ حسن يحيى الصباغ

ولد سيدي الوالد الشيخ حسن (أبو أسعد) عام (1332هـ/1914م)، في حي الصالحية من دمشق الشام، وكان هو الأول من الذكور والثاني من الأولاد.

بعد أن تلقى والدي تعليمه الأساسي ابتدأ حياته العملية في سنّ مبكرة، فانتسب إلى سلك الشرطة، فكان شرطياً عادياً، ثم ترقّى إلى مساعد، ثم ترقّى إلى أن نال رتبة ضابط، وكان هذا من النوادر – أن يترقى شرطي عادي إلى رتبة ضابط – فكانت مكرمة من الله له، سببها برّه بأبيه الذي بشره بهذه الترقية قبل أن تكون، ثم ترقى ونال رتبة أعلى، وتقلّد عدة مناصب مهمّة خلال فترة عمله، ثم سرّح من وظيفته عام (1959م)، فكان ذلك أيضاً من أفضال الله عليه، حيث عاد وتوجّه لملازمة مجالس جدي حتى توفّاه الله تعالى وهو راض عن ولده كل الرضا، فقد كان جدي يحبه كثيراً كما سمعت ذلك مراراً من عماتي، لعظيم برّهِ.

حفظ القرآن الكريم في صغره عن ظهر قلب، وكان يتعاهده حتى وافاه الأجل، ولا أنسى كثرة تلاوته لكتاب الله تعالى وطول تهجده، فقد كان يقرأ في اليوم والليلة أكثر من عشرة أجزاء، عدا ما يقرأه في صلاته.

لم يتتلمذ والدي في حياة جدي على أحد من الشيوخ، تأدباً مع والده الذي كان العلماء يجلّونه كلّ الإجلال، فلما توفّي سيدي يحيى، أقبل سيدي الوالد – كما حدثني بنفسه – على الشيخ الجليل شيخ الطريقة الشاذلية في دمشق، السيد العلامة محمد الهاشمي (ت:1381هـ) رحمه الله، وتتلمذ عليه، فأدخله الخلوة الصغرى، وكان والدي آخر من دخل الخلوة عند الشيخ محمد الهاشمي، ثم بعد وفاته تتلمذ على خليفته الشيخ العلامة محمد سعيد البرهاني (ت:1386هـ) رحمه الله، ولازمه ولازم حضور مجالسه وخاصة مجلس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد صلاة الجمعة في مسجد التوبة في حي العقيبة، وكان دائماً يصطحبني معه وأنا صغير مع شقيقي الوحيد، ولازلت أذكر تلك المجالس التي كان يزينها كبار العلماء، وأذكر أنه في أحد المرات ذهبت بصحبة والدي لمنزل الشيخ محمد سعيد في الحي المذكور، لجلسة بعد العصر اجتمع فيها عدد من خواص تلامذة الشيخ، تكلم فيها الشيخ عن الجنة وأحوال أهلها.

كما كان لوالدي تتلمذ على العالم الرباني مفتي الحنابلة في دوما الشيخ أحمد الشامي (ت:1414هـ) رحمه الله، وكان كثيراً ما يزورنا في البيت أو يصطحبني الوالد لزيارته، كما لازم والدي وتتلمذ على الشيخ الحسيب النسيب رئيس رابطة العلماء السيد محمد المكي الكتاني

(ت:1393هـ) رحمه الله، وكان بين العائلتين الكتاني والصباغ علاقة قوية ومميزة ترسخّت بفضل الشيخين السيد محمد المكي وجدي، كما سيأتي في الفصول القادمة[118]إن شاء الله.

كان سيدي الوالد يحضر دروس السيد الشيخ محمد المكي في بيته، واصطحبني لهذا المجلس أكثر من مرة وكنت في بداية المرحلة الثانوية، وطلبت من والدي وقتها أن يطلب من السيد أن يخصص لي درساً في علم "مصطلح الحديث" ولكن عاجلت المنية الشيخ ولم أحظ بهذا الشرف، وهكذا بقي والدي يحضر دروس السيد إلى أن انتقل إلى رحمة ربه.

وأيضاً كان له صلة كبيرة بالشيخ أحمد الحبال رحمه الله، فقد جمعتهما مجالس الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام أكثر من ثلاثين سنة، يتصدران المجلس بجوار بعضهما جنباً إلى جنب، الكتف بالكتف، لا يتخلفان ولا يتغيبان إلا من سفر أو مرض.

بقي سيدي الوالد ملازماً لهذه المجالس مع شيخوخته وثقل جسمه من المرض الذي ألمّ به آخر حياته، فكان مع ذلك لا يتخلف عن الحضور حتى في أشد أيام الشتاء برودة، ولا زلت أتعجب من شدة حرصه وتعهده للمجلس، ولا أنسى أنه كان يخرج لصلاة الفجر في الليلة الشديدة البرد، والثلج قد ملأ الطرقات، يريد أن يحضر هذه المجالس – مهما بعد المسجد – صباح كل اثنين وأربعاء، رغم أنه كان قد تجاوز الثمانين، فقد عاش رحمه الله قريباً من تسعين سنة قمرية.

تولى والدي في أوائل السبعينيات الإمامة في مسجد الخياط في الجادة السادسة من حي المهاجرين، وبقي فيه أكثر من عشرين عاماً وما ثناه عنه إلا المرض الذي أثقل حركته وأثّر على نطقه.

خلال فترة إمامته في مسجد الخياط – وكان قد قارب الستين سنة – تتلمذ على الشيخ المعمّر الطبيب[119] رفيق السباعي تلميذ المحدث الأكبر البدر، فاستفاد منه وانتفع به، وكان له مجلس يومي معه إلى وفاة الشيخ رفيق سنة (1403هـ) رحمه الله.

انتقل سيدي الوالد إلى رحمة ربه بعد مرض أقعده عن الحركة قريباً من سبعة أشهر، كان فيها صابراً محتسباً، شاكراً حامداً، وكان موعده مع لقاء ربه في الثامن من رجب سنة (1422هـ) الموافق (25 إيلول سنة 2001م)، وشُيّع في جنازة حافلة، حرمتني الأقدار من حضورها بسبب الغربة والسفر، شهدها كثير من أهل العلم والفضل، ثم دُفن في مقبرة بئر التوتة في حيّ المهاجرين قريباً من ضريح والده، رحمه الله، وجعله في أعلى عليين، وجزاه الله عني وعن إخوتي خير الجزاء.

[118] انظر فصل الشيخ يحيى والسيد محمد المكي الكتاني.

[119] درس الطب في الأستانة ولكن لم يتمه حسب ما أفادني بعض الشيوخ، حيث ترك ذلك واشتغل بالعلوم الشرعية.

الباب الثالث: العلم الكسبي والعلم اللدني الوهبي
وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول:

1- التلقي عن الأكابر

الفصل الثاني: الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الحاتمي

1- الشيخ الأكبر والتلقي الفيضي
2- الشيخ الأكبر وتحقيق المقال فيه

الفصل الثالث:

1- وحدة الوجود ووحدة الشهود والاتحاد والحلول

التلقي عن الأكابر

لقد عُرف عن شيخنا بأن الله عز وجلّ أكرمه بعلم لدنّي وهبه إياه وأظهره عليه، حتى غلبت حاله في ذلك على بقية خلاله وميزاته، لدرجة أنّ كثيراً من الشيوخ وكثيراً من معاصريه بل حتى كثيراً من المقربين له ظنّوا أنّ كلّ علمه كذلك، وغاب عنهم – لغلبة حال الولاية ولازمها عليه[120] – أنّ الشيخ طلب العلم صغيراً ثم تابع تحصيله وطلبه للعلم وهو شابّ يافع، ولا يعرفون أنّه جالس كبار علماء عصره وتتلمذ عليهم، وسيتبين للقارئ في هذا الفصل أنّ الشيخ ما حاز الولاية إلا بشروطها كما هي عند أهلها، فالتحقق في مقام الإحسان – وهو أول باب الولاية – الوارد في حديث جبريل[121] عليه السلام لا يكون إلا بعد التحقق بالإسلام وبالإيمان كما قال شُرّاح الحديث من أهل المعرفة والتصوف، الذين عبّروا بعبارات مختلفة حاصلها وفحواها أنّ من شروط صدق التوجه إلى الله – كما مرّ في بحث التصوف – الفقه في الدين والعلم بأحكامه، فلا تصوف إلا بفقه . . ولا فقه إلا بتصوف . . ولا هما إلا بإيمان[122].

ومرّ قول الجنيد (ت:297هـ) رحمه الله: أنّ من لم يسمع الحديث، ويجالس الفقهاء، ويأخذ أدبه عن المتأدبين، أفسد من اتبعه[123].

وسبق أن ذكرت أنّ سيدي يحيى انتفع كثيراً بثلاثة من أشهر شيوخه، ولم أفصل الحديث عن ذلك، فلنشرع في الحديث عن تتلمذه على هؤلاء الشيوخ الأكابر وعلاقته بهم.

الأول: الشيخ محمد أمين الكردي الشهير بالزملكاني (ت:1346هـ):

أحد كبار خلفاء الشيخ العلامة عيسى الكردي وهو أول الثلاثة وفاة، لذا قدمت الحديث عنه، وعنه أخذ شيخي المربي عبد الكريم الرفاعي (ت:1393هـ) الطريقة النقشبندية بإذن من شيخه علي الدقر (ت:1362هـ)، وتتلمذ عليه، وكان منه أنّ الشيخ محمد أمين حدّثه بكل ما سيحدث معه في حياته، وقد وقعت كما أخبره بها لم يتخلف منها شيء[124].

لم يتوفر لديّ معلومات عن تفاصيل تتلمذ سيدي يحيى على هذا الشيخ الكبير، وعلى ما كان بينهما من علاقة ورابطة، ولكن كون شيخه هذا أحد كبار خلفاء الشيخ عيسى الكردي (ت:1331هـ)، فإنّ ذلك يرجّح أنّه أخذ عنه الطريقة النقشبندية والفقه الشافعي من جملة ما أخذ.

---

120 لازم الولاية العلم، فلا ولاية بدون علم. ولذا يقول العلماء: ما اتخذ الله ولياً جاهلاً إلا علمه.

121 أخرجه البخاري في تفسير القرآن، باب قوله إن الله عنده علم الساعة.

122 قواعد التصوف، القاعدة (2).

123 المصدر السابق، القاعدة (46).

124 أخبرني بذلك ولده شيخي الشيخ أسامة الرفاعي حفظه الله.

الثاني: الشيخ محمد أمين سويد (ت:1355هـ):

وهو العلامة الرحالة، كان بارعاً في علوم كثيرة، صوفياً متمكناً، ملهماً – كما في كل العلوم – في قراءة كتاب الفتوحات المكية وفك رموزه، والاستشهاد لمسائله من الكتاب والسنة، فقرّأه لعدد من خواصه من أهل العلم من أوله لآخره، في جامع الدرويشية قبل عام (1332هـ/1914م) عندما كان مُعيّناً فيه من قبل الدولة العثمانية، فأخذ عنه الشيخ يحيى وتتلمذ عليه من خلال حضوره لمجالسه العلمية ودروسه، وكان في بداية عقده الرابع، ولا أدري إن لازم مجالسه مرة أخرى بعد عودته من رحلاته المتتابعة واستقراره في دمشق عام (1347هـ/1929م)، حيث درّس الشيخ أمين بعد هذه الفترة ثلاث سنوات في جامع زيد بن ثابت ثم درّس بعدها في جامع التعديل بحي القنوات، ولم يسعفني أحد بتفاصيل ما قرأه على هذا العلامة الجليل، أو تحديد الفترة الزمانية التي حضر فيها مجالسه ودروسه، والمؤكد أنه كان له تتلمذ عليه وانتفاع كبير به، وخاصة في مرحلة الشباب، فقد كانت منازلهما متقاربة جداً حيث كان الشيخ محمد أمين سويد يسكن في جادة العفيف، التي هي على مقربة من مساكن عائلة الصباغ، وبقيت بين الشيخ أمين وتلميذه يحيى رابطة متينة ومحبة قوية إلى وفاة الشيخ أمين، رحمه الله.

الثالث: الشيخ المحدث الأكبر محمد بدر الدين الحسني (ت:1354هـ):

وهو أبرز علماء الشام وأكثرهم أثراً وشهرة، هو شيخ علماء الشام بلا منازع، لم يأت على الشام مثله منذ عهد الإمام السيوطي (ت:911هـ)[125]، وهو الأب الروحي للثورة السورية ضد الاحتلال الفرنسي، تلك الثورة التي ابتدأت شرارتها بالجولة التي قام بها في المدن السورية مع تلميذيه الشيخ علي الدقر والشيخ هاشم الخطيب (ت:1378هـ)[126].

---

[125] فقد قال الإمام السيوطي إنه آخر من أملى في اللغة والحديث، فلم يجيء بعده مثله إلى أن جاء الشيخ البدر. انظر: رجال من التاريخ للشيخ علي الطنطاوي في طبعته المزيدة.

[126] وهذا مذكور في تقرير رسمي لمندوب المفوّض السامي الفرنسي، نشرته جريدة الأحرار في بيروت العدد (678) تاريخ (2 شعبان 1345هـ). انظر ذكريات علي الطنطاوي (284/1). ورجال من التاريخ في طبعته المزيدة للشيخ علي أيضاً.

وقد أرخ لدوره فيها الأستاذ محمد رياض المالح، حيث يقول: "لقد رحل مولانا المحدث الأكبر ضمن المدن الشامية حاثاً على الثورة ضد الفرنسيين فما كاد يعود من رحلته حتى هبت الثورة السورية في جميع أنحاء البلاد. وكان لشدة هذه الثورة ما أقلق حكومة باريس. وهاهي جريدة الأحرار تنشر في العدد (678) السنة الرابعة، شعبان سنة (1345هـ) نص التقرير للمندوب السامي الفرنسي يفيد بأن رحلة مولانا المحدث الأكبر هي الداعية إلى الثورة. وقد قدَّم هذا التقرير كشكوى من الحكومة الفرنسية إلى عصبة الأمم تشكو من أثر مولانا المحدث الأكبر على نشاط الثوار، وأنه هو المغذي الحقيقي للثورة مادياً ومعنوياً، وأن أثره في البلاد هو الذي فجر الثورة".

وقد ساق الأستاذ المالح تعداداً للمقالات التي نشرت في الجرائد السورية عن جولة الشيخ بدر الدين هذه التي امتدت من دمشق إلى حمص بتاريخ (7حزيران/يونيو1925)، ثم حماة بتاريخ (11 حزيران)، و (28 حزيران) حيث وصل إلى حلب،

كان للشيخ البدر عظيم الأثر على شيخنا المترجَم، إذ إنّه انتفع وتأثر به تأثراً كبيراً، فلازمه وأحبه، فكان يحضر درسه العام في المسجد الأموي تحت قبة النسر الذي كان يقيمه يوم الجمعة بعد صلاتها ويمتد إلى صلاة العصر[127]، وكان يتتبع مجالسه أينما كانت ليحضرها، ويحرص على أن لا يفوته شيء منها، وكان له من شيخه البدر توجه واضح وعناية ملحوظة، حيث كان سيدي يحيى طلب منه درساً خاصاً في علوم خاصة (قلبية روحية)[128]، وقد حدثني الشيخ أبو حسين بدر الجوبراني- حفظه الله - في بلدته (كفر حور) القريبة من (بيت جنّ) أنّ الشيخ البدر كان له اعتقاد بالشيخ يحيى، وكان مقرباً لديه، حيث خصّه بدرس في دار الحديث، كما كان يحضر درسه الذي كان يقيمه في داره بعد صلاة المغرب من كل ليلة.

هذا الدرس كان يحضره الخاصة من العلماء والنخبة المثقفة والطلاب الذين لم يعتادوا الذهاب للمساجد، وكان الشيخ عبد القادر المبارك (ت:1365هـ) رحمه الله من نخبة هذه النخبة بل هو الرابط بين هذه النخبة والشيخ البدر[129].

وأكد لي الأستاذ بدر الدين الحسني (ابن حفيد المحدث الأكبر البدر) أنه يعرف من والده وغيره أنّ الشيخ يحيى كان مقرباً جداً من جده، وأنّ الشيخ يحيى المكتبي الشهير بزميتا (ت:1378هـ)

و (7 تموز) حيث زار إدلب، ثم بعلبك في (17 تموز)، وبيروت في (18 تموز)، ثم وصوله إلى مشارف الشام في (19 تموز) وإشراف مدير الشرطة العامة بنفسه على تنظيم الناس لاستقبال المحدث الأكبر، ثم يقول بعدها:

"وبعد عودة مولانا المحدث الأكبر من هذه الرحلة، اندلعت الثورة السورية من أقصى البلاد حتى أدناها، وهبّ الفرنسيون بقواتهم المدججة يضربون دمشق، ويحرقون أكثر البيوت، وثارت المظاهرات في الوطن العربي تأييداً للشعب السوري، واجتمعت لجنة لمناصرة سورية في القاهرة، وألقى أمير الشعراء أحمد شوقي قصيدته المشهورة:

سلامٌ من صبا بردى أرقُّ ودمع لا يُكفكف يا دمشق

وأجابه المرحوم الزركلي بقصيدته المشهورة:

الأهل أهلي والديار دياري وشعار وادي النيربين شعاري

وهنا قام الثوار بتهديد القوات الفرنسية بأنه إذا لم توقف السلطات الفرنسية ضرب دمشق فإنهم سيقتحمون دمشق ويأخذون مولانا المحدث الأكبر بالقوة ويبايعونه بالخلافة الإسلامية، ويدعون جميع مسلمي الأرض إلى الجهاد المقدس تحت لوائه، وستكون دمشق مقبرة للفرنسيين. وقد ألمحت لذلك بعض الجرائد كجريدة الرأي العام البيروتية في (17 شباط 1926) وجريدة الأحرار.

127 يقول الشيخ علي الطنطاوي: كان درسه في الأموي أعجوبة، من رآها ووعاها فقد رأى عجائب الزمان . . . وأعرف من كتب من هذا الدرس عشر مجلدات ضخام، وفيه يبدو علم الشيخ وهذه الذاكرة التي لا تمنّ بمثلها الدنيا مرة كل مئة سنة.

ويقول: ما مسّ جنبه الأرض وما اضطجع إلا في مرض الموت، ما مرض قبل ذلك قط وما نام كما ينام الناس، بل كان يجلس في الليل ليقرأ، فإذا غلبه النعاس اتكأ برأسه على وسائد أعدت له فأغفى ساعتين أو ثلاثاً من الليل متقطعات، ومن النهار ساعة. (رجال من التاريخ).

128 وقد كان للشيخ المحدث الأكبر خلوات خاصة مع بعض تلاميذه، كالشيخ محمد الهاشمي رحمه الله. انظر كتاب: (العلامة محمد الهاشمي مربي السالكين:110).

129 مقابلة مع الأستاذ الدكتور مازن عبد القادر المبارك.

كان أيضاً كذلك، ولكنّ هذا الأخير اشتهر بذلك أكثر لأنّه كان يقيم في دار الحديث في غرفة جانب الشيخ خصصها له شيخه البدر.

وبلغني أنّ التقية النقية والولية العارفة الحاجّة باهيّة بنت الشيخ البدر (ت:1387هـ) رحمها الله كانت ملجأ في علم الباطن، وكان يقصدها أكابر الشيوخ فتصرّح لهم بعيوبهم الباطنية، وكانت لا تأذن لأحد منهم أو من غيرهم من العلماء والشيوخ بالدخول عليها إلا بعد موعد يضرب له، ما عدا سيدي يحيى، فقد كانت تأذن له في الدخول عليها أي وقت شاء، لما تعرف من اعتقاد شيخه البدر (والدها) به، ولما تعلم – وهي من أهل الكشف وصاحبة الأحوال – من ولايته وصدق أحواله.

كان المحدث الأكبر البدر ذا هيبة ووقار، قليل الكلام، إذ يندر أن يتكلم في غير موضوع الدرس، وإذا تكلم ربما اكتفى بالإشارة أو بالكلمة أو ببعض الكلمة، وكان من هيبته ووقاره لا يجرؤ أحد أن يتكلم في مجلسه، ولكن كان لبعض الأفراد – لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة – دالة على الشيخ، منهم الأستاذ اللغوي الفذّ عبد القادر المبارك (ت:1365هـ) رحمه الله، والشيخ يحيى الصباغ.

وقد أكد لي ذلك عدد ممن عرف سيدي يحيى، وأنه ما كان يترك مجلساً للشيخ البدر إلا ويحضره، وله مع شيخه هذا قصص كثيرة، من جملتها: أن البدر كان مرة يتكلم عن الجنة، فقال له تلميذه يحيى: سيدي عاهدنا أن تدخلنا معك الجنة!! فعاهدهم على ذلك[130].

وقد رويت لي هذه الحادثة من أكثر من مصدر منها الحاج أبو سعيد قويدر حفظه الله، والشيخ عبد العزيز الرفاعي رحمه الله، وكان حاضراً في المجلس وقتها وأكّد أنّ الشيخ البدر أعطاهم العهد بذلك إن أكرمه الله بالجنة.

ومن شدة محبته لشيخه البدر وحرصه على ملازمته أينما حلّ وارتحل، تشرّف هو والشيخ رفيق السباعي (ت:1403هـ) مع عدد من تلامذة الشيخ ومحبيه – قارب عددهم الخمسين – بصحبة المحدث الأكبر في رحلته بالقطار إلى المدينة المنورة، تلك الرحلة التي تشرّف فيها بزيارة المصطفى عليه الصلاة والسلام ثم أداء فريضة الحج قبل الحرب العالمية الأولى بقليل

[130] وهذا العهد معروف بين العلماء وتلامذتهم، إذ أنّهم يأخذون العهد بينهم أنّ الناجي منهم يأخذ بيد أخيه يوم القيامة، وقد وردت أحاديث كثيرة تدلّ على أنّ الله عز وجلّ تكرماً منه وتفضلاً، وتشريفاً للعلماء والخاصة من أمة النبي صلى الله عليه وسلم، يشفعهم بأهليهم أو بتلامذتهم أو بأهل بلدتهم، من هذه الأحاديث ما في سنن أبي داود (2522) عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته". ومنها ما رواه الترمذي في سننه (2440) وحسّنه، عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن من أمتي من يشفع للفئام من الناس ومنهم من يشفع للقبيلة، ومنهم من يشفع للعصبة، ومنهم من يشفع للرجل حتى يدخلوا الجنة". وأمّا الشفاعة الكبرى فهي لنبينا الأعظم المكرّم محمد عليه الصلاة والسلام.

(1332هـ/1914م)، وكان مثل هذه الرحلة يستغرق ما يقرب من خمسين ساعة ذهاباً ومثلها إياباً، وهي الرحلة التي أشار إليها عدد ممن ترجموا للشيخ[131].

كان سيدي يحيى يعتقد بشيخه المحدث الأكبر اعتقاداً راسخاً، ويجلّه إجلالاً كبيراً، ويرى أنه حجة الله في أرضه، فقد حدثني بعض محبيه وملازميه، أنه في أحد المجالس التي كانت تعقد في بيت السيد محمد المكي الكتاني رحمه الله، جرى حديث عن المحدث الأكبر البدر، فقال أحدهم عنه: هو حجة الله على أهل عصره، فقال سيدي يحيى: بل هو حجة الله على أولياء عصره!!.

الأولياء حجة الله على العلماء:

وهذا يؤيده ما قاله ابن عجيبة (ت:1225هـ) رحمه الله: "فالأولياء حجة الله على العلماء، والعلماء حجة الله على العوام، فمن لم يستقم ظاهره عُوتب على تفريطه في صحبة العلماء، ومن لم يستقم باطنه عاتبه الله تعالى على ترك صُحبة الأولياء، أعني العارفين"[132].

ويقول أيضاً: "فكذلك العلماء يشهدون على الناس، والأولياء يشهدون على العلماء، فيزكون من يستحق التزكية، ويردون مَن لا يستحقها؛ لأنّ العارفين بالله عالمون بمقامات العلماء أهل الظاهر، لا يخفى عليهم شيء من أحوالهم ومقاماتهم، بخلاف العلماء، لا يعرفون مقامات الأولياء، ولا يشمون لها رائحة"[133]، كما قال القائل:

تركنا البحورَ الزاخراتِ وراءَنا فمِن أين يدري الناسُ أين توجَّهْنا

هذه الكلمة من سيدي يحيى تحمل في طياتها معان عديدة وعميقة للمتأمّل، فهي تدل أولاً على اعتقاده الراسخ بشيخه ومكانته عنده التي لا يضاهيه فيها أحد، وتدل ثانياً على أنه يعتقد بشيخه الولاية، وأنه سيد أولياء عصره، وتدل فيما تدل على ولاية الشيخ يحيى نفسه، فإنه لا يتكلم بهذا الكلام إلا من كشف الله له عن أولياءه فعرفهم بعمومهم وميزهم، أو اختصه الله بأن كشف له سر شيخه البدر بأنه حجته على أولياء عصره، وإلا فأنّى للشيخ يحيى أن يعرف ذلك ويجهر به على ملأ من الخواص؟ ومعلوم أنّ أمثال هؤلاء لا يتألّون على الله، فلا يلقون أمثال هذه الكلمات والمعاني جزافاً من عند أنفسهم، أو محبة في الكلام لمجرّد الكلام أو رغبة في الظهور بين الحضور، وهم أيضاً لا يُعقل أنّهم يشهدون زوراً أو يأتون بهتاناً، فهم لا يهرفون بما لا يعرفون،

---

131 كيسرى دركزنلي في ترجمتها للبدر (ص:44)، وكالشيخ علي الطنطاوي في كتابه (رجال من التاريخ).

تم افتتاح الخط الحديدي الحجازي في آب عام (1908م) حيث انطلقت أول رحلة من دمشق إلى المدينة المنورة واستغرقت الرحلة خمسة أيام.

132 تفسير البحر المديد لابن عجيبة، آية (أفغير دين الله يبغون) [آل عمران:83].

133 المصدر السابق، آية (لتكونوا شهداء على الناس) [البقرة:143].

فصلاحهم وحالهم من السكوت الطويل، والتواضع، والتخفّي، والتهرّب من الظهور، والخوف من عثرات اللسان، يلزم منه تنزيههم عن مثل ذلك، وخاصة عندما يتعلق الأمر بما يُنسب لله تعالى.
ولقد التقط هذه المعاني بعض من كان حاضراً في المجلس، فكانت هذه الإشارة من سيدي يحيى هي التي لفتت نظرهم لمقامه وولايته، فأحبوه وتعلقوا به، ولازمه بعضهم بقية حياته وانتفع به.
وهذه الشهادة من سيدي يحيى لشيخه لا يماثلها – فيما أعلم – إلا شهادة الشيخ رشيد الجندلي المعروف بالحبال (ت:1355هـ)، رحمه الله، لما رجع تلميذه الشيخ يحيى الزميتا (ت:1378هـ) من مجلس للشيخ البدر وقد انجذب إليه، وكان ذهب إليه على فرسه، قال له شيخه أول ما رآه وقبل أن يخبره أنه كان في مجلس البدر: "إذا ركب العلماء الدواب ركب مولانا الإمام البدر البراق، وليس تحت قبة السماء من هو خير منه"[134]. فلما سمع تلميذه هذا الكلام تأثر به، فلحق بالمحدث الأكبر، الذي اعتنى به وأفرد له غرفة خاصة جانب غرفته في دار الحديث، فلزمه وكان أمينه ومن خواصه[135].
نعم هذه هي شهادة العلماء الأولياء والعارفين الكمّل بالمحدث الأكبر البدر: "ليس تحت قبة السماء من هو خير منه" و "هو حجة الله على أولياء عصره".
ومما يدل أيضاً على مدى العلاقة القلبية بين المحدث الأكبر وسيدي يحيى، وعلى مدى التناغم والتوافق الروحي بينهما، أنّ سيدي يحيى كان له عادة دائمة ومعروفة بشراء الخراف لتوزيع اللحم على الفقراء والمحتاجين، أو ليصنع من لحمها طعاماً يدعو الناس إليه في أحد البساتين[136]، فحدث ذات يوم أنه رأى رجلاً تاجر غنم يسوق قطيعاً ليبيعه، فأراد أن يشتريه منه كله، وكان يزيد على العشرة رؤوس، فقال للبائع: أتبيعني هذا القطيع؟ ولكن بشرط أن تذهب معي إلى المسجد الأموي لأدفع لك الثمن هناك إذ ليس معي ذلك الآن، فقبل تاجر الغنم بهذا الشرط وذهب معه إلى المسجد، وكان الشيخ المحدّث الأكبر يلقي درسه العام، فأقبل عليه سيدي يحيى، إلى أن وصل إليه وصار بمقابلته، فإذا بالمحدث الأكبر – وبدون أي كلام منهما – يخرج نقوداً من تحت فراش مجلسه فيعطيها له، فيأخذها وينقد الثمن لتاجر الغنم.

أحباب الشيخ من أترابه العلماء:

---

[134] ويؤكد هذه الشهادة أنه لمّا زار شيخ الإسلام العلامة المصري الأجلّ، أصولي العصر، محمد بخيت المطيعي دمشق وحضر درسه قام بعد الدرس ليقبل يد المحدث البدر وقال له: "ربنا يخليك، ما فيش في الدنيا النهار ده واحد تاني زيّك" (رجال من التاريخ).

[135] تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر.

[136] انظر: فصل كرمه وجوده.

وقبل أن أختتم الحديث عن مشايخ شيخنا يحيى أرى أنه من المفيد أن أذكر بعض أهم العلماء الذين كانوا من جيله وأترابه وكان بينه وبينهم علاقة حميمة ومحبة عميقة واحترام متبادل، فتأثر بهم وربما تأثروا به، وسأذكر أهم هؤلاء العلماء مقتصراً على الذين ميلادهم لم يتجاوز (1900م) لسببين:

الأول: أن الذين ميلادهم بعد سنة (1900م) هم أقرب بالسن لأولاده، إذ أنّ أول مولود حصل للشيخ كان في عام (1904م).

الثاني: وهو السبب الأهم، أنّ هؤلاء الخلّص من العلماء كانوا من الكثرة بحيث يصعب حصرهم، وربما فاتني ذكر من هم أولى بالذكر من غيرهم فأقع في الإساءة من حيث أردت أن أحسن، وألفت النظر أني قد ذكرت بعضهم في فصل الشيخ وعلماء عصره.

وسأذكر هؤلاء الخلّص والأحباب مرتبين على حسب تاريخ ميلادهم، بغض النظر عن مكانتهم العلمية ومكانتهم من قلب الشيخ أو مكانته في قلوبهم، وأنا هنا لا أفاضل بينهم فحاشاني أن أفعل ذلك!! فقد حكي أنّ الإمام أبا حنيفة (ت:150هـ) رحمه الله سُئل: أيهما أفضل علقمة بن مرثد (ت:120هـ) أو الأسود بن يزيد (ت:75هـ)؟ فقال: والله ما نحن بأهل أن نذكرهم، فكيف نفاضل بينهم!![137].

فمن هؤلاء العلماء الخلّص:

1- الشيخ محمد عارف عثمان (1872–1965م، 1385هـ) مؤسس مجلس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.
2- الشيخ السيد محمد الهاشمي (1880–1961م، 1381هـ) نزل دمشق (1913م).
3- الشيخ إبراهيم الغلاييني (1882–1957م، 1377هـ).
4- الشيخ محمد أبو الخير الميداني (1885–1961م، 1380هـ).
5- الشيخ محمد سعيد البرهاني (1892–1967م، 1386هـ).
6- الشيخ المعمّر الطبيب[138] محمد رفيق السباعي (1892–1992م، 1403هـ).
7- الشيخ السيد محمد المكي الكتاني (1894–1973م، 1393هـ).
8- الشيخ صلاح الدين كيوان (1897–1968م، 1387هـ).
9- الشيخ أحمد الحارون (1900–1962م، 1382هـ).

---

[137] مجمع الأحباب مختصر الحلية (110/1).

[138] أفادني بعض الشيوخ أن الشيخ رفيق كان درس الطب في الأستانة ولكن لم يتمه بل اشتغل بالعلم الشرعي.

وغيرهم كثير، رحم الله الجميع رحمة واسعة ونفعنا بذكرهم وببركتهم.

بعِشْرتكَ الكرامَ تُعدّ منهم		فلا تُرَيَنْ لغيرهمُ أَلوفا

ارتباط الشيخ الروحي بأعلام الأمة السابقين:

وأخيراً بقي أن أذكر أنّ الشيخ يحيى كما تأثر بالعلماء الربانيين الذين تلقى عنهم أو تشرف بمجالستهم؛ فإنه أيضاً كان له ارتباط قلبي وروحي بعلماء وأولياء من سلف هذه الأمة، ارتحلوا إلى ربهم وتركوا أثراً طيباً من مصنفات ومؤلفات وتلامذة، بقيت كلها دالة عليهم وشاهدة على عطاءاتهم وما بذلوه لله ورسوله، وعلى علوّ كعبهم في الولاية والعلم، فتأثر بمنهجهم وطريقتهم، إنهم أعلام وشموس أضاؤوا لهذه الأمة طريقها، وكانت لهم إسهامات كبيرة أثّرت في مسيرتها، من هؤلاء: الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت:561هـ) رحمه الله تعالى، وكان دائماً يناديه (الباز).

ومنهم: الشيخ عمر بن الفارض (ت:632هـ) فكان أحياناً يردد بعض أبيات من قصائده تحكي حب الله ورسوله، التي ليس فيها مغالاة يأباها الشرع، أو تلك التي توحي بالاتحاد أو الحلول. كقوله:

قل للذي لامَني فيه وعنّفَني		دع عنك تعنيفي وذُق طعم الهوى

فإذا عشقتَ فبعد ذلك عنِّفِ

وكقوله:

وعلى تفنّنِ واصفيه بحُسنِه		يفنى الزمانُ وفيه ما لم يوصَفِ

وكان يُردّد هذا البيت كثيراً وشرحه أكثر من مرة[139].

وكان يذكر أنّ أحد تلامذة ابن الفارض قال له: أتأذن لي أن أشرح التائية[140]؟

فقال: بكم مجلّد تشرحها؟

فقال التلميذ: بمجلدين.

فقال الأستاذ رضي الله عنه: إذا شرحتَ كل بيتٍ منها بمجلدين اشرحها!

---

[139] انظر شرحه لهذا البيت في فصل محبته للنبي صلى الله عليه وسلم.

[140] إحدى قصائد ابن الفارض، وله أيضاً القصيدة اليائية والقصيدة الرائية.

ومنهم: الإمام البوصيري (ت:695هـ) صاحب القصيدة المشهورة بالبردة الشريفة، فكانت البردة سلوى سيدي يحيى قد جعلها ديدنه وهجّيره، يتلذذ بقراءتها وترديدها، وأيضاً بكتابتها، فقد وجدت في كراسته مكتوبة بخطه، وقد كتب بعض فصولها أكثر من مرة.

ومنهم: الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الحاتمي رضي الله عنه، وهو في مقدمتهم وعلى رأسهم رحمهم الله جميعاً، ولشديد صلته الروحية به – كما هو حال أجداده – عقدتُ له فصلاً خاصاً.

ربّ ركبٍ قد أناخوا عندنا   يشربون الراح بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا   وكذلك الدهر حالاً بعد حال

الشيخ الأكبر والتلقي الفيضي

مرّ أنّ والد الشيخ يحيى كان – كأجداده – من محبي الشيخ الأكبر ملازماً لمسجده، ودفن بجواره، فلا شكً أنّ هذا كان له أثر كبير على ولده يحيى، فإنه سمع كثيراً من والده وشيوخه عن هذا الشيخ وعن علمه وولايته ورسوخه في التصوف، حتى لُقّب بسلطان العارفين، وبالشيخ الأكبر، واشتهر عند القوم – أهل التصوف – بأنه قطب زمانه، كما ذكر هو بنفسه، فالزائر لمقامه يلحظ على الجدار الأيمن للدرج النازل الموصل إلى المقام لوحة رخامية كُتب عليها من نظم ابن عربي:

فلكلّ عصرٍ واحدٌ يَسمو به وأنا لباقي العصرِ ذاك الواحدُ

وقال أيضاً:

فكل من قال بقولنا أو رام ضربنا فبشره في الدنيا وفي الآخرة يبشر

ومما قال أيضاً عن نفسه رضي الله عنه:

لنا دولةٌ في آخر العصرِ تَظهر ستظهر مثل الشمس لا تتستّر

وقد كان ذلك كما قال، فإنّ الشيخ الأكبر اشتهر بعد مماته وخاصة في العصور الأخيرة، أكثر بكثير من شهرته في حياته وزمنه، بل ربما لم يكن ذائع الصيت في عصره، رحمه الله ورضي عنه وأرضاه.

وقد كان لما نهله سيدي يحيى من شيوخه من توقير وتعظيم واعتراف بقطبانية الشيخ الأكبر، أثر كبير على محبته وتعلقه به، مع التسليم بأنه سلطان زمانه في العلم والتصوف والمعرفة الربانية، وخاصة من تتلمذه على الشيخ محمد أمين سويد، والشيخ محمد أمين الزملكاني، والشيخ البدر الذي كان من دعائه – أحياناً – إذا دعا لأحد أن يقول له: الله يفتح عليك كما فتح على الشيخ الأكبر[141].

وقبل أن أتكلم عن الارتباط الروحي لسيدي يحيى بالشيخ الأكبر الحاتمي، لابد من الوقوف على بعض ما قاله العلماء في العلم اللدني والتلقي الفيضي الروحي؛ حتى يكون القارئ على علم بما سيمرّ من أحوال الشيخ يحيى الروحية، وما أفاض الله عليه من لدنه من علوم ومعارف.

العلم اللدني والفيوضات الروحانية:

141 ولست متأكداً من صحة هذا النقل عن الشيخ البدر.

العلم اللدني هو العلم الذي يهبه الله تعالى لخاصة أحبابه وأوليائه بدون تحصيل منهم وهو مأخوذ من قوله تعالى في قصة موسى مع العبد الصالح: (وعلمناه من لدنّا علماً) [الكهف:65]، وهذا العلم الوهبي اللدني يقول به جمهور العلماء، ويستدلّون عليه بالإضافة للآية السابقة بقوله تعالى: (واتقوا الله ويعلمكم الله) [البقرة:282] – ونازع في صحة الاستشهاد بهذه الآية أقوام – وبقوله عز وجل: (يأَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا) [الأنفال:29]. ويستدلون أيضاً بالأحاديث الشريفة منها: ما روته السيدة عائشة –رضي الله عنها– عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه كان يقول: "قد كان يكون في الأمم قبلكم مُحدَّثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد، فإن عمر بن الخطاب منهم" قال ابن وهب: تفسير مُحَدَّثون: مُلهَمون[142]. وفي الأثر: "من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم"[143].

وهذا العلم اللدني قد يحصل بإلهام كما في الأثر السابق، وهو يكون إما من الله تعالى (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) [الشمس:8]، أو بإلقاء في النفس بواسطة أرواح رحمانية.

وقد يسأل سائل: ألا يحتمل أن يكون الإلقاء في النفس بواسطة أرواح شيطانية؟

والجواب: نعم يحتمل هذا! وكثيراً ما يحصل للمغترّين والمستدرَجين من أهل الأهواء الذين اتخذوا العلم والدين مطية لأغراضهم وأهوائهم، أما أولياء الله تعالى فهم محفوظون من لمّة الشيطان، لقوله تعالى: (إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان) [الإسراء:65]، ولقوله تعالى: (إنّ الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) [الأعراف:201]، فلم يبق إذن فيما يُلهَمون إلا الأرواح الرحمانية، وسيأتي قريباً ما يؤكد ذلك من السنة الشريفة.

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية (ت:728هـ) رحمه الله، أثناء كلامه عن الإلهام وكونه طريقاً للترجيح يقول: "القلب المعمور بالتقوى إذا رجّح بمجرد رأيه فهو ترجيح شرعي، فمتى ما وقع عنده وحصل في قلبه ما يظنّ معه أنّ هذا الأمر أو هذا الكلام أرضى لله ورسوله، كان هذا ترجيحاً بدليل شرعي، وعلماء أصول الحديث يقررون في كتبهم أنّ بعض علل الحديث – التي لا يعلمها إلا الجهابذة من المحدثين – للإلهام نصيب كبير في معرفتها وتقريرها، فقد روي عن عبد الرحمن بن مهدي (ت:198هـ) رحمه الله قوله: معرفة علم الحديث إلهام[144]. قال ابن نمير: وصدق.

---

[142] أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه. كما أخرجه البخاري وغيره.

[143] رواه أبو نعيم في الحلية عن أنس رضي الله عنه.

[144] معرفة علوم الحديث، أبي عبد الله الحاكم النيسابوري. ذكر النوع السابع والعشرين من علوم الحديث.

والذين أنكروا كون الإلهام ليس طريقاً إلى الحقائق مطلقاً أخطئوا، فإذا اجتهد العبد في طاعة الله وتقواه، كان ترجيحه لما رجّح أقوى من أدلة كثيرة ضعيفة، فإلهام مثل هذا دليل في حقه"[145].

وقد جاء في حديث حارثة رضي الله عنه قوله صلى الله عليه وسلم: "عرفت فالزم، عبد نوّر الله قلبَه"[146] دلّ هذا الحديث أنّ من عمل بما علم نوّر الله تعالى قلبه، ومن نوّر الله تعالى قلبه كوشف عن كثير من أحوال الغيب[147].

وعالم الأرواح عالم عجيب بما جعل الله فيه من قدرة وتأثير، فهو شيء من غير عالمنا الأرضي فلا تنطبق عليه قوانين علومنا الأرضية، وقد ذكر ابن القيم (ت:751هـ) رحمه الله في كتابه (الروح) أنّ للأرواح قوة وطاقة وقدرة لا يتصورها البشر، فيقول: فللروح المطلقة من أسْر البدن وعلائقه وعوائقه من التصرف والقوة والنفاذ والهمة وسرعة الصعود إلى الله والتعلق بالله ما ليس للروح المهينة المحبوسة في علائق البدن وعوائقه[148].اهـ

ويقول العلماء بالله: إنّ حياة الموتى عند الله أتمّ وأكمل من حياة الأحياء على الأرض، دلّ على ذلك عدة أمور، أهمها:

ما ورد في الصحاح من اجتماع أرواح الأنبياء بالنبي صلى الله عليه وسلم في ليلة الإسراء، وتخفيف الصلاة من خمسين إلى خمس[149].

ومنها: مخاطبته صلى الله عليه وسلم لقتلى بدر، حين اطلع على أهل القليب –البئر– فقال: "وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟" فقيل له: تدعو أمواتاً؟ فقال: "ما أنتم بأسمع منهم ولكن لا يُجيبون"[150]. وكانوا مشركين، فكيف بموتى المسلمين؟

وأما قوله تعالى: (وما أنت بمسمع من في القبور) [فاطر:22] فالمراد به الجسم من اللحم والعظم.

وأما الاستدلال للفيض والتلقي الروحي من المعقول فأترك ذلك لأهله من سادة أئمة هذا الفنّ: الإمام فخر الدين الرازي (606هـ) والعلامة سعد الدين التفتازاني (791هـ) رحمهما الله تعالى، وأنقله اعتماداً على نقل الشيخ محمد زاهد الكوثري في مقالته (محق التقوّل في مسألة التسول)

---

[145] مقدمات نهاية المطلب (327)، عبد العظيم محمود الديب، نقله عن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (20/42–47).

[146] البيهقي والطبراني وغيرهما.

[147] بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار، أبو بكر محمد بن أبي إسحاق الكلاباذي البخاري الحنفي (المتوفى:380هـ)

[148] الروح، ابن قيم الجوزية (102).

[149] انظر فصل أسلوبه في الوعظ وقوة حجته.

[150] أخرجه البخاري في المغازي، باب قتل أبي جهل. ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه. وأهل القليب هم قتلى المشركين يوم بدر، والقليب: البئر قبل أن تُبنى جوانبه.

فقد جاء فيها: قال الرازي في المطالب العالية بعد سرد الحجج: "فوجب القطع بأن النفْس بعد مفارقة البدن مُدركة للجزئيات، وهذا أصل شريف يُنتفع به في علم المعاد".

وقال الرازي في المطالب العالية أيضاً: "الفصل الثامن عشر في بيان كيفية الانتفاع بزيارة الموتى والقبور . .

المقدمة الأولى: أنّا قد دللنا على أنّ النفوس البشرية باقية بعد موت الأبدان، وتلك النفوس التي فارقت أبدانها أقوى من هذه النفوس المتعلقة بالأبدان من بعض الوجوه، وهذه النفوس أقوى من تلك من بعض الوجوه . . أما أنّ النفوس المفارقة أقوى من هذه النفوس من بعض الوجوه، فهو أنّ تلك النفوس لما فارقت أبدانَها فقد زال الغطاء وانكشف لها عالم الغيب وأسرار منازل الآخرة، وصارت العلوم التي كانت برهانية عند التعلق بالأبدان، ضرورية بعد مفارقة الأبدان، لأنّ النفوس في الأبدان كانت في عناء وغطاء، ولما زال البدن أشرقت تلك النفوس وتجلّت وتلالأت فحصل للنفوس المفارقة عن الأبدان بهذا الطريق نوع من الكمال، وأما أنّ النفوس المتعلقة بالأبدان أقوى من تلك النفوس المفارقة من وجه آخر، فلأن آلات الكسب والطلب باقية لهذه النفوس بواسطة الأفكار المتلاحقة، والأنظار المتتالية تستفيد كل يوم علماً جديداً. وهذه الحالة غير حاصلة للنفوس المفارقة.

المقدمة الثانية: أنّ تعلّق النفوس بأبدانها تعلّقُ العشق الشديد والحب التامّ، ولهذا السبب كان كل شيء تطلب تحصيله في الدنيا فإنما تطلبه لتتوصل به إلى إيصال الخير والراحة إلى هذا البدن، فإذا مات الإنسان وفارقت النفس هذا البدن، فذلك الميل يبقى وذلك العشق لا يزول، وتبقى تلك النفوس عظيمة الميل إلى ذلك البدن، عظيمة الانجذاب، على المذهب الذي نصرناه من أنّ النفوس الناطقة مدركة للجزئيات، وأنها تبقى موصوفة بهذا الإدراك بعد موتها.

إذا عرفت هذه المقدمات فنقول: إنّ الإنسان إذا ذهب إلى قبر إنسان قويّ النفس كامل الجوهر شديد التأثير، ووقف هناك ساعة وتأثرت نفسه من تلك التربة – وقد عرفت أنّ لنفس ذلك الميت تعلقاً بتلك التربة أيضاً – فحينئذ يحصل لنفس هذا الزائر الحي ولنفس ذلك الميت ملاقاة بسبب اجتماعهما على تلك التربة، فصارت هاتان النفسان شبيهتين بمرآتين صقيلتين وُضِعتا بحيث ينعكس الشعاع من كل واحدة منهما إلى الأخرى، فكل ما حصل في نفس هذا الزائر الحي من المعارف البرهانية والعلوم الكسبية والأخلاق الفاضلة من الخضوع لله والرضا بقضاء الله ينعكس منه نور إلى روح ذلك الميت، وكل ما حصل في نفس ذلك الإنسان الميت من العلوم المشرقة الكاملة فإنه ينعكس منه نور إلى روح هذا الزائر الحيّ، وبهذا الطريق تكون تلك الزيارة سبباً لحصول المنفعة الكبرى والبهجة العظمى لروح الزائر ولروح المزور، وهذا هو السبب الأصلي في شرعية الزيارة، ولا يبعد أن تحصُل فيها أسرار أخرى أدقّ وأغمض مما ذكرناه، وتمام العلم بحقائق الأشياء ليس إلا عند الله" اهـ.

وقال العلامة المحقق السعد التفتازاني في شرح المقاصد – وهو من أمهات كتب أصول الدين – في الصفحة (2/33) في الرد على الفلاسفة: "بل الظاهر من قواعد الإسلام أنه يكون للنفس بعد المفارقة إدراكات جزئية، واطلاع على بعض جزئيات أحوال الأحياء، سيما الذين كانوا بينهم وبين الميت تعارف في الدنيا، ولهذا يُنتفَع بزيارة القبور والاستعانة بمنفوس الأخيار من الأموات في استنزال الخيرات واستدفاع الملمّات، فإنه للنفس بعد المفارقة تعلقاً ما بالبدن وبالتربة التي دفن فيها، فإذا زار الحي تلك التربة وتوجهت نفسه تلقاء نفس الميت حصل بين النفسين ملاقاةٌ وإفاضات"اهـ.

هذا هو تحقيق هذا الإمام الجليل في المسألة، أفهذا أيضاً ممن لا يميّز بين التوحيد والإشراك؟ فتعساً لرأس يتخيّل ذلك! انتهى النقل من كلام الإمام الكوثري.

ومن هنا كان لبعض الخلّص والصفوة من أهل الله تعالى أحوال في التلقي بواسطة الفيض من عالم الروح، وهذا التلقي الروحي، ليس بمستغرب عليهم، بل ولا على بعض الطلبة المجتهدين في مجاهدة أنفسهم، الذين صفت قلوبهم فتجافت عن الدنيا ومحبتها وتعلّقت بالآخرة وهامت بمحبة الله، فإنّ أمثال هؤلاء الخواصّ من العارفين والمريدين يتلقون من شيوخهم الكمّل حتى وهم في عالم البرزخ.

ولقد صرح الإمام الغزالي رحمه الله بحصول مثل هذا لأهل الله فقال: فمن آمن بالأنبياء وصدّق بالرؤيا الصحيحة؛ لزمه لا محالة أن يقرّ بأن القلب له بابان: باب إلى خارج، وهو الحواس، وباب إلى الملكوت من داخل القلب، وهو باب الإلهام والنفث في الروع والوحي، فإذا أقرّ بهما جميعاً، لم يمكنه أن يحصر العلوم في التعلم ومباشرة الأسباب المألوفة، بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيلاً إليه، فهذا ما ينبه على حقيقة ما ذكرناه من عجيب تردد القلب بين عالم الشهادة وعالم الملكوت[151].

ويقول أيضاً: ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات، حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم، ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجة يضيق عنها نطاق النطق، ولا يحاول مُعبّر أن يعبّر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكن الاحتراز عنه[152].

ويقول في محلّ آخر: وأول ما يتمثّل له – أي للعارف المستغرق في محبة الله – من ذلك العالم: جواهر الملائكة، وأرواح الأنبياء والأولياء في صور جميلة، يفيض إليه بواسطتها بعض الحقائق، وذلك في البداية إلى أن تعلو درجته عن المثال، فيكافَح بصريح الحق في كل شيء[153].

---

151 إحياء علوم الدين (13/4)، الإمام الغزالي.

152 المنقذ من الضلال (131-132)، الإمام الغزالي.

153 الأربعين في أصول الدين (**87**)، الإمام الغزالي.

وهذا الذي يقوله الإمام الغزالي له شواهد وأدلة من القرآن الكريم والسنة الشريفة تضاف لما سبق.
فأما القرآن الكريم فقد ذكر تنزّل الملائكة على المؤمنين في غزوة بدر، كما ذكر تنزّل الملائكة على المؤمنين بالله المستقيمين على شرعه فقال: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا) [فصلت:30]. وفي تفسير ابن عجيبة: (تَتَنزَّلُ عليهم الملائكةُ) عند الموت وفي القبر وعند البعث، أو في الدنيا بإلهام الخير وشرح الصدر، وإعانتهم على الأمور الدينية، كما أنّ الكفرة تقويهم ما قُيض لهم من قرناء السوء. والأظهر: العموم. ثم قال: وقوله تعالى: (تتنزل عليهم الملائكة) أي: تمدهم بالاهتداء والأنوار، وتلهمهم العلوم والأسرار، في مقابلة تقييض الغافل بالقرناء الأشرار، فكما أنّ الغافل يُخذل بتسليط الغواة في الدارين، كذلك العارف يُمَد ويُنصَر من قِبل الملائكة في الدارين.اهـ
أما الألوسي (ت:1270هـ) فقال عند تفسيره لهذه الآية: (تتنزل عليهم) من الله ربهم عز وجل (الملائكة)، قال مجاهد والسدي: عند الموت، وقال مقاتل: عند البعث، وعن زيد بن أسلم عند الموت وفي القبر وعند البعث، وقيل: تتنزل عليهم يمدونهم فيما يعنّ ويطرأ لهم من الأمور الدينية والدنيوية بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام، كما أن الكفرة يغويهم ما قيض لهم من قرناء السوء بتزيين القبائح، قيل: وهذا هو الأظهر لما فيه من الإطلاق والعموم الشامل لتنزلهم في المواطن الثلاثة السابقة وغيرها، وقد قدمنا لك أن جمعاً من الناس يقولون: بتنزل الملائكة على المتقين في كثير من الأحايين، وأنهم يأخذون منهم ما يأخذون.اهـ
وأما من السنة الشريفة الصحيحة، فقوله صلى الله عليه وسلم لحنظلة وأبي بكر: "والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة" ثلاث مرات.[154]
ومن السنة أيضاً ما روي عن أبي هريرة: "فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم، أن لا يتفكروا في ملكوت السماوات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب"[155].
والمحدّثون – بفتح الدال – الذين منهم عمر رضي الله عنه كما في الحديث السابق في أول الفصل هم كما يقول الشيخ الأكبر صنفان: صنف يحدّثه الحق من خلف حجاب . . وصنف تحدّثهم الأرواح الملكية في قلوبهم، وأحياناً في آذانهم . . فالصنف الذي تحدّثه الأرواح؛ الطريق إليه بالرياضات النفسية والمجاهدات البدنية[156].
وهذا منقول عن كثير من العلماء المشهود لهم بالاستقامة وصدق التوجه، وقد كان شيخي الشيخ عبد الكريم الرفاعي يقول: إنّ الشيوخ العارفين ينتفع بهم طلابهم بعد موتهم أكثر مما كانوا

[154] أخرجه مسلم في التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر.
[155] مسند أحمد (328/17).
[156] الفتوحات المكية (375/11).

ينتفعون بهم وهم أحياء، لأنهم أصبحوا في عالم الملكوت وقد اطلعت أرواحهم على ما كانت محجوبة عنه بتحررها من قفص الأجساد.

ومن المؤكد اليقيني الذي لاشك فيه أنّ هذا ليس على عمومه بل هو خاص من بعض خلّص العارفين لبعض خواصّ الطلبة وفي أوقات وحالات خاصة.

ولهذا فإنّ الشيوخ العارفين إذا لمسوا في تلامذتهم ومريديهم النباهة والأهلية بعد التمكن من العلوم الشرعية، ووجدوا عندهم الاستعداد الكافي للترقي في الكمالات الروحية بسلوك طريق المجاهدات والرياضات، فإنهم يسلّكونهم ويأخذون بأيديهم للتمكن من علوم أهل الطريق وأحوالهم ومقاماتهم، وقد كان المحدث الأكبر البدر على مثل هذا الحال، يربي خواص مريديه على مثل ذلك، وكان يقول: لله خواص في الأزمنة والأمكنة والأشخاص.

وإذا لم تر الهلال فسلّم   لأناس رأوه بالأبصار

ارتباطه الروحي بالشيخ الأكبر:

إنّ من يقرأ تراجم مشايخ سيدي يحيى ويتعرّف على أحوالهم مع الله، يتيقن أنهم كانوا على حال من العلم والمعرفة الإلهية مما لم يكن إلا لفئة قليلة من الخواصّ على مرّ الزمن، ويتيقن أيضاً أنّ أحوالهم الروحية والسلوكية بلغت مرتبة عظيمة، وارتقت مدارج عالية، إضافة لما ذكرت قبلاً من علوّ كعبهم في العلم الكسبي والوهبي، واعتقادهم بالشيخ الأكبر وقطبانيته.

ولاشك أنّه كان لأحوالهم تلك أبلغ الأثر في توجه جدي للشيخ الأكبر، وولهه وتعلقه به، كرجل من أولياء الله العارفين، وعباده المقربين، لا كرجل فيلسوف يخوض في بحار الفلسفة فيناقش الفلاسفة الجهابذة ويردّ عليهم، معترضاً تارة وموافقاً تارة أخرى، أو يدلي بآراء فلسفية يتفرّد بها ويتبناها، بعد أن يبرهن على صحتها بإقامة الحجة، فقد كان الشيخ يحيى بعيداً كل البعد عن منهج ابن عربي في التصوف الفلسفي وعن غيره من المتصوفة الذين تكلموا في التصوف وخاضوا فيه كعلم مجرّد، ومارسوه كفلسفة وفكر، ولكنه في الوقت نفسه كان هائماً بابن عربي وبمنهجه الأخلاقي السلوكي العملي، من العبادة والمجاهدة والمحبة لله ورسوله حباً يتمثل على أرض الواقع تطبيقاً وعملاً، لا دعاوي مجردة ليس لها مثال على أرض الواقع الإنساني البشري.

لذا كان يتعاهد مرقده بالزيارة باستمرار، فلا يكاد يمرّ عليه يوم يخلو من هذه الزيارة، وفي أحيان كثيرة كانت تطول هذه الزيارة، حيث يجلس في المسجد أو في جوار قبر الشيخ الأكبر يخاطبه بصوت مرتفع يسمعه من حوله، ويكلمه حتى لتحسب أنّه يجلس معه وجهاً لوجه، وربما اعتقد بعض محبيه ومرافقيه أنّه يتلقى منه من عالم الروح.

وقد يسارع البعض في الإنكار الشديد لهذا، ولكن المنصف سيزول إنكاره إذا علم أنّ البخاري روى في صحيحه: أنّه لما مات الحسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم ضربت امرأته القبة على قبره سنة ثم رفعت، فسمعوا صائحاً يقول: ألا هل وجدوا ما فقدوا؟ فأجابه الآخر: بل يئسوا فانقلبوا[157].

والبخاري على الرغم من ذكره لهذه الرواية تعليقاً – أي لم يروها مسندة – ما ساقها في صحيحه، إلا لاعتقاده بإمكانية حدوثها، ولو لم يعتقد صحتها لما ذكرها لأنه اشترط أن لا يذكُر في كتابه إلا الصحيح.

وتبريداً لقلوب المنكرين أنقل أيضاً ما رُوي في أكثر من مصدر أنّه لمّا كان يوم الحرّة[158] لم يؤذَّن في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثاً، ولم يبرح التابعي الجليل سعيد بن المسيب (ت:94هـ) رحمه الله من المسجد، وكان لا يعرف وقت الصلاة إلا بهمهمة يسمعها من قبر الرسول صلى الله عليه وسلم[159].

ويُروى أنّ سعيد بن جبير لما دُفن تُليت على شفير القبر هذه الآيات: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:27–30]، ولم يَدْرِ أحد من تلاها[160].

بل إنّ الشيخ الأكبر نفسه روى عن نفسه: "ولقد كنت انقطعت في القبور مدة منفرداً بنفسي فبلغني أنّ شيخنا يوسف بن يخلف الكرمي قال: إنّ فلانًا – وسمّاني – ترك مجالسة الأحياء وراح يجالس الموتى، فبعثت إليه وقلت: لو جئتني لرأيت من أجالس، فصلى الضحى وأقبل إليَّ وحده ما معه أحد، فطلب علي فوجدني بين القبور قاعداً مطرقاً وأنا أتكلم على من حضرني من الأرواح، فجلس إلى جانبي بأدب قليلاً قليلاً، فنظرت إليه فرأيته قد تغير لونه وضاق نفَسه، وكان لا يقدر يرفع رأسه من الثقل الذي عليه، وأنا أنظر إليه وأتبسم، فلا يقدر أن يتبسم لما هو فيه من الكرب! فلما فرغت من الكلام وصدر الوارد خُفّف عن الشيخ واستراح وردّ وجهه إليَّ فقبّل بين عينيّ، فقلت له: يا أستاذ مَن يجالس الموتى أنا أو أنت؟! قال: لا والله بل أنا أجالس

---

[157] أخرجه البخاري في الجنائز، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور. وهو من معلقاته، وقد وصله الحافظ ابن حجر في تغليق التعليق (482/2). وامرأة الحسن المذكورة هي فاطمة بنت الإمام الحسين رضي الله عنه.

[158] يوم الحرّة هو يوم من أيام يزيد بن معاوية، دخل عسكره المدينة المنورة، ويقال أنه كانت لهم فيها أعمال مشينة، والله أعلم بصحة ذلك. والحرّة أرض بظاهر المدينة المنورة – شرّفها الله – بها حجارة سود، كانت الوقعة بها.

[159] مجمع الأحباب (149/2). وعند ابن سعد وغيره أنّ سعيداً كان يسمع أذاناً يخرج من القبر.

[160] المستدرك للحاكم (543/3) ومجمع الزوائد للهيثمي (285/9)

الموتى، والله لو تمادى عليّ الحال فطست. وانصرف وتركني، فكان يقول: من أراد أن يعتزل عن الناس فليعتزل مثل فلان"[161].

(بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه) [يونس:39] و(فسيقولون هذا إفك قديم)[الأحقاف:11].
ورحم الله الإمام البوصيري الذي قال:

قد تُنكرُ العينُ ضوء الشمس من رمد   ويُنكر الفمُ طعمَ الماء من سقَم

وقال الشاعر:

وكم عائبٍ ليلى ولم ير وجهَها   فقال له الحرمانُ: حسبُكَ ما فاتا

ولابدّ من ذكر أنّ خواصّ الشيخ ومعظمَ أولاده يعتقدون أنّ سيدي يحيى كان له نوع تلقّ من الشيخ الأكبر عن طريق الفيض من عالم الروح، وخاصة أنّه صرح به بنفسه قبل موته في أكثر من مجلس حيث قال: أريد أن أصارحكم بحقيقة وسرٍّ قبل موتي! ما تركني الشيخ الأكبر طرفة عين!! وإنّ سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ترك السيد المكي الكتاني طرفة عين!![162]

نُقل عنه هذا الكلام من أكثر من مصدر، واشتهر شهرة بالغة عند أحبابه.
وإنّ مما يؤكد هذه الصلة الروحية بين سيدي يحيى وغيره من أهل الله كالشيخ أحمد الحارون مع الشيخ الأكبر الحاتمي، ما تحدّث به كل من سمع درسه من العلماء فضلاً عن العامة، عن مدى حبه وتأثره بالشيخ الأكبر، مع اعتقاده بولايته وقطبانيته، ومداومته على قراءة كتاب الفتوحات المكية وتدريسه، حتى بلغ فهمُه له واستحضاره لعباراته، وشرحه لألفاظه وجمله، وغوصه في معانيه وغوامضه، شأواً بعيداً وأمراً عجيباً، حتى ليبدو وكأنه يحفظه كله عن ظهر قلب، رغم ما عُرف به هذا الكتاب من غموض وصعوبة كبيرة في حل ألفاظه وفك رموزه، واستعصائه على الفهم على كثير من أساطين العلم فضلاً عن عامتهم[163]، لقد كان يتكلم بكلام حق يذهل العقول ويأخذ بالنفوس، لم يُسبق إليه، ولم يوجد في الكتب، سواء أخاض في الفتوحات أم في تفسير كتاب الله تعالى، فما هي مصادره ومراجعه؟؟
ويؤكّد هذا التلقي والصلة الروحية أيضاً أنّ الشيخ أحمد الحارون مثلاً كان عنده من علوم الفلك والكيمياء والطب والعربية ما أذهل به أهلَ الاختصاص، رغم أنه لم يتتلمذ على شيخ، ولم يدرس

[161] الفتوحات المكية، باب (311).
[162] وهذا طبعاً ليس على ظاهره كما قد يفهم البعض، بل هو على معنى خاص عند أهله. انظر فصل الكلام في رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة. وانظر مقولة أبي العباس المرسي وغيره في فصل: حال الشيخ في عبادته وتضرعه.
[163] انظر فصل مجالس الشيخ ودروسه.

في جامعة!! وهذا شيء متواتر عنه ومعروف عند كل من زاره من العوام ومن الخواص ومن خواص الخواص.

ويؤكد هذا أيضاً ابن عجيبة في تفسيره إذ يقول: "كم من وليٍّ يكون أُمياً، وتجد عنده من العلوم والحِكَم والتوحيد ما لا يوجد عند نحارير العلماء، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً إلا علَّمه.

ولقد سمعت من شيخنا البوزيدي رضي الله عنه علوماً وأسراراً، ما رأيتها في كتاب، وكان يتكلم في تفسير آيات من كتاب الله على طريق أهل الإشارة، قلّ أن تجدها عند غيره، وسمعته يقول: والله ما جلست بين يدى عالم قط، ولا قرأت شيئاً من العلم الظاهر".

فبالله من أين أتى هؤلاء الموسومون بالولاية والمعرفة بهذه العلوم والمعارف؟؟

وليس يصحّ في الأذهان شيء   إذا احتاج النهار إلى دليل[164]

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه   فالقوم أعداء له وخصوم[165]

وقيل لابن المبارك: فلان يتكلم في أبي حنيفة فأنشد[166]

حسدوك أن رأوك فضّلك الله   بما فُضّلت به النجباء

"وبالجملة ظهور كرامات الأولياء يكاد يلحق بظهور معجزات الأنبياء، وإنكارها ليس بعجيب من أهل البدع والأهواء، إذ لم يشاهدوا ذلك من أنفسهم قطّ، ولم يسمعوا به من رؤسائهم الذين يزعمون أنهم على شيء مع اجتهادهم في أمور العبادات واجتناب السيئات، فوقعوا في أولياء الله تعالى أصحاب الكرامات؛ يمزقون أديمهم ويمضغون لحومهم، لا يسمونهم إلا باسم الجهلة المتصوفة، ولا يعدونهم إلا في عداد آحاد المبتدعة، قاعدين تحت المثل السائر "أوسعتهم سباً وأودوا بالإبل" ولم يعرفوا أنّ مبنى هذا الأمر على صفاء العقيدة ونقاء السريرة واقتفاء الطريقة واصطفاء الحقيقة"[167].

التلقي الفيضي ومخالفة الشرع:

وهنا لا بدّ من الوقوف وقفة أخرى على الكلام في الفيض والتلقي الروحي، وما قد يترتب عليه من ضلالات وخرافات إذا لم يُفهم على وجهه الصحيح، فقد يحلو لبعض الزائغين والمنحرفين ممن يلبسون لباس أهل العلم ويتشبهون بمظهر أهل الصلاح أنهم يتلقون عن إلهام من الله عز

[164] من شعر المتنبي.

[165] أبو الأسود الدؤلي.

[166] طبقات الشافعية الكبرى (11/2).

[167] سعد الدين التفتازاني، شرح المقاصد (2/150).

وجلّ، أو يتلقون عن النبي صلى الله عليه وسلم من خلال رؤى منامية، أو أنهم يتلقون عن أموات أو نحو ذلك ثمّ يأتوننا بفظائع وطامّات من المخالفات الشرعية، كردّ أحد مدّعي التصوف في أيامنا هذه على من عاتبه على تعاطيه الدخينة (السجائر) وأنّ فعله هذا مخالف لحال أهل التصوف المشهود لهم بالاستقامة، إذ ردّ هذا المفتون المنحرف بأنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم يقظة وأنه أذن له في ذلك!!! فما أقبحه من سخف وانحطاط! ويا عجباً منه من شذوذ وشرود[168]!! فيا ليته ادعى التقصير أو ادعى أنه لا يرى حرمة التدخين لعدم وضوح الدليل، ولم يدّع هذه الدعوى العريضة لكان أحسن لنفسه وأقوم لعقله وأسلم لدينه. ولو علم هذا المدّعي المفتون ما قاله أحد شيوخ الطائفة وهو أبو علي الدقاق (ت:405هـ) رحمه الله، "من أكل الحرام لم يفرّق بين الإلهام والوسواس"[169]. لما تجرّأ على هذا الكلام ولما هوى به شيطان هواه.

ومن أقوال ابن عربي: لاينال غاية رضاه إلا من خالف نفسه وهواه.

فما هو موقفنا من أمثال تلك الادعاءات الخطيرة والافتراءات الجريئة؟ وما هو ردّنا على مثيل هذه الأباطيل والخرافات؟

الجواب: أنّ العلماء العارفين الذين شهد الناس باستقامتهم، لم يصدر عنهم في حياتهم قول أو فعل أو تصرف بدعوى أنهم تلقوه من أموات، وكذلك لم يصدر عنهم ادعاء بأنهم أُلهِموا بشي يخالف الشرع، ولم يسمع الثقات ولم يبلغهم عن أحد من هؤلاء أهل الاستقامة ما يدل على أنّ أحداً من عالم البرزخ أو عالم الملائكة أوحى إليهم بهذا الأمر أو أشار عليهم بذلك الفعل، وكذلك لم نسمع ولم يبلغنا – لا من الثقات ولا من غيرهم – من نقل عن سيدي يحيى أو الشيخ أحمد الحارون أو غيرهما من العارفين أنه قال: تفسير الآية الفلانية أخبرني به ابن عربي، أو أنّ الأمر الفلاني آمركم به لأني تلقيته من شيخي فلان بالاتصال الروحي والفيضي، أو أنّ أحداً من الملائكة أو الجنّ أخبرني بذلك، بل كانت دعاويهم بالتلقي الروحي – إن وجدت – عامة، ولا ينبني عليها شيء، ولا يترتب عليها أكثر من العلم بأنّ هناك أحوالاً خاصة واتصالاً روحانياً بين العارفين والأولياء وخلّص مريديهم، رغم اختلاف العوالم، فإنه لا أحد ينكر أنّ لله خواصّ في الأزمنة والأمكنة والأشخاص.

ثمّ إنّ المنقول والمعروف عن أئمة هذا الشأن يقطع الطريق على كل من تسوّل له نفسه الجنوح عن جادة الحقّ والمجيء بالمبكيات من السقطات والمضحك من الزلات، فهذا الشيخ الرواس (ت:1287هـ) رحمه الله يقول في كتابه (بوارق الحقائق): "على أنّ الأئمة المجتهدين الذين دوّنوا لنا هذه المذاهب المباركة وقرروها هم أعلم من ذلك الولي بمدارك السنة خبراً، وإن حصل لذلك

[168] نقل ابن حجر عن الغزالي: "من زعم أن له مع الله حالاً أسقط عنه نحو الصلاة أو تحريم نحو شرب الخمر وجب قتله، وقتل مثله أفضل من قتل مئة كافر لأنّ ضرره أكثر". تحفة المحتج شرح المنهاج، كتاب الردة.

[169] معراج التصوف (42).

الولي الوقوف على مدارك السنة فهماً وإلهاماً، فإنّ فهمَه وإلهامَه لا يُعتبر، لا عنده ولا عند غيره إذا عارضه الخبر . . وأما قولهم: إنهم يستفتون من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو استفتاء زائد؛ لأنه عليه الصلاة والسلام ما قضى حتى بلّغ وترك الأمة على محجة بيضاء، فكيف يُستفتَى عن شيء بلّغه وأوضحه، واستودعه علماء الأمة"؟![170].

وهذا الشيخ الأكبر نفسه يقول: "من أراد أن لا يضل فلا يرْمِ ميزانَ ظاهر الشريعة من يده طرفة عين، ويعتمد ما عليه الأئمة المجتهدون ومقلدوهم ويرفض ما عداه".

ويقول: "الرحمة كلها في التسليم والتلقي من النبوة، والوقوف عند الكتاب والسنة"[171].

"فسلسلة الشرع المحمدي لا تنفكّ عن رقبة سالك ولا واصل، ولا عالم بالله ولا جاهل، فليحذر المؤمن المشفق على دينه من الزنادقة الملحدة، الذين يقولون إنهم وصلوا إلى عين الحقيقة، واستغنوا عن محمد صلى الله عليه وسلم أو عن العمل بشرعه"[172].

ويقول الشيخ محمد الحامد (ت:1389هـ) رحمه الله: "ولا عبرة بالفيض والمدد ما لم يكن مترسّماً بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه وأئمة السلوك، فإن لم يُحكِم هذا إحكاماً صحيحاً، كان مستدرَجاً ممكوراً به، والعياذ بالله"[173].

ثم إنّ حال سيدي يحيى وحال غيره من حيث السلوك وموافقة تصرفاته للشرع أو مخالفتها له، هي التي تحكم عليه وعلى غيره، وهي الفيصل في هذا، ولو ادعى هو أو غيره أنه يتلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رأينا سلوكه يخالف ما جاء به الشرع؛ لرمينا بدعواه عُرض الحائط، وأسقطناه من أن يكون أسوة أو قدوة في ذلك.

فمن قواعد التصوف – كما مرّ ذكره في فصل التصوف – أنّ كل شيخ لم يظهر بالسنة فلا يصح اتباعه لعدم تحقق حاله، وإن صح في نفسه، وظهر عليه ألف ألف كرامة من أمره[174].

ومن القواعد أيضاً أنّ مبنى العلم على البحث والتحقيق ومبنى الحال على التسليم والتصديق، فإذا تكلم العارف من حيث العلم نُظر في قوله بأصله من الكتاب والسنة وآثار السلف، لأنّ العلم معتبر بأصله، وإذا تكلم من حيث الحال سلّم له ذوقه، إذ لا يوصل إليه إلا بمثله، فهو معتبر بوجدانه. فالعلم به مستند لأمانة صاحبه، ثم لا يقتدى به لعدم حكمه إلا في حق مثله[175].

---

170 العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد(128)، عبد الحميد طهماز.

171 الفتوحات المكية (374/4).

172 المواقف الروحية والفيوضات السبّوحية، موقف (161).

173 العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد (152).

174 قواعد التصوف، قاعدة (216).

175 المصدر السابق، قاعدة (39).

والكلمة السائدة عند أهل السير إلى الله تعالى: لو رأيتم رجلاً أعطي من الكرامة حتى تربع في الهواء، ومشى على الماء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف وقوفه عند حدود الله عز وجل.

ثم إن حال سيدي يحيى عملاً وسلوكاً طيلة حياته المديدة ليؤكد أنّه على نهج النبوة والرسالة، وعلى المنهج الصحيح القويم الذي جاء به الشرع، وما عرف عنه بفضل الله ما يقدح في ذلك أبداً، بل كل سيرته وحياته والحمد لله تدل على أنه زاهد رباني وعالم عارف من طراز رفيع، مع عدم ادعاء عصمته أو عصمة أحد من البشر غير الأنبياء.

ذكر الأمير المجاهد العارف عبد القادر الجزائري (ت:1300هـ)، رحمه الله: "طلبت من الحق تعالى أن يجعل لي نوراً أكشف به، حتى أعرف ما آتي وما أذر. فقال لي في الحين: ها هو ذا في الكتاب والسنة. فانتبهت حينئذ لقوله تعالى: (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) [المائدة:15-16]. فعرفت أنه لا نور يرغب فيه الراغبون مثل الاستقامة على الكتاب والسنة، لأنه تعالى ضمن النجاة في العمل بهما، وما ضمنهما في العمل بالكشف، ولذا قال أستاذنا أبو الحسن الشاذلي (ت:656هـ): إنه يرد عليّ الوارد؛ فلا أقبله إلا بشاهدين عدلين، وهما الكتاب والسنة. وإنّ طوق الشريعة لا يزول عن رقبة عارف ولا مكاشف مادام بدار التكليف"[176].

وقال الأمير المجاهد أيضاً: "أمر تعالى أن لا يُصدّق كل مدّعٍ، ولا يُتّبع كل ناعق، ولكن يُنظَر إلى وجود أثر الرحمة وعدمه، فتُصدّق الدعوى أو تُكذّب. فمن ادعى أنّ الحق تعالى اختصه برحمة من عنده، وجعله من أهل حضرته؛ يُنظر في دعواه، فإن ظهر عليه أثر الرحمة وهو أدرار العلوم الربانية الوهبية والأسرار العرفانية الغيبية . . فذلك الصادق في دعواه . . ومن لم يظهر عليه أثر الرحمة الاختصاصية، وكان بعد دعوى رحمةِ الحق تعالى إياه كما هو قبلها؛ فهو مفترٍ كذّاب"[177].

ومن أقواله أيضاً: "وكل شيء يمنحه الله تعالى أولياءَه يجوز أن يكون باطنه شراً واستدراجاً ومكراً، كالأحوال والمقامات والمكاشفات وخوارق العادات، إلا العلم! فإنّه أفضل ما منح الله به أولياءه؛ إذ لا يمكن أن يكون حبالة للمكر والاستدراج، أعني: علم العلماء بالله تعالى، لأنّه يُشهِدك إمكانك وافتقارك في كل نفَس إلى الله تعالى، وذليّتك وعبوديتك"[178].

فانظر أيها المؤمن قيمة العلم وفضلَه إذا رافقه الاستقامةُ والتواضع والإخلاص والعبودية، فتمسّك بذلك كله وعضّ عليه بالنواجذ، واجعله أكبر همّك وكلّ شغلك في سفرك وحلّك، وإياك والتعلّقَ

---

[176] المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، الموقف (20).

[177] المصدر السابق، الموقف (143).

[178] المصدر السابق، موقف (211).

بالأوهام الباطلة والخيالات الفاسدة، واحذر الجريَ وراء السراب، ولا تَخبط خبط عشواء ولا تُمارِ بعد ما تبيّن ثور من حِراء.

وأظنّ أنّ فيما ذكرته ونقلته من كلام أهل التصوف أنفسِهم كفاية لسدّ الطريق على كلّ من تسوّل له التلاعبَ بالشريعة وتغريرَ العامة بدعوى التلقي الروحي أو بالمنام أو بالإلهام ونحو ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وفي ختام هذا البحث أرى لزاماً عليّ بعد كل ما ذكرت أن أعرّج باختصار فأذكر شيئاً مما تعرّض له الشيخ الأكبر ابن عربي الحاتمي من تكفير ورمي بالزندقة، ممن أخذ كلامه على ظاهره، ولأبيّن تحقيق المقال فيه، فإلى نبذة من ذلك.

الشيخ الأكبر وتحقيق المقال فيه

هو أبو بكر، محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي، الطائي، المرسي، الأندلسي، المشهور بمحيي الدين بن العربي.

واصطلح أهل المشرق على ذكره بابن عربي، بغير ألف ولام، فرقا بينه وبين القاضي أبي بكر بن العربي.

ويصل نسب ابن العربي إلى عبد الله بن حاتم الطائي؛ أخي الصحابي عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه.

ولد ابن العربي في شهر رمضان من سنة (560هـ)، في مدينة مرسية في شرق الأندلس، ونشأ في سعة من العيش، فقد كان أبوه علي بن محمد من خواص السلطان بإشبيلية، وكان منذ نشأته محبا لأهل العلم، والصالحين من عباد الله.

رحل إلى بلاد عديدة ومنها مكة المكرمة وفيها بدأ بتدوين كتابه الفتوحات المكية الذي استغرق تدوينه سبعة وثلاثين عامًا. ثم رحل إلى دمشق ودخلها سنة (629هـ)، وأقام بها إلى آخر حياته.

أخذ ابن عربي عن عدد كبير من علماء عصره، ذكرهم في كتابه الفتوحات المكية، وذكر عدداً منهم في إجازته للملك المظفر.

مصنفاته ووفاته:

مؤلفاته كثيرة، وقد فهرسها بنفسه قبل موته بست سنوات، وقد جاء في نفح الطيب(177/2) بأن صاحب الترجمة قد أجاز الملك المعظم أن يروي عنه مصنفاته، ومن جملتها كذا وكذا .. حتى عدّ نيّفا وأربع مئة مصنف. ومن أشهرها الفتوحات المكية.

توفي في دمشق؛ ليلة الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر؛ سنة(638هـ)، ودفن بسفح قاسيون، وقبره مشهور، وبجانبه ولداه: عماد الدين وسعد الدين، رحمهم الله تعالى جميعاً.

حال ابن العربي:

اختلف الناس في ابن العربي اختلافاً شديداً، وذهبوا فيه مذاهب متباينة، وذلك بسبب ما جاء في بعض كتبه، وخاصة كتاب فصوص الحكم من كلام كثير ظاهره القول بالحلول أو الاتحاد.

فذهب قوم إلى الطعن فيه ووصمه بالكفر والزندقة.

وقد كان الإمام المجتهد شيخ الإسلام العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى (ت:660هـ) يُنكر على الشيخ ابن العربي في أول أمره، فلما عرف مقامه شهد له ورجع عن إنكاره، وقرّر أنّ الإمام محيي الدين قطب زمانه.

وذهب آخرون إلى اعتقاد ولايته وعلوّ مقامه، وذهب هؤلاء في الكلام الوارد في كتبه مذهب التأويل.

قال السيوطي (ت:911هـ) رحمه الله تعالى: "والقول الفصل عندي فيه ... اعتقاد ولايته وتحريم النظر في كتبه، فقد نقل عنه أنه قال: نحن قوم يحرم النظر في كتبنا. وذلك لأن الصوفية تواضعوا على ألفاظ اصطلحوا عليها وأرادوا بها معان غير المعاني المتعارفة منها، فمن حمل ألفاظهم على معانيها المتعارفة بين أهل العلم الظاهر كفر، نصّ على ذلك الغزالي في بعض كتبه، وقال: إنه شبيه بالمتشابه من القرآن والسنة"[179]. أي: من حمله على ظاهره كفر.

كما نافح عنه كثير ممن ترجم له؛ كالعلامة الشيخ محمد عبد الرؤوف المناوي (ت:1031هـ) الذي يقول فيه: "والذي أعتقده ولا يصحّ غيره: أنّ الإمام ابن عربي وليٌّ صالح، وعالم ناصح، وإنما فوَّق إليه سهام الملامة، من لم يفهم كلامه، على أنه دُسَّتْ في كتبه مقالاتٌ قدرُه يجلّ عنها".

وقد أثنى عليه الفيروزآبادي (ت:817هـ) فكتب رداً على سؤال فيه: "الذي أعتقده وأدين الله به: أنه كان شيخ الطريقة حالاً وعلماً، وإمام الحقيقة حقيقة ورسماً، ومحيي رسوم المعارف فعلاً واسماً:

إذا تغلغل فكر المرء في طرف   من علمه غرقت فيه خواطره

عُباب لا تكدّره الدلاء، وسحاب تتقاصى عنه الأنواء، كانت دعوته تخرق السبع الطباق، وتفرّق بركاته فتملأ الآفاق، وإني أصفه وهو يقيناً فوق ما وصفته، وناطق بما كتبته وغالب ظني أني ما أنصفته"[180].

وذهب قوم آخرون إلى التوقف في شأن ابن العربي، وإمام هذه الطائفة الإمام النووي (ت:676هـ) رحمه الله تعالى، فإنه استفتي فيه فكتب: (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) [البقرة:134].

وتبعه على ذلك كثيرون سالكين سبيل السلامة.

وذكر الشيخ زروق في القاعدة(85) من كتابه قواعد التصوف: "وقد سئل شيخنا أبو عبد الله القوري (ت:872هـ) –وأنا أسمع– فقيل له: ما تقول في ابن عربي الحاتمي؟

---

[179] حاشية ابن عابدين على الدر المختار، باب المرتد.

[180] المصدر السابق، باب المرتد.

فقال: أعرف بكل فنّ من أهل كلّ فنّ.

قيل له: ما سألناك عن هذا؟!!.

قال: اختلف فيه من الكفر إلى القطبانية.

قيل له: فما ترجّح؟ قال: التسليم.

قلت (زرّوق): لأنّ في التكفير خطراً، وتعظيمه –أي ابن عربي– ربما عاد على صاحبه بالضرر من جهة اتباع السامع لمبهماته وموهماته".

هذا؛ وقد كادت كلمات المترجمين لابن العربي –سواء من يحسن الظن ومن لا يحسن الظن به– تُجمع على وصفه بشدة الذكاء وسعة العلم وتمكّنه في المعرفة.

قال الحافظ الذهبي (ت:748هـ) في تاريخ الإسلام: ولابن عربي توسع في الكلام، وذكاء، وقوة حافظة، وتواليف جمة في العرفان، ولولا شطحات في كلامه وشعره لكان كلمة إجماع، ولعل ذلك وقع منه في حال سكره وغيبته فنرجو له الخير.

تحقيق المقال فيه:

أولا: إن إطلاق اللسان بالطعن في إنسان ورميه بالكفر أو الزندقة مع وجود شبهة في إسلامه، وإمكان براءته أمر خطير يجب على المسلم ألا يقدم عليه، وخاصة فيمن مات، ولا مصلحة في الطعن فيه.

ثانياً: إن فكرة الحلول أو الاتحاد أو وحدة الوجود التي تفهم من ظاهر بعض نصوص وردت في كتب ابن العربي، والتي بسببها أطلقت الألسنة في الطعن به ورميه بالكفر والزندقة . . أقول: إن هذه الفكرة أو هذه العقيدة لا تجوز نسبتها لابن العربي، ويجب تبرئته منها، وذلك للأسباب التالية:

1 – تبرؤ ابن العربي من هذه العقيدة –وحدة الوجود– من خلال عقيدته التي نصّ عليها في كتابه الفتوحات المكية –هي عقيدة سليمة موافقة لاعتقاد أهل السنة والجماعة– كما نص على تبرّئه من هذه العقيدة وهاجم القائل بها في عدة مواضع من الكتاب.

2 – قال الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء : "ولا ريب أن كثيراً من عباراته –يعني ابن العربي– له تأويل إلا كتاب فصوص الحكم"ا.هـ

وقد ذهب عدد من المحققين إلى أن كتاب فصوص الحكم لا تصح نسبته إلى ابن العربي، كما سيأتي بيان ذلك.

3 – ذكر عدد من المحققين ومن أهل العلم أن كتب ابن العربي قد تعرضت للدسِّ والتزوير.

وفيما يلي تفصيل القول في هذه الأمور الثلاثة:

أولاً : التحقيق في عدم صحة نسبة كتاب (فصوص الحكم) لابن العربي:

ذكر الباحث الأستاذ محمود الغراب في مقدمة كتابه (شرح فصوص الحكم من كلام الشيخ الأكبر) الأدلة على عدم صحة نسبة كتاب (الفصوص) لابن العربي، ثم بين خلال عرضه للكتاب الكثير من النقاط التي تخالف أقوال ابن العربي في الكتب الأخرى التي صحت نسبتها له.

وألخص الأدلة التي أشار إليها في مقدمته بما يلي:

1- حتى تاريخه لم تظهر نسخة لكتاب فصوص الحكم بخط يد الشيخ الأكبر محي الدين بن العربي. وعلى فرض صحة وجود كتاب للشيخ بهذا الاسم فليس هو الكتاب المطبوع والمتداول في المكتبات.

2- يزعم أنصار نسبة الفصوص للشيخ الأكبر أنه آخر كتاب للشيخ وأنه يعود لتاريخ (627هـ) فإذا صحت الإشارة الواردة في كتاب الديوان عن الفصوص فهي تدل على أن الديوان كتب بعد الفصوص وهذا مغاير لزعمهم.

ثم إنه من الثابت لدى الدارسين أن الشيخ الأكبر استمر في كتابة الفتوحات المكية حتى عام (635هـ) ولم يذكر كتاب الفصوص لا في الفتوحات ولا في أي من الكتب التي هي بخط يده مع أنه رضي الله عنه أكثر من ذكر العديد من مؤلفاته.

3- إن نسخة الفصوص المنسوبة إلى الصدر القونوي والتي عليها سماع واحد لم يذكر فيه من أي فصل أو فقرة تم هذا السماع، ولا أين جرى ذلك، ولا من هم الحضور الذين حضروا هذا السماع على غير المألوف في ذلك، إضافة إلى أنه تمت كتابته على غلاف الكتاب ونسب فيه أن القارىء كان صدر الدين القونوي والمسمع الشيخ الأكبر رضي الله عنه عام (630هـ)، وهذا التدوين لا يعتد به لكونه كتب على الغلاف وغير محدد ولا يوجد سامعين مع كثرة السامعين المدونة أسماؤهم في الفتوحات مثلاً من نساء ورجال، ومن المعلوم أن الشيخ كان في هذه الفترة في دمشق.

4- إن الصدر القونوي لم يأت الشيخ على ذكر اسمه في أي من مؤلفاته المكتوبة بخط يده بينما ورد لغيره مثل بدر الحبشي واسماعيل بن سودكين ، كما أن الصدر لم يحضر السماعات المدونة على كتاب الفتوحات المكية التي هي بخط يد الشيخ الأكبر وعددها /57/ سماعاً عام (633هـ) جرت في دمشق. وقد ورد أنه كان كاتباً في السماعين (12،13) عام (634هـ). وإنّ الشيخ الأكبر استمر في إسماع فقرات من الفتوحات المكية منذ عام (633- 637هـ).

5- تم تسجيل /14/ سماعاً على نسخة الفتوحات التي بخط يد الشيخ بعد وفاة الشيخ بين عامي: (639-640هـ) في مدينة حلب وكان المسمع فيهما إما إسماعيل بن سودكين أو الصدر

القونوي. ولم يدون الصدر القونوي أي مخالفة لمذهب الشيخ مقارنة مع ما هو موجود في الفصوص المنسوبة إليه!!! .

6- إنّ الإجازة المنسوبة للشيخ أنه أجاز فيها الملك أبا بكر بن أيوب والتي تاريخها (632هـ) والتي جاء فيها ذكر اسم كتاب الفصوص عندما يتم مقارنتها مع الفهرس المنسوب للشيخ الأكبر ومع الفترة التي ثبت أن الشيخ كان لا يزال يكتب فيها الفتوحات المكية يتبين مدى هشاشة هذا التزوير.

7- إن كتاب الفصوص كتب بأسلوب مغاير لما هو معهود عن الشيخ الأكبر في قوة العبارة ورفعة الأسلوب وهذا الأمر يلمسه كل من له إلمام بسيط في قراءة كتب الشيخ.

8 - إن فصوص الحكم يحتوي على الكثير من المخالفات والعبارات التي تناقض تماماً مذهب الشيخ الأكبر ولا يوجد وجه جامع يجمع بين هذه التناقضات.

9- إن الشواهد التي وردت في كتاب الفصوص للاستدلال بها في بعض المسائل الواردة فيه، ضعيفة وغير واضحة مقارنة بها مع ما نجده لنفس المسائل في كتب الشيخ الأخرى كالفتوحات وغيرها.

10- من الفقرات التي لا يخفى على أي قارئ معرفة خطئها هو قوله في الفصوص إن سيدنا إلياس هو سيدنا إدريس عليهما السلام، وكذلك كلامه في قصة سيدنا جبريل مع السيدة مريم في مسألة خلق سيدنا عيسى عليهم السلام.

وغير ذلك من المسائل التي أوردها الأستاذ الباحث محمود الغراب على صفحات كتابه متناولاً المواضيع التي هي ثابتة للشيخ، إضافة للنقاط التي فيها خلاف مع مذهب الشيخ الأكبر والتي تجاوزت العشرات.

ثانياً: الدسّ في مؤلفات الشيخ محيي الدين بن العربي:

ذكر عدد من المحققين أن كتب الشيخ ابن العربي قد تعرضت للدسّ والتزوير.

منها ما ذكره في (الدر المختار) من كتب الفقه الحنفي حيث قال: عن (فصوص الحكم) : "لكنّا تيقنا أن بعض اليهود افتراها على الشيخ (ابن عربي الحاتمي) قدّس الله سرّه"[181].

[181] حاشية ابن عابدين، باب المرتد. وقد كان الدسّ شائعاً من قبل الحساد وأصحاب الأغراض، وحصل لكثير من الأئمة والأفاضل. فقد جاء في (الرفع والتكميل) لعبد الحي اللكنوي: قال الشعراني في اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الاكابر (جامع العلوم في اصطلاحات الفنون) للقاضي نكري:

قد دسّ الزنادقة تحت وسادة الامام أحمد بن حنبل عقائد زائفة ولولا أن اصحابه يعلمون منه صحة الاعتقاد لافتتنوا لما وجدوا.

ومما يدل على تعرض فتوحات ابن عربي للدس؛ ما ذكره الشعراني (ت:973هـ) في اختصاره للفتوحات، قال: "وقد توقفت حال الاختصار في مواضع كثيرة منه لم يظهر لي موافقتها لما عليه أهل السنة والجماعة فحذفتها من هذا المختصر، وربما سهوت فتتبعت ما في الكتاب كما وقع للبيضاوي مع الزمخشري، ثم لم أزل كذلك أظن المواضع التي حذفت ثابتة عن الشيخ محي الدين حتى قدم علينا الأخ العالم الشريف شمس الدين أبو الطيب المدني (ت:955هـ) فذاكرته في ذلك فأخرج إليّ نسخة من الفتوحات التي قابلها على النسخة التي عليها خط الشيخ محي الدين نفسه بقونية، فلم أر فيها شيئاً مما توقفت فيه وحذفته، فعلمت أن النسخ التي في مصر الآن كلها كتبت من النسخة التي دسّوا فيها على الشيخ".

ويذكر البعض أن هذه الإضافات إنما هي محاولات من البعض لشرح مغاليق كتب الشيخ وإشكالاتها؛ فأضاعوا المعنى من حيث لا يشعرون، ويظهر هذا واضحاً في تغيير الأسلوب فجأة من أسلوب الشيخ المشهود له بالتقدم والروعة إلى أسلوب تقريري عادي خصوصاً في الفتوحات.

ثالثاً: عقيدة ابن العربي من كلامه:

قال ابن العربي في الفتوحات المكية(1/ 36):

. . فيا إخواني ويا أحبابي رضي الله عنكم، أَشهدكم عبد ضعيف مسكين فقير إلى الله تعالى في كل لحظة وطرفة، وهو مؤلف هذا الكتاب (الفتوحات المكية) ومنشؤه، أشهدكم على نفسه بعد أن أشهد الله تعالى وملائكته ومن حضره من المؤمنين وسمعه، أنه يشهد قولاً وعقداً:

أن الله تعالى إله واحد لا ثاني له في ألوهيته، منزه عن الصاحبة والولد، مالك لا شريك له، ملك لا وزير له، صانع لا مدبر معه، موجود بذاته من غير افتقار إلى موجد يوجده، بل كل موجود سواه مفتقر إليه تعالى في وجوده، فالعالم كله موجود به، وهو وحده متصف بالوجود لنفسه، لا افتتاح لوجوده، ولانهاية لبقائه، بل وجوده مطلق غير مقيد، قائم بنفسه، ليس بجوهر متحيز فيقدر له المكان، ولا بعرض فيستحيل عليه البقاء، ولا بجسم فتكون له الجهة و التلقاء، مقدس عن

وكذلك دسّوا على شيخ الإسلام مجد الدين الفيروز آبادي صاحب (القاموس) كتاباً في الرد على أبي حنيفة وتكفيره ودفعوه الى ابن الخياط اليمني، فأرسل يلوم الشيخ مجد الدين على ذلك! فكتب إليه إن كان هذا الكتاب بكفك فأحرقه فإنه افتراء من الأعداء! وإنا من أعظم المعتقدين في الإمام أبي حنيفة وذكرت مناقبه في مجلد.

وكذلك دسّوا على الإمام الغزالي في (الإحياء) عدة مسائل، وظفر القاضي عياض بنسخة من تلك النسخ فأمر بإحراقها.

وكذلك دسّوا على الشيخ محي الدين عدة مسائل في الفتوحات وقفت عليها وتوقفت، فذكرت ذلك للشيخ أبي الطاهر المغربي نزيل مكة المشرفة فأخرج إلي نسخة من الفتوحات التي قابلها على نسخة الشيخ التي بخطه في مدينة قونية فلم أر فيها شيئاً مما كنت توقفت فيه وحذفته حين اختصرت الفتوحات.

وكذلك دسّوا عليّ في كتابي المسمى (بالبحر المورود) جملة من العقائد الزائغة وأشاعوها في مصر ومكة ثلاث سنين وأنا بريء منها. انتهى من (الرفع والتكميل).

الجهات والأقطار، مرئي بالقلوب والأبصار إذا شاء، استوى على عرشه كما قاله، وعلى المعنى الذي أراده، كما أن العرش وما سواه به استوى، وله الآخرة والأولى، ليس له مثل معقول، ولا دلت عليه العقول، لا يحده زمان، ولا يقلّه مكان، بل كان ولا مكان، وهو على ما عليه كان، خلق المتمكن والمكان، وأنشأ الزمان، وقال: أنا الواحد الحي، لا يؤوده حفظ المخلوقات، ولا ترجع إليه صفة لم يكن عليها من صنعة المصنوعات، تعالى أن تحله الحوادث أو يحلها، أو تكون بعده أو يكون قبلها، بل يقال: كان ولا شيء معه، فإن القبل والبعد من صيغ الزمان الذي أبدعه، فهو القيوم الذي لا ينام، والقهار الذي لا يرام، ليس كمثله شيء، خلق العرش وجعله حد الاستواء، وأنشأ الكرسي وأوسعه الأرض والسموات العلى، اخترع اللوح والقلم الأعلى، وأجراه كاتباً بعلمه في خلقه إلى يوم الفصل والقضاء، أبدع العالم كله على غير مثال سبق، وخلق الخلق وأخلق الذي خلق، أنزل الأرواح في الأشباح أمناء، وجعل هذه الأشباح المنزلة إليها الأرواح في الأرض خلفاء، وسخر لنا ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، فلا تتحرك ذرة إلا إليه وعنه، خلق الكل من غير حاجة إليه، ولا موجب أوجب ذلك عليه، لكن علمه سبق بأن يخلق ما خلق، فهو الأول والآخر ، والظاهر والباطن، وهو على كل شيء قدير، أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، يعلم السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، كيف لا يعلم شيئاً هو خلقه؟ (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)[الملك:14] .....إلى آخر ما قال.

فهذه هي عقيدة ابن العربي التي أشهدنا عليها بعد إشهاد الله تعالى، والتي ينبغي أن نحكم عليه من خلالها، وانظر كيف يتبرأ من عقيدة الحلول والاتحاد بقوله: تعالى أن تحلّه الحوادث أو يحلّها[182].

[182] أعد الترجمة الشيخ المقرئ عماد النابلسي لموقع صدى زيد الالكتروني، ومنه نقلتها مع بعض التصرف. ومراجع هذه الترجمة هي:

سير أعلام النبلاء، وتاريخ الإسلام، كلاهما للحافظ الذهبي. لسان الميزان، للحافظ ابن حجر. شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي. طبقات الصوفية، للحافظ المناوي. البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير. الأعلام، للزركلي. قواعد التصوف، لزروق. محي الدين بن العربي، ترجمة حياته من كلامه، للأستاذ محمود الغراب.

وحدة الوجود ووحدة الشهود والاتحاد والحلول

إذا كانت هذه هي عقيدة ابن عربي –كما صرح عنها هو بنفسه– نقية صافية، لا حلول ولا اتحاد، ولا تجسيم ولا تعطيل، فما هي حقيقة وحدة الوجود التي أشار إليها كثيراً في كتبه وخاصة الفتوحات، والتي نسب القول بها إلى كثير من أكابر القوم، وما هو معناها على التحقيق؟ مع أنه معلوم عند أدنى طالب علم أن الحق جل وعلا قديم لا أول لوجوده، باق لا نهاية لوجوده، لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم، ولا قبله شيء وليس بعده شيء، فهو الأول والآخر، وهو الظاهر والباطن، وهو في رتبة الألوهية متفرد، وجميع الأكوان محدثة في رتبة الحدوث، وشتان بين الرتبتين!! ومحال أن يتصل أحدهما بالآخر ويتحد أو يحلّ، فالاتصال والانفصال من لوازم الحدوث، فالحق تعالى مباين للعالم، لا متصل ولا منفصل، ولا داخله ولا خارجه لأن ذلك صفة المتقيد بالمكان، وسبحانه تنزّه عن ذلك وتعالى علّواً كبيراً، فهو خالق الأمكنة والأكوان، وهو على ما عليه كان في غير مكان قبل خلق الأمكنة والأكوان.

ورداً على هذا التساؤل المشروع، أجاب أهل المعرفة بكلام القوم وأحوالهم فقالوا: إنّه يحصل للسالكين في مقام الفناء بعض التباس، فيتوهم السالك إلى الله تعالى الاتصال بالجناب العالي –جل جلاله– حتى يظن السالك أنه عين الحق، فينطق بما يفهم منه الاتحاد بالخالق أو حلول الخالق بالمخلوق –والعياذ بالله– أو يظن معه بما يعرف بوحدة الوجود، وهذه مزلة قدم، زلت فيها أقدام بعض السالكين غير المتمكنين، أعاذنا الله والمسلمين من ذلك.

ما المقصود بالاتحاد ووحدة الوجود؟

يؤخذ من كلام أهل التصوف أنّ الاتحاد نوعان:

الأول: اتحاد الخالق بالمخلوق حتى يصير المخلوق عين الحق، **وهو كفر** أعاذنا الله والمسلمين منه.

الثاني: وهو توحيد صرف، وهو غيبة العارف عن شهود السوى واستغراقه بشهود المولى فقط، مع علمه بأن المخلوقات موجودة في الخارج، وإنما غابت في تلك الحالة عن نظره وعزبت عن فكره، فهو يرى صنع الخالق وعظمته في كل ما يراه، وهو ما يسمى بوحدة الشهود.

وأما عقيدة وحدة الوجود فهي اعتقاد أنّ هذا الوجود وما فيه من المخلوقات عينُ الحق، وأنه لا خلق أصلاً، وأن كل شيء في الوجود هو الإله، وأنّ عين هذا الوجود الحادث هي عين الله من الجماد والنبات والعقارب والحيات والجان والإنسان والملك والشيطان، ويجعلون الخالق هو عين

المخلوق من خسيس ونفيس ومرحوم وملعون، وهذا كلام لا يرضاه أهل الجنون ولا من كان في حبه مجنون، وهذا **اعتقاد خبيث أجمعت الأمة كلها على كفر أهله ومنتحليه.**

يقول أهل المعرفة بالله تعالى أنّ مقامات التوحيد أربع:

المقام الأول: أن يقول الإنسان لا إله إلا الله بلسانه، وأما قلبه فغافل عنه أو منكر له، وذلك كتوحيد المنافقين.

المقام الثاني: أن يصدّق بمعنى اللفظ قلبه كما صدّق به عموم المؤمنين، وهو اعتقاد العوامّ.

المقام الثالث: أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق، وهو مقام المقربين، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار.

والمقام الرابع: مقام الفناء، وهو أن لا يرى في الوجود إلا واحداً، وهي مشاهدة الصديقين، وتسميه الصوفية الفناء في التوحيد.

وهذا المقام ترد فيه إشكالات عند البعض حتى يصلوا للتشكيك بعقيدة أكابر القوم كابن العربي والجنيد والجيلاني وغيرهم، بأنهم يقولون بوحدة الوجود أو بالاتحاد والحلول، وهم بريئون من ذلك كبراءة الذئب من دم يوسف، فلابد من توضيح هذه الإشكالات.

إنّ الفناء الذي يشير إليه العارفون هو أن العالَم يغيب في نظر العارف كالقلم في يد الكاتب، فلا ينظر الإنسان إلى القلم وإنما ينظر إلى الكاتب الذي بيده القلم، ولا يكون القلم معدوماً ولا اتحد بالإنسان، وإنما حصلت الغيبة عنه لكونه معزولاً عن الفعل الحاصل بواسطته، وإنما الفعل للإنسان، فهكذا العالَم (بفتح اللام) لم تكن التدبيرات والحركات والسكنات له استقلالاً وإنما هي مخلوقة فيه وهو كالمجري لها فقط، فصار الملحوظ والمشاهد عند العارفين خالق تلك التدبيرات والحركات والسكنات، وغاب عن شهودهم العالَم وجميع حركاته وسكناته، فأعرضوا عنه كما أعرض الإنسان عن القلم الذي في يد الكاتب، وصار الملحوظ عنده الكاتب لا القلم.

ومثل ذلك أيضاً الخط والمكتوب الذي يصلك من أحب الناس إليك، فإنك حال قراءتك له تغيب عن البياض والحبر مستغرقاً في لذة الخطاب معه، حتى يصير الكاتب المذكور كأنه حاضر بين يديك بل يصير أقرب من كل قريب، وأنت في تلك الحالة غائب عن جميع ما بين يديك من أهل وولد، مع أنّ هذه الأشياء موجودة ولكنك غبت عنها لاستغراقك بغيرها، فهكذا غيبة العارف عن الكون، مع بقاء الكون ووجوده على ما هو عليه من الحدوث.

واعلم أن فناء الموجودات في شهود العارف شيء، واعتقاد وجود الموجودات وبقائها في الخارج شيء، فليس من لوازم الشهود أن تصير الموجودات معدومة في نفس الأمر ولا وجود لها في الخارج، بل تكون في حالة الشهود غائبة عن شهود العارف، فلا يشهد إلا الله، ويصير كالناسي لها والغافل عنها لم يخطر ذكرها بقلبه، وذلك لامتلائه بشهود الله تعالى، مع علمه بوجودها في الخارج، فصار فناء الموجودات في نظر العارف غير، وعلمه بوجودها في الخارج غير، وأما

الزائغون والملحدون: فالموجودات عندهم فانية في شهودهم ومعدومة في الخارج، حتى يعتقدوا أن الموجودات هي الحق تعالى، فهذا مذهب أهل الاتحاد.

فالأشياء عند أهل الحق باقية على حدوثها لم تتغير أصلاً، وإنما يفنون عنها بعدم ملاحظتها ويلحظون جناب الحق فقط، وأما الملحدون فالأشياء عندهم هي عين الحق فما هناك حادث، فأهل الحق تغيب الأشياء عن شهودهم فقط حالة الفناء، وهي عندهم موجودة في نفس الأمر، كما أن الإنسان تغيب عن نظره رؤية النجوم بالنهار ولا يشاهد إلا الشمس، مع علمه أن النجوم موجودة في السماء إلا أن الشمس سترتها فقط.

هكذا فليفهم شهود العارفين بالله وعدم نظرهم إلى الغير مع وجود الغير في نفس الأمر.

ولمزيد من التوضيح؛ فإنّ المخلوقات كالمرايا لآثار صفات الله تعالى، فلم يلتفت العارف إلى المرايا بشهود ما فيها، لأنه شهد ما فيها، لا لكون المرايا صارت عين المرئي فيها، فمن هنا غلط من غلط وزلّ من زلّ فظنّ أن لا مرآة، ومنه نشأ خيال من قال: أنا الحق. – والعياذ بالله– إن كان قاله عن نفسه زيغاً ووهماً وتخيّلاً، أو قاله غيبة عن الوجود وعن نفسه ثم لما صحا روجع بما قال فاستغفر وأناب ورجع عن قوله. ويحتمل أنه قاله على سبيل الحكاية عن الله، فظنّ السامع أنه يقوله عن نفسه، وهنا الوهم من السامع وليس زيغاً أو غيبة من القائل، ولا بد من أحد هذين التأويلين (أنه قاله في حال غيبته، أو قاله حكاية عن الله) لما نقل عن أكابر القوم من مثل هذا الكلام، لأن حالهم وصلاحهم يقتضي ذلك؛ فضلاً عن أننا أمرنا بحسن الظن بالمؤمنين، فكيف بأولياء الله وأصفيائه!!

ومثله أيضاً إذا قابل المرآة شيء أحمر مثلاً، فيظن البليد أن المرآة حمراء، وإن تلك الحمرة التي فيها هي عين المرآة وجزء منها، والحال أنها ليست كذلك، فلو كسر المرآة لم يجد فيها حمرة، فهكذا المخلوقات تتلألأ فيها أنوار الجمال الإلهي، فظن الغمر أن الموجودات جزء من الذات أو أنها عين الذات أو أن الذات حلّت فيها.

ومثل الطالب والمطلوب مثل صورة حاضرة مع مرآة ولكنها ليست تتجلى في المرآة لصدأ في المرآة [أو لحجاب بينهما] فمتى صقلت [أو أزيل الحجاب] تجلّت فيها الصورة لا بارتحال الصورة إلى المرآة، ولا بحركة المرآة إلى الصورة ولكن بزوال الحجاب، فالحجاب في عين العبد، فإنّ الله تعالى متجلّ بذاته لا يختفي، والنور يتجلّى في بعض المرايا أصحّ وأظهر، وذلك بحسب الصفاء والصقالة[183].

فهكذا العالَم –كالمرآة– لم يحلّ فيه الحق ولا اتصل به، ولم يكن عينه أصلاً، وإنما ارتسمت فيه أنوار جماله وجلاله من غير حلول ولا اتحاد ولا اتصال، فشتان بين القديم والحادث.

---

[183] انظر: جواهر القرآن للغزالي (12)، وتفسير روح البيان، سورة المزمّل.

وإذا عرفت أن الحادثات لم تصر عين الحق في حال الفناء، بل صار الحق هو المشهود لهم في تلك الحالة، ولم يروا غيره لاستتار الغير تحت أنوار ظهوره، حتى أنهم لم يذكروا الغير ولم يخطر ببالهم، لا أنّ الغير انعدم في نفس الأمر واضمحلّ في الخارج، إذا عرفت ذلك ظهر لك حينئذ أن جميع ما ذكره العارفون من الألفاظ الموهمة للحلول والاتحاد فمعناه فناء الموجودات وانعدامها في شهودهم لا في نفس الأمر، وإنّ كلّ ما أشار إليه العارفون من فناء السوَى فيعنون به ما ذكرنا.

فالفناء الصُّوفِي ليس فنَاء جسد فِي جسد ولا فنَاء روح فِي روح، إنَّه فنَاء إرادة في إرادة وفناء أَخلاق في أخلاق وصفات فِي صفات، أَي: فانياً عن أَوصافه باقياً بأوصاف الحق سبحانه.

شرح بعض العبارات الموهمة للحول والاتحاد:

فمعنى قولهم: لا موجود إلا الله، أي أنّ غير الله لا يسمى موجوداً مع الله؛ لكون وجوده من غيره، فلما لم يكن في الوجود من هو بهذا الوصف إلا الله قيل: لا موجود إلا الله، لأنّ الله تعالى لم يستفد وجوده من غيره، وقيل لغير الله: فانٍ، لكونه استفاد الوجود من غيره، وهو الله تعالى، فصار الغير من جملة فعل الله تعالى، فلم يكن هذا الغير غيرَ الله تعالى بهذا الاعتبار (كونه من فعل الخالق عز وجلّ) لأنه استفاد الوجود من الله تعالى، وكذلك لم يكن هذا الغير عينَ الحق، لأنّ المخلوقات حادثة والحق قديم، فكيف يكون الحادث عينَ الحق!!؟ وحينئذ يتضح أيضاً قولهم: لستَ هو ولا غيره، فمعناه: أنك لست هو لأنك حادث والحق قديم، ولستَ غيره لأن وجودك مستفاد منه، والغير هو من لم يستفد وجوده من غيره، فلما كان قيامك –أعني وجودك واستمرارك– به تعالى قيل: إنك لستَ غيره، لا أنك عينه فافهم.

وأما قولهم: إنّ الموجودات في عين العدم. فإنه كقول القائل: إنّ آلة الصانع في عين العدم، لأنّ الحاصل بواسطتها لا ينسب إليها، فصار بهذا الاعتبار في حكم العدم، وصارت الأفعال للصانع ولم تذكر الآلة أصلاً ولم تخطر على البال، وإنما الملحوظ هو الصانع فقط، فهي بهذا الاعتبار في حكم العدم، فهكذا فليفهم قولهم: إنّ الموجودات في حكم العدم، أي لم يكن لها دخل في إيجاد الأشياء، وإنما المؤثر قدرة الله تعالى، فقيل للموجودات: إنها في عين العدم.

فمما سبق يتضح أنّ من حصل له شهود الحق بالذوق ولم يشهد غير الله في العالم، واعتقد أنه لم يكن هناك خلق أصلاً حتى صار عنده العالم عين الحق، فقد زلّ ووقع في الاتحاد، وأنّ من حصل له شهود الحق بالذوق، فلم يشهد غير الله أصلاً، ومع ذلك فهو يعتقد أن العالم مخلوق على هيئته ولم يصر عين الحق، ولا صار قديماً وإنما غاب عنه في حال الشهود، فلم يذكره ولم يخطر له على بال بل سترته أنوار ظهور الحق؛ فهذا هو المحقق.

فلما كان هذا الحال يحتاج إلى دقة نظر ونور وافر يميز به بين الحق والباطل، نهى أهل الله عن كشف هذه الأذواق للعامة حتى لا يقعوا في اعتقاد القول بالحلول والاتحاد، فإن قلت: إنّ أهل الله يقولون: إنّ الكثرة تصير واحداً في شهودهم، قلنا: هذا المشهد صحيح ولا يكون اتحاداً، لأنهم يعنون بصيرورة الكثرة واحداً في الشهود فقط، لا في نفس الأمر (ليس في الواقع والحقيقة) – كما سبق– فبهذه الدقيقة فارقوا القائلين بالاتحاد، ولما كان الفرق بين كلامهم وكلام أهل الاتحاد خفي جداً نهوا العامة عن مطالعة كتبهم وكلامهم الدقيق.

ونظراً للخوف من حصول الالتباس ستر أهل الله أذواقهم ومشاربهم حتى لا ينسبهم الجاهلون إلى الاتحاد لسوء فهمهم فقال قائلهم[184]:

يا ربّ جوهر علم لو أبوح به   لقيل لي: أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحلّ رجال مؤمنون دمي   يرون أقبح ما يأتونه حسنا

قال الشيخ الأكبر ابن عربي: "ما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد، وما قال بالحلول إلا من دينه معلول".
وقال أيضاً: "لو صحّ أن يرقى الإنسان عن إنسانيته والملك عن ملكيته ويتحد بخالقه تعالى؛ لصحّ انقلاب الحقائق، وخرج الإله عن كونه إلهاً، وصار الحق خلقاً والخلق حقاً، وما وثق أحد بعلم، وصار المحال واجباً، فلا سبيل إلى قلب الحقائق أبداً"[185].

المراد بالوصول والقرب عند أهل التصوف:
الوصول إلى الله عند الصوفية هو معرفة الله سبحانه وتعالى، قال ابن عطاء الله (ت:709هـ) رحمه الله: "وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به، إذ جلّ ربنا أن يتصل به شيء أو يتصل هو بشيء".
وقال النوري (ت:295هـ): "الاتصال مكاشفات القلوب ومشاهدات الأسرار في مقام الذهول".
وقال الإمام الغزالي في (فرائد اللآلئ): "اعلم أنّ الاتصال والمواصلة –فيما أشار إليه الشيوخ– لكل من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجد، وهو رتبة في الوصول، ثم يتفاوتون، فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال، وهو رتبة في التجلي، فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع الله تعالى

184 نسبهما ابن عربي في فتوحاته للشريف الرضي.
185 انظر: كشف الغطاء عما يحصل لبعض السالكين من الخطأ، لسالم باصهي، رحمه الله.

(ينسب كل فعل إلى الله ويرى ذلك حقيقة). ومنهم من يوقف في مقام الهيبة والإنس بما يكاشَف قلبُه من مطالعة الجلال والجمال وهو تجلّ بطريق الصفات (أن يعيش مع صفات الله)، وهو رتبة في الوصول. ومنهم من يرقى إلى مقام الفناء مستملياً على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة، مغيّباً في شهوده عن وجوده، وهذا ضرب من تجلي الذات لخواص المقربين[186]، وهذه رتبة في الوصول، وفوق هذا حق اليقين، ويكون من ذلك في الدنيا للخواص لُمَح، وهو سريان نور المشاهدة في كلية العبد حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه، وهذا من أعلى رتب الوصول.

ثم يقول الغزالي: فالعارفون تنشأ أحوالهم عن قرب الله تعالى، وأما الأبرار فتنشأ أحوالهم عن ملاحظة علمهم بوجود الرب مطلقاً، مع العلم باقتداره على المنح والعطاء والإسعاد والإشقاء، والعارفون يرون ربهم في الدنيا بعين الإيقان والبصائر، وفي الأخرى بالأبصار، فهو قريب منهم في الدارين، وليس قربه منهم في الأخرى مخالفاً لقربه في الدنيا إلا بمزيد اللطف والعطف، وإلا فقد ارتفع هنا وهناك قرب المسافة ولم يكن بينه وبين مخلوق إضافة، لا في الدنيا ولا في الآخرة البتة. وهذه المعرفة مثمرة للأنس بشرط الصفاء، والأنس يثمر السكينة[187].

ولما سئل الجنيد عن قرب الله تعالى قال: قريب لا بالتلاق، بعيد لا بافتراق[188].

وأما قول أحد أكابر الرجال لمّا قيل له: "فلان يزعم أنه وصل!" فقال: "إلى سقر"! فإنه يريد بهذا أنه من زعم أنّ الله محدود يوصل إليه وهو القائل: (وهو معكم أينما كنتم)، أو ثَمّ أمر إذا وصل إليه سقطت عنه الأعمال المشروعة وأنّه غير مخاطب بها مع وجود عقل التكليف عنده، وأنّ ذلك الوصول أعطاه ذلك، فهو الذي فيه قال الشيخ: "إلى سقر"[189].

طعام الكبار سمّ للصغار[190]:

وقبل أن أختم هذا البحث أودّ أن أشير إلى أني التقيت بعدد ممن لم يتمكنوا في مبادئ العلوم الشرعية يتبجحون بأنهم يطالعون في كتب ابن عربي وغيره، ككتاب الفتوحات المكية وأمثاله، ويقعون فيما نهى عنه الفقهاء، حيث قالوا: "يحرم على من لا يعرف حقيقة اصطلاحهم وطريقتهم

---

[186] وتجلي الذات مثاله –لتقريب الفهم–: الشمس، قالوا: فإنك ترى ضوء النهار فتحكم بوجود الشمس وحضورها برؤيتك الضوء.

[187] انظر: شرح جوهرة التوحيد للباجوري في آخر شرحه لقول الناظم: وأنه لما ينال العدم.....مخالف برهان هذا القدم

[188] طبقات الشافعية الكبرى (267/2).

[189] الفتوحات المكية (107/4).

[190] هكذا كان يقول شيخي العالم العامل المربي الشيخ عبد الكريم الرفاعي رحمه الله.

مطالعة كتبهم، فإنها مزلة قدم له، ومن ثمّ ضلّ كثيرون اغتروا بظواهرها"[191] وهم يتخيّلون أنهم بذلك يعلون مراتبهم أو يصلون إلى مقاصدهم من السلوك في طريق المعرفة الربانية!! وغاب عن هؤلاء المخدوعين بحالهم، المفتونين بأفكارهم، ما قاله أهل هذا الطريق أنفسهم، بأنّ المعرفة الربانية وحال أهل الله لا يحصل بمجرد قراءة كتب القوم والمطالعة فيها، بل يصرّحون بأنه قد انعقد إجماع أهل الله تعالى أنه لا بد من الوسيلة، وهو الشيخ في طريق العلم بالله تعالى، ولا تغني عنه الكتب، وذلك عند ورود الواردات وبوارق التجليات والواقعات، ليبيّن للمريد: المقبولَ من المردود، والصحيحَ من السقيم، وأما بداية السلوك فيكتفي بالكتب المصنفة في المعاملة والمجاهدة المطلقة[192].

ويقول الشيخ محمد الهاشمي رحمه الله: "إنّ من طالع كتب أرباب الأحوال من القوم رضي الله عنهم ظناً منه أنّ ذلك هو غاية الكمال، وأنّ ما عليه أرباب الأحوال هو المقصود من الطريق واستغنى عن حضور مجالس علم التفسير والحديث والتصوف، أو حضر ذلك ولكن مع زائغ العقيدة، أو منكر لعلم التصوف وأهله، ولم يكن له حصة من الصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهو مغرور"[193].

ويقول صاحب المواقف: "وقد شاهدنا في زماننا من المريدين من سمع بعض أسرار الألوهية وبعض الحقائق من مشايخهم فصاروا يتكلمون بها في المجالس العامة، وظهرت منهم أمور فظيعة من الجسارة والقباحة والتهجم على الجناب الأعلى الإلهي، والتكلم بكلمات ما عرفوا لها أصلاً ولا ذاقوا لها طعماً. . والقوم – رضوان الله تعالى عليهم – ما ألّفوا في الحقائق وأذاعوا أسرار التوحيد، وكشفوا بعض أستار الربوبية إلا لأصحابهم ومن سلك طريقهم ممن عرفوا فيه الأهلية والثبات على الكتاب والسنة، وما ألّفوها للعامة . . ولا تكلموا بها في المجالس العامة"[194].

فاعتبار المهمّ من الأمور وتقديمه هو شأن الصديقين في كلّ شيء، فكل من طلب من علوم القوم دقيقها قبل علمه بجملة أحكام العبودية منها، وعدل عن جليّ الأحكام إلى غامضها، فهو مخدوع بهواه، لا سيما إن لم يُحكِم الظواهر الفقهية للعبادات، ويحقق الفارق بين البدعة والسنة في الأحوال، ويطالب نفسه بالتحلّي قبل التخلّي[195].

191 انظر: فتح المعين شرح قرة العين، باب في الردة.

192 المواقف الروحية، الموقف (197).

193 محمد الهاشمي مربي السالكين.

194 المواقف الروحية، موقف (158).

195 انظر: قواعد التصوف، قاعدة (18).

بل قد حذر العلماء حتى من قراءة الأوراد والأذكار التي وردت عنهم من غير المأثور وأتوا فيها بالموهمات والمبهمات، كابن سبعين وأضرابه حيث أتى بعبارات هائلة وأمور مشكلة متطاولة. فقالوا: "فيتعين اجتنابه والتحذير والتنفير منه للخاص والعام"[196].

فالحذر الحذر يا أخي من هذه الكتب، فإنّ هذا العلم علم وجدانيّ ذوقي، وعلم الأذواق لا يؤخذ من الأوراق، كما أنه لا يؤخذ بالقياس ولا بالفهم وقوة الذكاء والاقتباس.

ومن يكن يصحب غير جنسِه   فجاهلٌ واللهِ قدرَ نفسِه

وكم من طلبة للعلم تجاهلوا –وللأسف– حكم الحرمة، وضربوا بنصح الشيوخ المخلصين الامتناع عن قراءة كتاب الفتوحات المكية وأمثاله من كتب القوم عُرض الحائط، فتشوشت –من جرّاء تجاسرهم على مطالعة هذه الكتب– أفكارهم، واضطربت نفوسهم، ثم تاهوا في غياهب الفلسفة والشكوك، وغابوا في تخيّلات الأوهام، وفُتنوا بشطحات بعض غلاة المتصوفة، فاهتزت عقيدتهم، وتزلزل الإيمان في قلوبهم، فضاعوا وانحرفوا، وهجروا سبيل العلم والعلماء، وساروا بقولهم وحالهم إلى مصارع الجهل، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وإنّي أجزم –كما تلقيت من شيوخي– أنّ هذه الكتب سمّ لأمثالي الصغار في فهم لغة القوم ومصطلحاتهم، فهي لا تشفي من علّة ولا تسقي من غلّة ولا تحلّ عقدة، ويخشى على قارئها الخروج من الملّة، ولا يجوز مداومة تصفحها ومطالعتها لغير المتمكنين الكبار.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها   إن السفينة لا تمشي على اليبَس

وليس استشهادي في بعض صفحات هذا الكتاب ببعض ما ورد في الفتوحات المكية مخالفة مني لما نصح به الشيوخ، ولا تشجيعاً أو دعوة إلى قراءة هذا الكتاب وأضرابه؛ ولكني فعلته اضطراراً، وبشروطه عند أهل العلم الراسخين، إذ أنّه لا يصحّ لمن يترجم للشيخ يحيى أن يقوم بهذه المهمّة دون أن يطّلع على الكتاب الذي اشتهر بتدريسه وفك رموزه ولم تضمّ مكتبته مع كتاب الله تعالى غيره.

196 انظر: ترشيح المستفيدين على فتح المعين بشرح قرة العين (127).

الباب الرابع: علاقاته ومجالسه

الفصل الأول: علاقاته بالخاصة والعامة

1- مع الناس والعلماء

2- مع الشيخ العارف أحمد الحارون.

3- مع الشيخ السيد محمد المكي الكتاني

4- العلماء والحكام.

5- الشيخ يحيى والسياسة.

الفصل الثاني: مجالسه في الوعظ والإرشاد

1- مجالس الشيخ ودروسه

2- أسلوبه في الوعظ وقوة حجته

الفصل الثالث:

1- زلات العلماء تطوى ولا تروى

مع الناس والعلماء

لم يكن سيدي يحيى صاحب تصوف انعزالي، ولا متشدّداً ينفر من الناس أو ينفرون منه، فلم يكن سلبياً في أي أمر من أمور حياته، فهو مع ما كان عليه من الزهد في الدنيا وحطامها، كان يأكل من الطعام ما حضر، ويلبس من اللباس ما وجد، لا يعيب طعاماً ولا يزدري نعمة من نعم المولى، حسن المعشر، يحب النكتة اللطيفة والدعابة الهادفة، ولا يمزح إلا صدقاً، يخالط الناس ويحضر مجالسهم، وكان يحب التنزه كثيراً ويتألف به قلوب كثير ممن يعرف وممن لا يعرف، ويجعل من النزهة مطية للترفيه عن أناس ضاقت عليهم أنفسهم فيسخر النزهة لجذبهم إلى محبة الله ورسوله، فإذا وجد مهموماً أو مكروباً سارع للترفيه عنه فاخترع له حجة ليصطحبه بنزهة أو زيارة، وعلى العموم كان يغلب عليه حال البسط والتيسير والتسامح والإغضاء، رفيقاً بالناس يلتمس الأعذار لهم، حسن الظن بهم ويحمل كل ما يصدر منهم على أحسن الوجوه ما أمكن ذلك، فحسن الظن بالمؤمنين من محاسن الإسلام، وإساءة الظن بهم مما نهى الله عنه (يا أيها الناس اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم) [الحجرات:12]، ولكنه كان إذا غضب لله كانت له سطوة ومهابة، وجرأة وسلطان، وسرعان ما يعود إلى حال البسط والانشراح.

وكان كثير الذكر لله ومناجاته باسمه الباسط باستمرار، فيردد (يا باسط، يا باسط، ...) فجعل من هذا الاسم من أسماء الله تعالى إضافة للصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم هجّيراه، يذكر ربه ومولاه عشرات المرات في المجلس الواحد، ويأمر جلساءه بترديد ذلك كثيراً، فلا يخلو مجلس من مجالسه من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ومن ذكر الله تعالى باسمه الباسط، فبالصلاة على الرسول تذهب الهموم، وتنفس الكروب، وباسم الله الباسط تنشرح الصدور ويعمّ السرور.

وكم صادف أناساً في الطريق وكانوا في ضيق وشدة، أو محنة وكربة –وربما يكونون ممن لم يلتق بهم قبل – فاستوقفهم فأعطى هذا شيئاً من مال أو حلوى (سكاكر أو ملبس)، وهذا شيئاً مثله، وهكذا، وربما قال لمن يعطيه: خذ هذا لأهلك، أو خذ هذا صالح به (مرتك) أي زوجتك، أو ربما أركبهم معه في عربة يجرها حصان، أو في سيارة أجرة، وأخذهم لنزهة في بستان قريب أو مصيف جميل، وكان يحب منتزهي عين الفيجة وعين الخضراء[197]، ومع الطعام وبين يدي تحضيره يسامر مرافقيه ويمازحهم ويسمع منهم، ثم يذكرهم بربهم وخالقهم بمواعظ لطيفة، ونصائح خفيفة، ويشغلهم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ويرشدهم أنها الدواء الشافي لكشف ما

---

[197] انظر في (ص:301) ما فعله مع الشيخ زهير الناصر وكان يومها في مقتبل شبابه.

نزل بهم من همّ وغمّ، وما حلّ بهم من ضيق وكرب، وأنها المفتاح لقضاء الحاجات، ورفع البليات وتفريج الكربات بإذن الله.

وكان الناس يعرفون له قدره فيمتثلون لنصحه دون تردد، كقصة ذلك الرجل الذي أخذ كأس الشاي بشماله، فقال له الشيخ يحيى: خذه بيمينك، فنقله الرجل بيده اليسرى ووضعه في يده اليمنى ممتثلاً نصيحة الشيخ، فقال له الشيخ: ارفع، ارفع، ارفع، والرجل يمتثل ويرفع الكأس بيده حتى وصل به إلى فمه، فأخذ يشرب الشاي ويبكي! يبكي من شدة فرحه أنه استطاع أن يحرّك يده اليمنى التي كانت مشلولة منذ مدة!! ويتواصل بكاءه والشيخ يقول له: لو قلت: لا أستطيع لما أكرمك الله بذلك.

كان شيخنا –مع كونه ربانياً عارفاً– اجتماعياً فكهاً، يألف ويؤلف، يقيم الدروس في المساجد، ويلقي فيها وفي البيوت المواعظ، ويحضر مجالس العامة والخاصة، وهذه الخصال خصال العارفين، إذ أنّ من صفات العارف بالله أنّ جسمه في الدنيا وقلبه في الآخرة.

يقول الشيخ شكري اللحفي رحمه الله تعالى: من الأولياء من جمع فكان عيسوياً وموسوياً، وقد يكون عيسوياً ظاهراً وموسوياً باطناً، ظاهره جمال، وباطنه جلال، وهكذا كان سيدنا الشيخ يحيى الصباغ، كان جمالياً وفي الباطن جلالياً.

قيل لأبي يزيد البسطامي: ما أعظم آيات العارف؟ قال: أن تراه يؤاكلك ويشاربك ويمازحك ويبايعك ويشاريك وقلبه معلق بالله، ليس له همّ سواه[198].

ومما جعل سيدي يحيى قريباً من الناس أنه كان يميل كثيراً للترغيب ويبتعد عن الترهيب إلا عند الحاجة لذلك، فكان يذكّر الناس دائماً برحمة الله وعفوه ومغفرته أضعاف تخويفهم بغضبه وسخطه، ويكثر من الحديث عن الجنة ونعيمها والأسباب الموصلة إليها أكثر بكثير من حديثه عن النار وجحيمها، فعلى الإجمال والغالب كان يؤثر التبشير والتيسير ويكره التنفير والتعسير.

ذكر الشيخ أديب كلاس (ت:1431هـ) أنّ شيخه الشيخ صالح الفرفور (ت:1407هـ) –رحمهما الله– كان أسند دروس شهر رمضان في المسجد الأموي بعد صلاة العصر لتلاميذه، كالشيخ عبد الرزاق الحلبي حفظه الله، وكنت واحداً ممن انتدبهم لهذه المهمة، فعزمت أن أجعل دروسي في النصف الأول من الشهر للترهيب، وفي نصفه الآخر للترغيب، ولما بدأت دروسي الأولى في الترهيب، كنت أرهّب الناس من عقاب الله ومن عذابه وناره، وبينما أنا على ذلك سمعت صوتاً يردّد قائلاً: "الله غفور رحيم"، فالتفتّ لمصدر الصوت فإذا بالشيخ يحيى يجلس جانباً يسمع مني هذا الترهيب للناس؛ فيردّد ما سمعت، وتكرر هذا منه مرات أثناء دروسي.

وهذا هو حال أهل الله، فرجاء أهل الله إنما هو بالله، فلا ينظرون إلا بالرجاء والترغيب.

[198] الشيخ المجاهد محمد الحامد (191)، عبد الحميد طهماز.

ومن الحوادث التي تدل على إيثاره استعمال الحكمة واعتماد اللطف والتيسير والتخفيف، أنّ الشيخ جهاد سعيد البرهاني –رحمه الله– وزميله وحيد العقاد حفظه الله (كانا من طلاب الكلية الشرعية) بينما كانا يقومان على خدمة ضيوف في منزل الشيخ سعيد بالمناسبة السنوية للاحتفال بالمولد النبوي الشريف والتي كان يحضرها جمع غفير من علماء الشام، رآهما أحد العلماء وقد خلعا العمامة، وكان أستاذهما في الكلية الشرعية، التي ألزمت طلاب السنوات الأولى فيها لبس الطربوش، وألزمت طلاب السنوات المتقدمة وضع العمامة البيضاء، فقام هذا العالم فأنّبهما على الملأ لخلعهما العمامة، وأثقل القول وكان شديداً عليهما، فانزويا خجلاً وحياء، وسكت جميع الحاضرين عن هذا التصرف، فلم يرق ذلك للشيخ يحيى، فتوجه بالحديث لهذا العالم معترضاً على تصرفه وخشونته، ووجّه له كلاماً انتصف فيه لهذين الشابين وانتصر لهما، وردّ لهما اعتبارهما، ثمّ تلطّف لهما وأثنى عليهما[199].

وكان أيضاً يحب الفأل الحسن، لذا كان جلّ لباسه البياض[200]، ويكره الملابس الغامقة الداكنة، وكثيراً ما كان ينهى أولاده وأحفاده وكذلك أحبابه عن لبس الملابس التي تميل إلى السواد، ويعلّق أحياناً على لبس ذلك، ومن هذا القبيل كان يحب الأبيض من الأزهار والرياحين، فكان لزهرتي الفلّ[201] والزنبق حظوة عنده، يؤثرهما على غيرهما من الرياحين والأزهار، فكان بيته لا يخلو من أحدهما، بل ويندر أن يخلو مجلس من مجالسه من زهرة الزنبق.

حتى الحلوى كان يحب منها القشطة لبياضها، فكان كثيراً ما يقدم لضيوفه عجينة القطايف بالقشطة، وغالباً ما تكون من جملة هداياه إذا قصد أحداً بزيارة.

كان يعجبه قول سيدنا ابن عمر رضي الله عنه: "بنيّ إنّ البرّ شي هيّن، وجه طليق ولسان ليّن"[202]، فيذكره كثيراً.

ومن أقواله في البسط:

"بسط الوجه دليل على الرضا بما قسم الله، من حسنت أخلاقه توسعت أرزاقه، فلا بسط إلا ببسط الوجه للناس".

فبالجملة كان حاله البسط لا القبض، والتفاؤل لا التشاؤم، والترغيب لا الترهيب، والتيسير لا التعسير، والتبشير لا التنفير، والتسامح والتغاضي لا التباغض والتعادي، هذا هو الغالب عليه في معظم أحواله.

---

[199] من مقابلة مع الشيخ هشام سعيد البرهاني.

[200] ففي الحديث الشريف عند أبي داود (3878) والترمذي (994) وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وسلم: "البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم".

[201] انظر: قصة رائحة الفلّ مع حفيد شيخه في فصل الكرامات.

[202] من كلام سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنه، ذكره الغزالي في الإحياء، ويروى وكلام بدل ولسان.

علاقاته بالعلماء والصالحين:

لم تقتصر حاله الاجتماعية من التواصل مع الناس على الاهتمام بأمر العامة منهم فقط، وإقامة الدروس ومجالس الإرشاد لهم؛ بل كانت حصة الاهتمام بالعلماء وأولياء الله الصالحين لها المقام الأكبر في نفسه؛ فتعظيم العلماء وتقديرهم، ومحبة الصالحين ومجالستهم من أولى اهتماماته، لأنها من صلب الدين، فكان باراً بهم وصولاً لهم، يزورهم ويصلهم، بل ربما سافر لزيارة عالم أو جبر خاطر رجل، أو سعياً في حاجة إنسان، وبالمقابل كان العلماء لا ينقطعون عن زيارته في بيته، وحضور مجالسه يتبادلون فيها الفوائد والفرائد، ويستروحون بما فيها من صفاء ونقاء.

كانت مجالسهم عامرة بمحبة الله ورسوله، وبالأحاديث التي تنوّر القلب والعقل، وتروّح عن النفس وتهذّبها، وتغذّي الروح وتشحذها.

حدثني شيخي الشيخ وصفي المسدي (ت:1431) –رحمه الله– وكثير غيره من سادة أهل العلم، أنّ كبار العلماء وصفوتهم كانوا إذا حضروا مجلس الشيخ ينصتون في مجلسه ويدعون الحديث له، وقلّ وندر أن يعترض أحدهم على شيء من كلامه لما يعرفون عنه من قوة الحجة، وليقينهم –بما جرّبوا عليه– من أنه يتكلم إمّا عن ذوق أو كشف وإلهام، وبالتالي لا يقوم لحجته ولا يقوى على معارضته أحد، إذ الفتح الإلهي مصدره ومورده.

وإنّ مجالسه –على ما فيها من علم لدني وإنس بالله تعالى– كانت لا تخلو من دعابة وفكاهة، وهذا من حال البسط والأنس الذي كان يغلب عليه، وخاصة عند مجالسة العلماء، فإنه –كما قال لي الشيخ وصفي– كثيراً ما كان يمتدّ مجلس العلماء عنده في البيت ويطول، وذلك لما يكون فيه من تجلّ وسرور، فإذا طال بهم المقام فاجأهم مازحاً مداعباً بقوله: "قوموا روحوا جاء دور زوجتي!!"[203].

ولما تقدمت به السنّ كان بيته لا يخلو من الزوار صباحاً ومساء، بين درس ووعظ ومؤانسة ونحو ذلك، ولقد كان يأتيه العلماء والمحبون من كل المحافظات، بل أحياناً كثيرة من بلدان أخرى كالأردن ولبنان والمغرب وغيرها.

فمن أهمّ ما أمكنني الوقوف عليه من زوّاره من السادة العلماء: شيخي المربي، العالم الرباني الشيخ عبد الكريم الرفاعي، فقد كان كثير الزيارة له كما حدثني بذلك ابنه شيخي الشيخ أسامة

---

[203] وكان هذا يتكرر منه كثيراً في النزهات خاصة، فإنه كان رحمه الله يشعر بحاجة أهله إليه، فتراه فجأة يقطع نزهته إذا كان في نزهة، أو مجلسه إذا كان في مجلس، ويذهب لحاجة أهله. وأحياناً كان عندما يوزع ما يلهمه الله مما يرزقه من مال، يبقى معه شيء فيقول ممازحاً لمن معه: هذا لمرتي (زوجتي)، مرتي أحسن منكم.

ومن أخلاقه مع زوجته أنه كان غالباً يناديها باسمها مرخماً (يا ناج) بدل (ناجية)، وهذا من التأسي بالنبي عليه الصلاة والسلام فقد كان ينادي السيدة عائشة رضي الله عنها بالترخيم (يا عائش) كما في الصحيحين وغيرهما.

قائلاً: "إنها مرات كثيرة التي كنت فيها بصحبة والدي لزيارة الشيخ يحيى، ومن كثرتها لا أحصيها"، وكان يصطحب معه طلابه في الأعياد وغيرها لزيارته ليسمعوا منه وينتفعوا بمجالسته، فكان يرى في الشيخ يحيى رجلاً عالماً وعارفاً صوفياً متميزاً، إذ لم يكن يدعو لطريقة صوفية بعينها، ولا يناصر فئة على فئة، بل كان منهجه محبة جميع المسلمين والرفق بهم، ويرى أن محبة الله وذكره، ومحبة رسول الله والصلاة عليه، هي رابطة الجميع، وواسطة العقد، فكان الشيخ عبد الكريم يرى في هذه الصفات وغيرها من الخصال ما يدفعه لاصطحاب طلابه لزيارة سيدي يحيى علّهم يستفيدوا من أمثال هذه النماذج الفريدة، ويقتبسوا من أنوارها.

ومن زوّاره: الشيخ السيد محمد الهاشمي، وقد كان شديد المحبة له، مع عظيم الاحترام والتقدير، فمن تقديره له كان إذا حضر سيدي يحيى أثناء درسه في التوحيد أو غيره يقول لطلابه: الآن ضبينا(طوينا) العلم حتى نسمع الشيخ يحيى، ويرحب به قائلا: أهلاً بالقرآن المفتوح[204].

ومنهم: مفتي الحنابلة في دوما بل سوريا الشيخ المتواضع المتمسكن لله تعالى، العالم الرباني أحمد صالح الشامي، وكان كثير المحبة له متواصل الزيارة معه، يأتي من داره في دوما لزيارته، وكذلك يفعل سيدي يحيى، فكثيراً ما كان يتوجه لبلدة دوما لزيارة الشيخ أحمد.

ومنهم: الشيخ أبو الخير الميداني رئيس رابطة العلماء الذي كان يقول: "الشيخ يحيى هو الوارث المحمدي للشيخ سليم المسوتي (ت:1324هـ)"، كان له معه مجلس خاص مع خيرة علماء الشام يومئذ، يضم بالإضافة لهما كلاً من الشيخ إبراهيم الغلاييني، والسيد محمد المكي الكتاني، وغيرهم كما سيأتي قريباً.

وأيضاً كان لسيدي يحيى صلة محبة وود وصحبة مع الشيخ صلاح كيوان، والشيخ عبد الوهاب الصلاحي (ت:1382هـ)، وكان الشيخ صلاح كيوان كثيراً ما يرافقه على مائدة الفطور الصباحي عند الشيخ أحمد الحارون كما سيأتي.

أما الشيخ محمد سعيد البرهاني فكانت علاقته به مميزة، وبينهما زيارات دائمة ومستمرة، وكان الشيخ محمد سعيد -كبقية إخوانه العلماء- يجله ويوقره ويسلّم له ما كان عليه من حال أهل الله تسليماً مطلقاً، وكان يقول لابنه الشيخ هشام: يا بنيّ هؤلاء - أصحاب الأحوال- نسلّم لهم حالهم، فلا تعتب عليهم ولا تنكر، فهم يتكلمون بلسان بعض الحاضرين.

ومن زوّاره أيضاً ومحبيه: الأستاذ اللغوي الشيخ عبد القادر المبارك (ت:1365هـ)، الذي كان يعرف بالقاموس السيّار لشدة تمكنه وعلوّ كعبه في اللغة العربية وعلومها، والذي كان من أقرب المقرّبين إلى المحدث الأكبر الشيخ البدر، وكان صلة الوصل بينه وبين النخبة من المثقفين ومن كان يعرف بالأفندية، ولولاه لحرم كثير من هؤلاء الأفندية من التشرف بمعرفة الشيخ البدر

---

[204] كما حدثني الشيخ عمر الصباغ وغيره.

والتتلمذ عليه، كان -رحمه الله- يحب سيدي يحيى محبة كبيرة، يحترمه ويجلّه كثيراً، ومن إجلاله له يقبّل يده[205]. أقول: وهذا يدلّ أيضاً على تواضعه ومحبته للصالحين، فإنه كان سَنين الشيخ يحيى، وكان هو ممن تقبّل يده.

وكان أيضاً يوصي بناته بصلة بنات الشيخ تبركاً بالشيخ يحيى، وكان هذا اللغوي المبارك على علاقة وطيدة وحميمة أيضاً مع الشيخ أحمد الحارون[206] الذي يُعرَف أنه والشيخ يحيى من مدرسة روحية واحدة (مدرسة ابن عربي) كما سيأتي في فصل خاص.

ومنهم: سنينه الشيخ أمين خادم الأربعين (ت:1384هـ)، وابتدأت المعرفة بينهما منذ الصغر، وكانا زميلين في مدرسة واحدة، المدرسة التكريتية، واستمرّت إلى أن أثمرت، فكان من نتاج هذه الصحبة التصاهر بين العائلتين، إذ تزوج ابنه محمد عيد بابنة سيدي يحيى، وتزوّج ابن سيدي يحيى بابنتي الشيخ أمين كما مرّ[207].

كان الشيخ أمين في أول شبابه يعمل في تجليد الكتب، ثم توجه إلى دراسة اللغة العربية وأصبح مدرساً لها، ثم تتلمذ على بعض الشيوخ الصالحين من أقارب زوجته، فتأثر به كثيراً وانتفع به، وكان أميناً كما هو اسمه، وشيخاً صالحاً مهيباً وجميلاً ذا طول، له حال في الرقية، يرقي المرضى والممسوسين، فينتفعون برقياه ويجري الله الشفاء على يديه.

ورث هذا الشيخ عن أجداده خدمة مسجد الأربعين المشهور في أعلى جبل قاسيون[208]، حيث عاش تسعين سنة قضى منها سبعين سنة في خدمة مسجد الأربعين، وحكي لي من كراماته أنه قدّم لبعض ضيوفه -أثناء زيارتهم مسجد الأربعين- فاكهة الصيف في الشتاء.

وأما زوار سيدي يحيى وأحبابه من المحافظات السورية فيصعب أيضاً إحصاؤهم من كثرتهم، ولكن أذكر بعض ما وصلني من ذلك.

فمن حلب: مفتيها الشيخ محمد بلنكو، وكان من قيادات رابطة العلماء في فرعها بحلب، والشيخ العالم الرباني المحدث عبد الله سراج الدين (ت:1422هـ).

ومن حمص: الشيخ عبد العزيز عيون السود (ت:1399هـ) والشيخ وصفي المسدي -رحم الله الجميع-، يصحبهم عدد من علماء حلب وحمص، فقد كان بعض علماء حلب إذا أرادوا زيارة علماء دمشق عرّجوا على علماء حمص وحماة فزاروهم، ثم ترافقوا لزيارة علماء دمشق، وكذلك

---

[205] مقابلة مع الأستاذ الدكتور مازن المبارك.

[206] المرجع السابق.

[207] انظر: فصل النشأة والحج، فقرة: أولاده.

[208] فهذه العائلة معروفة بخدمتها لهذا المسجد منذ ما يقرب من أربعمئة عام، وعندهم صكوك تثبت ذلك من أيام الخلافة العثمانية المباركة.

كان بعض علماء دمشق إذا أرادوا زيارة علماء حلب عرّجوا في طريقهم على علماء حماة وحمص فزاروهم، ثم ترافقوا لزيارة علماء حلب.

تمرّون الديار ولم تعوجوا كلامكم عليّ إذن حرام[209]

وكان الشيخ أديب حسون (ت:1429هـ) -رحمه الله- كان يقول لولده: "يا بني اعرِف دمشق، فقد كنا نذهب في الأربعينيات إلى دمشق فنبقى فيها أكثر من عشرة أيام، ندور من بيت وليّ إلى وليّ، وكلهم من كبار أولياء الله، ولو لم يتكلموا كنت ترى الأنوار تسري في وجوههم وتضيء على من حولهم"[210].

هذه الحال من التواصل والتزاور بين العلماء، والحب السائد فيما بينهم، ومعرفة العالم قدر إخوانه من بقية العلماء والشيوخ، هي التي كانت سائدة على كل أو أغلب علماء ذلك العصر، فقد كانوا يرون القدر والفضل في إخوانهم من العلماء، بينما لا يرون لأنفسهم شأناً ولا فضلاً، بل يعدون أنفسهم خداماً لأهل الله وطلبة العلم، ويعتبرون ذلك شرفاً ووساماً لا يناله إلا الموفقون، الذين رضي الله عنهم وأحبهم فاختارهم لحمل دينه وتبليغ شرعه من دون من سواهم، وكان من شيمهم الصبر على الدعوة والتبليغ والتعليم، كل ذلك مقروناً بالتواضع الجمّ، حتى إنك لتحسب تواضعهم جبلّة فيهم قد فطروا عليه، وهم فعلاً كذلك، إذ إنهم يتواضعون دون تكلف، ومع ذلك كان اتهامهم النفس بالتقصير حالاً متأصلاً فيهم أيضاً، لدرجة أنّ العامة والخاصة من الناس تستأنس بهم أشد الاستئناس وتنجذب إليهم كل الانجذاب، فيكون كلامهم ووعظهم على القلوب أرقّ من النسيم، يشفي العليل، ويداوي الجريح، فينتفع بهم وبنظراتهم كل من شاهدهم قبل أن يسمع كلامهم.

وكان العالم إذا انفرد برأي في مسألة علمية أو اجتماعية أو نحو ذلك، اجتهد فيه فترجح لديه، فإن انفراده برأيه هذا، وتمسكه بما أدّاه إليه اجتهاده؛ لم يكن ليؤثّر على قلب إخوانه من العلماء ولا على علاقتهم به، فالكل يلتمس العذر للكل، والخلاف في الرأي لا يفسد الودّ، ولا يكون معه صدّ وردّ، ولا شدّ وجذب، ولا يقطع طرق التواصل ولا يهدم جسور الحب. وأما في أيامنا هذه فليست الحال على مثل ما كان -وللأسف- ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أمّا الخيام فإنّها كخيامهم وأرى نساء الحيّ غير نسائها[211]

وقال آخر:

بالملح نُصلح ما نخشى تغيّره فكيف بالمِلح إن حلّت به الغِيَرُ

---

[209] البيت للشاعر جرير.

[210] سمعته من ولده.

[211] نسبه ياقوت في كتابه (معجم الأدباء) للمؤدب أبي الحسن، علي بن أحمد(ت:448هـ).

مع الشيخ العارف أحمد الحارون

إنّ علاقة سيدي يحيى بالشيخ العارف أحمد الحارون (ت:1382هـ) وبالشيخ السيد النسيب محمد المكي الكتاني(ت:1393هـ) -رحم الله الجميع- كانت علاقة ذات ملامح متميزة، تعانقت فيها الأرواح وتعارفت قبل تلاقي الأجساد وتواصلها، لذا أفردت لكل منهما فصلاً خاصاً، للوقوف على ما كان بين هؤلاء الأعلام الأولياء الأخلاء.

كان الشيخ أحمد الحارون وسيدي يحيى أشهر أولياء دمشق في الخمسينيات[212] وكلاهما من مدرسة واحدة، مدرسة المعرفة الإلهية والعلم الوهبي اللدني، ومدرسة الشيخ الأكبر ابن عربي، فالشيخ أحمد الحارون في عصره هو ابن الشيخ الأكبر، والشيخ يحيى مع الشيخ الأكبر لا يختلف عنه في ذلك ولا يبعد[213].

أقول: ويؤيد هذا الكلام ما تقدم من أن سيدي يحيى قبل موته قال: أريد أن أصارحكم بحقيقة وسرّ قبل موتي! ما تركني الشيخ الأكبر طرفة عين!!.

وجمع بينهما أيضاً -إضافة لذلك- الحب في الله والبذل في سبيله، وإن امتاز سيدي يحيى بالإضافة لما أفاض الله عليه من العلم الوهبي بأخذه وتلقيه عن بعض العلماء والشيوخ والتتلمذ عليهم كما مرّ في الباب السابق، بخلاف الشيخ أحمد، فقد امتاز بعلمه الوهبي اللدني الخالص، ولم يعرف عنه التلقي عن العلماء، ومع ذلك كان له رسوخ في علوم الفلك والكيمياء والعربية وغيرها بما يحيّر الألباب ويأخذ بعقول أذكى الأذكياء، أقرّ بهذا كبار أهل العلم والاختصاص، فقد بزّ رحمه الله أهل كل فنّ بفنّهم، وفاق أهل كل اختصاص باختصاصهم، وجاءهم بما أدهشهم وأخذ بأنفسهم كل مأخذ، حتى سلموا له بالمعرفة والولاية كامل التسليم.

ويؤكد هذا أيضاً ما تقدم من كلام ابن عجيبة في تفسيره: "كم من وليٍّ يكون أُمياً، وتجد عنده من العلوم والحِكَم والتوحيد ما لا يوجد عند نحارير العلماء".

ومن المحبة والتمازج الذي كان بين الشيخ أحمد الحارون وبين سيدي يحيى، أنه كان يطلب من أهله تجهيز طعام الإفطار، ثم ينادي: يا شيخ يحيى الطعام في انتظارك!! يتحدث معه بالدكّة -حزام قماشي للسروال- وكأنها جهاز هاتف، وربما أحياناً يكون العكس، يناديه جدي ويقول: يا شيخ أحمد جهز طعام الإفطار فإني قادم إليك!! تقول الحاجة أم نعيم الحريري(وقد تربت في حجره): كنت أسمع الشيخ أحمد يتحدث مع الشيخ يحيى بالدكّة، يقول له: أنا بانتظارك. ثم يقول لي: قومي جهزي طعام الإفطار، وقبل أن يدقّ الشيخ يحيى الباب يقول لي: افتحي الباب للشيخ

212 هذه تجربتي (47)، سعيد حوى.

213 هكذا يحب أن يصفه تلميذه الأستاذ أبو عبد الله، محمود الغراب، وأكد على ذلك في مقابلتي معه.

يحيى، وما إن أفتح الباب حتى أجده واقفاً، فيدخل لغرفته ويجلسان يتحدثان وصوتهما يسمع في الغرفة الأخرى[214].

وكثيراً ما كان الشيخ صلاح كيوان يدعى لنفس الطعام ويكون ثلاثتهم في جلسة مع الله حباً وذكراً ومذاكرة.

لقد كان هذان الشيخان بحرين زاخرين في الحجة والكرم كما يقول الشيخ عمر بن سليم الصباغ.

وحدثني شيخي الشيخ وصفي المسدي –رحمه الله–: أنه كان مرة مع بعض أهل العلم في جلسة عند سيدي يحيى، فأخذ يحدثهم ويؤانسهم كعادته مع ضيوفه، فإذا بأحد أبناء الشيخ العلامة إبراهيم الغلاييني لم يعجبه بعض ما تحدث به الشيخ، فأنكر عليه ذلك واعترض على كلامه، فلم يردّ الشيخ عليه، وقال للحاضرين: قوموا نمشي، نريد أن نذهب لزيارة الشيخ أحمد الحارون، هذا الشيخ نحبه ويحبنا، وهو الذي يدافع عنا ويفهم علينا . . وتكلم أمثال هذا الكلام، يتابع الشيخ وصفي قائلاً: فلما وصلنا لمنزل الشيخ أحمد وفتح لنا الباب إذا به أول ما بدأ باستقبالنا بادر بتأنيب الشخص الذي اعترض على الشيخ يحيى، وصار يتكلم بما دار في الجلسة وكأنه كان موجوداً معنا، وأخذ يدافع عن الشيخ يحيى وما كان منه في مجلسه من كلام وحديث.

كان سيدي يحيى –كعادة العلماء وأهل الله مع بعضهم– يتأدب كثيراً مع الشيخ أحمد ويقول: إنّ مثلنا مع الشيخ أحمد كمثل الجند مع القائد.

وحدثني الأستاذ محمود الغراب الذي لازم الشيخ أحمد ملازمة كاملة آخر سبع سنين من حياة الأخير، أنّ سيدي يحيى كان يعرف قدر الشيخ أحمد، يزوره دائماً، ولكنه كان إذا دخل مجلس الشيخ الحارون كان الأخير يجلّه ويقدره ولا يتكلم بوجوده، فالذي يتكلم في المجلس إذا اجتمع هذان الشيخان هو الشيخ يحيى والشيخ الحارون يستمع.

أقول: وهذا هو دأب العلماء الربانيين والأولياء العارفين، يتواضعون لله ولأوليائه، وينكرون ذواتهم، ويرون المنزلة والفضل لإخوانهم عليهم، ولا يرون لأنفسهم فضلاً ولا قدراً ولا منزلة على إخوانهم.

ورد عن الصحابي عبد الله بن عمر –رضي الله عنه– : "لا يكون الرجل من أهل العلم حتى لا يحسد من فوقه، ولا يحقر من دونه، ولا يبتغي بالعلم ثمناً"[215].

جاء أناس مرة للشيخ أحمد يشكونه الشيخ يحيى، ينكرون عليه بعض ما يقوله في دروسه، فقال لهم: اذهبوا واحضروا درسه وأخبرونا ما هو الكلام الذي هو مخالف للشريعة حسب زعمكم، فلم

---

[214] سمعت ذلك من بعض عماتي نقلاً عن الحاجة أم نعيم، كما سمعت ذلك من زوجها الشيخ عبد الماجد الحناوي.

[215] مجمع الأحباب (1/477).

يرض منهم شكايتهم، بل راح يدافع عن الشيخ وينتصر له[216]. ولقد أحسن أبو العتاهية حيث يقول: ومن ذا الذي ينجو من الناس سالما وللناس قال بالظنون وقيل

[216] من مقابلة مع الأستاذ محمود الغراب.

مع الشيخ السيد محمد المكي الكتاني

كانت علاقة شيخنا بالشيخ السيد محمد المكي الكتاني علاقة على طرف عال من الحب والاحترام، وعلى درجة فائقة من التميّز والحميميّة، تفوق بتميزها قصة التقائهما أول مرة وتعرّف كلّ منهما على الآخر، وملخص قصة اللقاء والتعارف –كما حدثني السيد الفاتح الكتاني – هي أنّ أولاد السيد مكي توافقوا على رؤيا منامية ترمز لضرورة أن يقرأ والدهم الفتوحات المكية للشيخ بن عربي، فلما رأى الشيخ مكي توافق هذه الرؤيا علم أنها رؤيا حق، أخذاً من حديث ابن عمر أن رجالاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، أُروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر، فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر"[217].

ولذلك ذهب لضريح الشيخ الأكبر بن عربي ومعه والدتي أم الفاتح، فغطى رأسه وبدأ يقرأ بصوت مرتفع[218]، وبينما هو كذلك إذ بشيخ من خلفه يقول له: أشركنا معك في القراءة، فلم يأبه السيد المكي لهذا الرجل كثيراً، فصار الشيخ يحيى يقول: هذه العبارة معناها كذا، وهذه الجملة معناها كذا، فوجد السيد المكي نفسه أمام رجل رباني عارف، كان هذا الرجل الذي يتكلم هو الشيخ يحيى الصباغ، فكانت بينهما جلسة لطيفة يملؤها روحانية عالية وسرور عظيم، ثم يتابع السيد الفاتح وهو يحدثني بذلك قائلاً: لقد كان الشيخ يحيى مرسلاً أيضاً لهذا اللقاء!! هو لم يحدث بذلك، لكنه كان مرسلاً، فلما سألته ممن؟ قال: كان مرسلاً!! فقلت: أمرسل بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم!! ومن هنا بدأت المعرفة بين الشيخين الجليلين وتوطدت العلاقة بينهما لدرجة كبيرة.

يضيف السيد الفاتح: ثم صار يجمعهما لقاء خاص على قراءة الفتوحات كان يحضره معهما الشيخ أبو الخير الميداني، والشيخ إبراهيم الغلاييني، وشيخين آخرين، يقول السيد الفاتح: لا يحضرني اسمهما، بدأ هذا اللقاء في زاوية الدلامية في حيّ الصالحية قريباً من الجسر الأبيض، ولم يكن وقتها مسجداً بل كان زاوية، ثم بعد مدة انتقل هذا المجلس إلى مسجد مازي في حي الميدان.

---

[217] أخرجه البخاري في صلاة التراويح، باب التماس ليلة القدر في السبع الأواخر. ومسلم في الصيام باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها.

[218] وذكر لي كرامة عظيمة حصلت في هذه الحادثة، أعرضت عن ذكرها خشية أن يكذبها من لا يعتقد بكرامات القوم.

أقول: وبلغني أن أصحاب هذا المجلس رحمهم الله كانوا يفتتحونه باستغفار لله عز وجلّ ربما دام ساعتين ثم بعدها يشرعون في قراءة الفتوحات، وكأنهم يستعينون بالاستغفار على الفتح من الله عز وجل.

لقد توطدت العلاقة بين سيدي يحيى والسيد المكي لدرجة كبيرة، وكان بينهما بعض النوادر، من ذلك أن السيد كان له بيت في الزبداني، وكان يستضيف فيه أحبابه، ومرة -كما حدثني السيد الفاتح- أراد السفر إلى بحَمْدون في لبنان، فقال لسيدي يحيى: هذا البيت تحت تصرفك، اجلس فيه واستخدمه في فترة غيابي، وأوصاه السيد في دجاجات كانت في البيت (ما يربو على ثلاثين دجاجة)، بحاجة إلى عناية، وقال له: خلّ بالك من الدجاجات، وإذا رأيت دجاجة أغمضت إحدى عينيها فهذا يعني أنها مريضة، فاذبحها قبل أن تموت، وكانت هذه الدجاجات قد انتقاها من أنفس الدجاجات لا أقول في سوريا بل العالم!! فلما أقبل وقت المغرب بدأت الدجاجات تغمض عيونها للنوم -والدجاج ينام مبكراً- فما كان من الشيخ يحيى إلا أن بدأ ينفذ الوصية، فكلما رأى دجاجة أغمضت إحدى عينيها قام فذبحها! حتى أتى على الدجاجات كلهن، ولم يبق منهن دجاجة واحدة.

وفي اليوم الثاني دعا الناس لمجلس ذكر وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وعمل لهم وليمة شهية بهذه الدجاجات، فلما عاد السيد المكي من سفره سأله: أين الدجاجات؟ قال له: لقد عملت بوصيتك يا سيدي، فما إن أقبل المغرب حتى رأيت الدجاجات بدأت تغمض عيونها الواحدة تلو الأخرى، فذبحتها حسب إرشادك ووصيتك، فضحك السيد من أعماق قلبه.

أقول: والسيد محمد مكي -رحمه الله- هو من أكثر الخلّص الذين يعرفون مذهب سيدي يحيى في التوكل وأنّه لا ينام في بيته وفيه شيء من طعام، وكأني بسيدي يحيى لما أخذ الإذن بالبيات في منزل السيد والتصرف فيه، اعتبره كبيته فلم يستسغ على مذهبه في التوكل أن يبقي هذه الدجاجات، كيف وقد وجد في وصية السيد مخرجاً شرعياً صريحاً لذبح هذه الدجاجات وأن يولم عليهنّ.

ولقد زار مرة جماعة من المغرب السيد المكي رحمه الله، فطلبوا منه أن يرشدهم ويدلهم على أولياء الله تعالى في دمشق الذين يؤمن الشيخ بولايتهم، كي يقوموا بزيارتهم، فدلّهم أول ما دلهم على الشيخ يحيى، وكانت هذه عادته مع من يأتي من خارج سوريا.

لقد كان سيدي يحيى يعرف قدر أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاصة العلماء منهم، فكان يجلّ ويعظم شيخه المحدث الأكبر بدر الدين الحسني إجلالاً عظيماً لا يضاهيه في ذلك أحد غيره، ثم بعد وفاته كان أكثر من يجلّ ويوقر، إنما هو السيد محمد المكي الكتاني، كيف لا وهو -إضافة لنسبه النبوي العالي وإضافة لعلمه وصلاحه- نائب رئيس رابطة العلماء في سوريا لفترة، ثم رئيس هذه الرابطة بعد وفاة رئيسها الشيخ أبي الخير الميداني.

العلماء والحكام

الإسلام دين متكامل، فهو نظام شامل للدين والدنيا، تتحقق به مصالح العباد فيها، وتنعم بتعاليمه وهديه المخلوقات بأسرها، دون أن يغفل أمر الآخرة، لم يترك للإنسان شاردة ولا واردة إلا وبين له حكم الله فيها، وأرشده لكيفية التعامل معها، بدءاً من كونه جنيناً في بطن أمه، وانتهاء بموته، رجلاً أم امرأة، حاكماً أو محكوماً، فهو بناء محكم، ونظام متقن، كل فرد فيه مسؤول بقدره وحسبه، وعليه أن يتحمل مسؤولية ما استرعاه الله دون تكاسل أو تخاذل، ودون كلل أو ملل، فعن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنه: سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كلكم راع ومسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته"، قال: فسمعت هؤلاء من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحسب النبي صلى الله عليه وسلم قال: "والرجل في مال أبيه راع وهو مسئول عن رعيته، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته""[219].

والعلماء قادة وأسوة، وعليهم تبعات ليست على غيرهم، فهذا الكرابيسي (ت:256هـ) من أصحاب الشافعي يؤكد هذه التبعات فيقول: "فإنما يهدم الإسلامَ زلّةُ عالم ولا يهدمه زلّة ألف جاهل"[220]، وهذا اذا انتُصر لهذه الزلة بحمق وجهل. كما أنّ للعلماء عند الله منزلة وجاهاً ليس لغيرهم، فمن منزلتهم أنّ الله أمرنا بطاعتهم فقال: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول) [النساء:59].

فالعلماء الذين يمثّلون الشرع، والحكام الذين هم أولو الأمر، ثنائية متلازمة يجب أن لا تنفصل ولا تتباعد إذا أرادت الأمة التقدم والارتقاء، والأمر عند التنازع يعود للشرع، والعلماء نوّاب عنه بنصّ الآية الكريمة: (فردوه إلى الله والرسول).

وقد شغلت السياسة الشرعية[221] كثيراً من أبواب كتب الفقه الإسلامي، بل بعض علماء الإسلام ألف فيها مؤلفات خاصة، أشهرها (الأحكام السلطانية) للإمام الماوردي (ت:450هـ) و (غياث

---

[219] أخرجه البخاري في العتق، باب العبد راع في مال سيده. ومسلم في الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر الخ.

[220] طبقات الشافعية الكبرى (125/2).

[221] السياسة الشرعية: هي تدبير الشؤون العامة للدولة الإسلامية بما يكفل تحقيق المصالح ودفع المضار، مما لا يتعدى حدود الشريعة أو أصولها الكلية وإن لم يتفق وأقوال الأئمة المجتهدين.

الأمم في التياث الظلم) المشهور بالغياثي لإمام الحرمين الجويني (ت:478هـ)، وهو من أجلّ كتب الفكر السياسي الإسلامي بما يحويه من نظريات ومبادئ سياسية، تشمل سياسة الدولة بجوانبها المختلفة: الرئاسة، والوزارة، والأمن، والثقافة، والجيش، والضرائب، وغيرها.

بل إنّ كثيراً من زعماء السياسة مَن جمع بين الزعامة السياسية والريادة الفكرية، مثل الخلفاء: عبد الملك بن مروان (ت:86هـ) وعمر بن عبد العزيز (ت:101هـ) وأبي جعفر المنصور (ت:158هـ) وهارون الرشيد (ت:193هـ) وغيرهم كثير.

ولقد تحمّل العلماء والحكّام المخلصون على مدى تاريخ الإسلام مسؤولياتهم كاملة لدرء الأخطار عن الأمة، وكان لتعاون العلماء والحكام في مراحل كثيرة من تاريخنا دوراً مهماً في بناء الأمة، فنرى أبا جعفر المنصور يطلب من الإمام مالك أن يضع له كتاب (الموطّأ)، وهارون الرشيد يطلب من القاضي المجتهد أبي يوسف (ت:182هـ) أن يضع له كتاب (الخراج).

وأما دورهم في الجهاد وتجييش الجيوش وقيادتها ففي كتب التاريخ منه الكثير الذي يُذهل ويُدهش ولكنّه –للأسف– مغيّب عن أجيالنا ولا يكاد يذكره مثقفونا، فهذا الإمام أبو الوليد الباجي (ت:474هـ) يجيّش المسلمين لمعركة الزلاقة التي أعادت هيبة المسلمين في الأندلس لمئات السنين.

وهذا الإمام أسد بن فرات (ت:213هـ) صاحب كتاب (الأسدية) من أمهات كتب المذهب المالكي، يقود الجيوش براً وبحراً ثم يموت شهيداً.

وهذا شيخ الإسلام محمد بن سعد الدين (ت:1008هـ) يأخذ بزمام حصان السلطان العثماني محمد الثالث في حرب هنغاريا أثناء معركة لصد الهجوم الصليبي ويصيح زاجراً عندما همّ السلطان بالتراجع: "إنما نعيش لمثل هذا اليوم، نموت شهداء ولا نرى انكسار جيش الإسلام" فكان النصر[222].

وأما في نصحهم للحكام فقد اشتهر موقف الإمام النووي (ت:676هـ) مع الظاهر بيبرس، وموقف العزّ بن عبد السلام (ت:660هـ) مع الملك الأشرف، وموقف ابن أبي ذئب (ت:158هـ) مع الخليفة أبي جعفر المنصور[223] شهرة كبيرة عند أهل العلم.

والمراد بالشؤون العامة للدولة كل ما تتطلبه حياتها من نظم، سواء أكانت دستورية أم مالية أم تشريعية أم قضائية أم تنفيذية، وسواء أكانت من شؤونها الداخلية أم علاقاتها الخارجية. فتدبير هذه الشؤون والنظر في أسسها ووضع قواعدها بما يتفق وأصول الشرع هو السياسة الشرعية.

وبعبارة أخرى هي متابعة السلف الأول في مراعاة المصالح ومسايرة الحوادث.

[222] مقدمات نهاية المطلب (204).

[223] وأكتفي بذكر حادثة ابن أبي ذئب مع الخليفة أبي جعفر المنصور، ابن أبي ذئب هو عالم المدينة المنورة، وهو أعلم من الإمام مالك وأورع، فلما ولي أبو جعفر الخلافة بلغه عن ابن أبي ذئب ومالك وابن سمعان ما كدّر خاطره فطلبهم إلى

إنّ الملوك ليحكمون على الورى وعلى الملوك لَتحكم العلماء

وقصص تعاون العلماء مع الحكام ومناصحتهم تملأ كتب التاريخ والتراجم، وكتِب فيها مؤلفات خاصة، ولكن أكتفي هنا بسوق واحدة من هذه القصص المعبرة التي تبين دخول العلماء على الحكام من أجل نصحهم وحثّهم على الخير، وتبين تقدير واحترام الحكام للعلماء الصادقين الذين لا يتطلعون لمنصب ولا يهتمون لدنيا ولا يسعون إلى جاه من وراء ذلك، بل همهم مصلحة الأمة ودينها وكرامتها لا شيء سواه.

كان الوزير السلجوقي نظام الملك أبو علي الحسن بن علي الطوسي (ت:485هـ) مشتهراً بالاستقامة مظهراً ومخبراً، وكان حكيماً داهية، وكان من صلاحه أنه إذا دخل عليه الإمام أبو القاسم القشيري والإمام أبو المعالي الجويني قام لهما وأجلسهما معه في المقعد، وإذا دخل عليه أبو علي الفارَمَذي (ت:477هـ) الصوفي قام وأجلسه مكانه، وجلس بين يديه! فعوتب في ذلك، فقال: إنهما إذا دخلا قالا: أنت وأنت؛ يطرونني ويعظّمونني ويقولون فيّ ما ليس فيّ، فأزداد بهما مضياً على ما هو مركوز في نفس البشر، وإذا دخل أبو علي الفارَمَذي ذكّرني عيوبي وظلمي، فأنكسر وأرجع عن كثير من الذي أنا فيه[224].

ومما يروى أن السلطان العثماني سليمان القانوني (ت:972هـ) كان لا يقدُم على أمر إلا بعد أن يستفتي العلماء أو شيخ الإسلام (لقب مفتي السلطنة)، ولما توفى كان أوصى بوضع صندوق معه في القبر، فرأى العلماء فتحه قبل الدفن ليعلموا ما فيه، فإذا هو ممتلئ بفتاويهم! فراح شيخ

سرادق الخلافة بالليل، فلما حضروا جعل على جنبي كل منهم شاهر سيف يلمع وحامل عمود من حديد، ثم التفت إليهم وقال: أي الرجال أنا عندكم؟ أمن أئمة العدل أم من أئمة الجَور؟

فقال مالك: أناشدك أن تعفيني من الكلام في هذا. فأعفاه.

وأما ابن سمعان فامتدحه وأثنى عليه.

أما ابن أبي ذئب فقال: أنت والله عندي شرّ الرجال، استأثرت بمال الله ورسوله، وسهم ذوي القربى واليتامى والمساكين، وأهلكت الضعيف، وأتعبت القويّ، وأمسكت أموالهم، فما حجتك غداً بين يدي الله؟!

فقال أبو جعفر: ويحك تعقل ما تقول؟ انظر أمامك!

فقال: نعم، قد رأيت أسيافاً، وإنما هو الموت، ولا بدّ منه عاجله خير من آجله. ثم خرجا وبقي مالك.

فقال أبو جعفر: إني لأجد رائحة الحَنوط عليك! قال مالك: لما جاءني رسولك بالليل ظننته القتل، فاغتسلت وتحنّطت، ولبست كفني.

فقال: سبحان الله! ما كنت لأثلم الإسلام وأسعى في نقضه، عائذ بالله مما قلت! فانصرف راشداً مهدياً.

فبعث الخليفة من ورائهم بصرر فيها دنانير جمّة، مع شرطي أوصاه بقطع رأس ابن أبي ذئب إن قبلها، وبقطع رأس ابن سمعان إن لم يقبلها، وترك مالك حراً في الأخذ والرفض.

فأخذ ابن سمعان فسلم، ورفض ابن أبي ذئب فسلم، وأخذها مالك لحاجته إليها. (مقالات الإمام الكوثري).

[224] مقدمات الإمام الكوثري (162).

الإسلام في وقته يبكي قائلاً: لقد أنقذت نفسك يا سليمان، فأيّ سماء تظلّنا وأيّ أرض تقلّنا إن كنا مخطئين في فتاوينا!؟.

وأما في زمن سيدي يحيى فقد كان للمحدث الأكبر البدر مكانة في قلوب حكام عصره من العثمانيين، وكانوا يحسبون له كل حساب، فكان يدخل عليه في غرفته الصغيرة في دار الحديث الأشرفية الباشوات والولاة منهم، والمفوّضون والقوّاد والجنرالات أيام الفرنسيين، فيخلعون نعالهم عند بابها، ويقعدون بين يديه على بساطها، يستمعون إليه ولا يردون له طلباً مهما جلّ، وكل طلباته كانت في سبيل الأمة ومصالحها، ولم تكن يوماً لمصلحة شخصية أو فئوية، أو انتصاراً لعصبية أو نحوها مهما كان نوعها، وقصصه في السعي للتوسط في قضايا بعض أبناء نصارى الشام لدى الولاة العثمانيين معروفة ومشهورة.

وأما في تاريخنا المعاصر فمعظم أهل الشام يذكرون العلامة الشيخ حسن حبنكة الميداني وجهاده وجرأته في قول الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومواقفه الجريئة مع الحكام البعثيين في إعلاء كلمة الإسلام ومحاربة الكفر والزندقة[225].

لقد كان العلماء في موقفهم من الحكام طوال التاريخ الإسلامي على قسمين:

قسم أغلق بابه دونهم، فاعتزلهم، ورأى في دخوله على السلاطين فتنة له، أو إعانة لهم على معصية، أو إقراراً لهم على ظلم أو باطل قد لا يتمكن من دفعه أو رفعه، فرأى في العزلة والبعد عنهم النجاة والسلامة لدينه والحفظ لكرامته، وعلى هذه الشاكلة كان حال الكثير ممن غلب عليهم التصوف.

وقسم آخر وجد في دخوله على الحكام والسلاطين، والتواصل معهم نفعاً وإفادة في الحفاظ على مصالح الأمة وقضاياها، لثقته بنفسه وترفّعه عن الدنيا وزهده فيها من جهة، ولجرأته في إبداء النصح وعدم تهيّبه من الصدع بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مهما كانت العواقب من جهة أخرى، ولا شكّ أنّ من قدر على ذلك فهو أفضل، لما ورد في حديث صحيح أنّ رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أي الجهاد أفضل؟ قال: "كلمة حق عند إمام جائر"[226].

وهناك فئة ثالثة طالحة جديرة بأن لا تحسب على العلماء، لخص الكلام عنها الإمام السبكي – رحمه الله– فقال: فإنما يُتلف السلاطين فسقةُ الفقهاء، فإنّ الفقهاء ما بين صالح وطالح، فالصالح غالباً لا يتردّد إلى أبواب الملوك، والطالح غالباً يترامى عليهم ثم لا يسعه إلا أن يجري معهم

---

[225] للاطلاع على تفاصيل ذلك انظر: كتاب الوالد الداعية المربي الشيخ حسن حبنكة المَيداني.

[226] أحمد في مسنده.

على أهوائهم ويهوّن عليهم العظائم، ولهوَ على الناس شرّ من ألف شيطان، كما أنّ صالح الفقهاء خير من ألف عابد[227].

[227] طبقات الشافعية الكبرى (2/ 59).

الشيخ يحيى والسياسة

ومن الطبيعي وليس بمستغرب أن يكون حال سيدي يحيى –رحمه الله– كحال أغلب أهل التصوف مع السياسة والحكام، فقد كان لا يحب السياسة ولا يتعاطاها فضلاً عن أن يشتغل بها أو يدعو إليها، فهو شديد النفور منها ومن التعاطي بها، وذلك لما تنطوي عليه –وخاصة في الأزمنة المتأخرة– من المراوغة والمكر وعدم الصدق، ولما تجرّه على المشتغل بها من آثام دينية ودنيوية إن لم يقم بحقها حق القيام، ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه، ولكنّه كان في نفس الوقت يتألم لما يسمع عن أحوال الناس الصعبة ومعاناتهم، وينزعج ويتكدّر للأحداث المؤلمة التي تنجم عن سياسات معينة من بعض الساسة في البلاد الإسلامية، أو من خلال ما يلاحظه أو يسمعه عن ظلم يقع على العباد أو تقصير بحق البلاد يصدر عن أولي الأمر أو القائمين على رعاية مصالح البلاد باسمهم، أو ممّن يلوذون بهم ممّن يتولى لهم منصباً من المناصب أو عملاً من الأعمال، فكان أقصى ما يكون منه المساعدة فيما يستطيع –كما مرّ من حاله– ثم الدعاء والالتجاء إلى الله لرفع الضائقة وإصلاح الحال.

ولقد مرّت حوادث عديدة على سوريا مدّة حياة الشيخ لها علاقة بالساسة والسياسة، وشهدت حياته تطورات متلاحقة، بدءاً من سقوط الدولة العثمانية، مروراً بالاحتلال الفرنسي، ثم الحكم الوطني وما أعقبه من انقلابات متتالية لم تدع سوريا تعرف الاستقرار والهدوء السياسي، لم أتمكن من معرفة ما كان لسيدي يحيى من مواقف حيالها، ولم أجد في ذاكرة أحد من الذين التقيتهم ممّن عرف الشيخ شيئاً عن ذلك إلا بعض النوادر.

من ذلك أنّ الحاج علياً قويدر –حفظه الله– كان يستعد لانتخابات المجلس البلدي خلال فترة حكومة جميل مردم بك (ت:1379هـ)، فجمعه وأخاه أبا الطيب –قبل الانتخابات بيوم– مجلس مع الشيخ يحيى، فقال أحد الحاضرين لجدي: سيدي أُدعُ لعلي قويدر أن ينجح غداً في الانتخابات، فقال جدي للحاج علي: هات خمسمئة ليرة، فأعطاه ما طلب، فأخذها وأعطاها لأبي الطيب، ثم التفت للحاج علي وقال له: الآن أعطينا الخمسمئة لأخيك أبي الطيب من أجل أن يذهب ويصالح زوجته لأنه بينهما خلاف، أما بشأن ترشحك في الانتخابات فوالله لا أنت ولا أحداً من جماعتك سينجح فيها غداً!! يقول الحاج علي فحزنت وكمدت في نفسي، فقال الشيخ يحيى: سواء زعلت أم رضيت فإني أقول لك: والله لن تنجح لا أنت ولا أحداً من جماعتك. وفي صباح

اليوم التالي صدر قرار بتأجيل الانتخابات لأجل غير مسمى، وتأكّد ما تنبّأ به الشيخ كشفاً، وثبت صدق ما قال[228].

وحدثني الشيخ هشام البرهاني قائلاً: لما حصلت الانتخابات البرلمانية أيام الوحدة رُشّحت أنا وأخي جهاد –رحمه الله– للانتخابات رغم أني كنت مسافراً خارج القطر، ونجحنا في هذه الانتخابات وحصلنا على أصوات متقدمة، وكنا من الأوائل في منطقتنا، وحصل أن اختاروا من الاتحاد القومي بعض الأشخاص لمجلس الأمة في مصر، فكان منهم: الشيخ حسين خطاب (ت:1408هـ)، والشيخ عبد الرؤوف أبو طوق (ت:1418هـ)، وأخي جهاد، ولم يختاروني، فصار في نفسي شيء نتيجة ذلك، وتساءلت لماذا لم يختاروني؟ وإذ بالأقدار الإلهية تجمعني بعد يومين بالشيخ يحيى على فطور في بيت سعيد الصباغ بعد مجلس للصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، فلما دخل الشيخ يحيى كان أول ما استقبلني به أن قال لي: (أنا ما بهنّي أخوك، أنا بهنّيك إلك يللي الله بعّدك!) هكذا بالعامية، فأراحني –رحمه الله– بهذا الكلام.

تدل هذه الحادثة أن الشيخ يحيى لم يكن يحب المشاركة في المجالس النيابية، ولا يحب تعاطي السياسة ولا الاشتغال بها من قبل العلماء وطلاب العلم، بل يفضل ترك ذلك لأهله وأصحاب الخبرة فيه.

وفي أحد الأيام استيقظ الشيخ فجراً وأيقظ أهله كعادته، وبعد الصلاة قال لأهله وأولاده: هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا يخبرني بها؟ فقالت له إحدى بناته: لقد رأيت الليلة أن الشيخ الأكبر (ابن عربي) واقف بأعلى الدرج والرئيس حسني الزعيم –وكان يومها رئيساً لسوريا– في أسفله، ومعه أعوانه، وهو يتصاغر شيئاً فشيئاً . . فقاطعها مكبراً على الرئيس حسني الزعيم وأعوانه، واستمر بالتكبير إلى أن طلعت الشمس، وما كاد ينتصف وقت الضحى إلا وجاء الخبر باغتيال الرئيس حسني الزعيم[229].

وكان له مواقف من تصرفات الرئيس جمال عبد الناصر في سورية أيام الوحدة مع مصر، وتعددت أساليبه في إظهار هذه المواقف والتعبير عنها، وذلك بحسب الحال والواقعة، أعرض عن ذكر ما بلغني منها وأكتفي بذكر حادثة واحدة حدثت في أيام الشيخ الأخيرة.

لما مرض الشيخ يحيى مرض موته، وجاء المحبون لعيادته، قال له بعضهم مرة: إنّ الرئيس جمال عبد الناصر تكلّم في أحد خطاباته على المشايخ والعلماء، وكان مما قال: أنّ الواحد منهم

---

[228] من مقابلة مع الحاج علي قويدر.

[229] من حديث عمتي أم وفاء في أحد مجالسي معها، وهي صاحبة الرؤيا.

يرتشي بأكلة فراخ! فانزعج الشيخ لهذا وقال: ألا يريد أن ينتهي عن ذلك؟ هاتوا ورقة وقلم، فكتب على الورقة: (جمال عبد الناصر) ثم أحرقها، وقال: لقد حرقناه!.

بعدها بيوم أو يومين توفي سيدي يحيى، ثم بعد مضي أقل من شهرين على وفاته حدث الانفصال بين مصر وسورية، وكانت نهاية حكم الرئيس جمال عبد الناصر لسوريا.

والشيء اللافت للنظر أنّ سيدي يحيى كان على اطلاع على ما يدور في العالم الإسلامي، وما يكيده الغرب للإسلام، وكان أحياناً يعلق على بعض الأحداث، من ذلك ما حدث أيام العدوان الثلاثي عندما قال الرئيس الأمريكي أيزنهاور أنه يعلن تضامن الشعب الأمريكي مع المظلومين وأنه مع كرامة الإنسان والحفاظ على حقوقه، فعلق الشيخ على ذلك بحديث طويل ثم قرأ قوله تعالى: (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) [البقرة:111]. وقوله عز وجل: (لم تقولون ما لا تفعلون) [الصف:2].

وأيضاً لما كان يرى اجتماع العدو على الأمة كان يسخّر بعض دروسه لتوجيه الناس حيال ذلك، فمما نقل عنه في ذلك في إحدى الشدائد تلاوته لقوله تعالى: (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى) [الحشر:14]. ثم أخذ يحض على الوحدة وترك المعاصي والمنكرات وخاصة الكبائر ويبين أنها سبب كل بلاء.

ومن حال الشيخ في ذلك أيضاً أنه كان إذا أصاب الناس جور من حاكم ورأى ضجر الناس وتململهم، وخشي عليهم تزعزع ثقتهم بربهم واعتراضهم من حيث لا يشعرون على تصاريف المولى وأقداره، خاطبهم في درسه: بشارة! بشارة! أريد أن أبشركم بشارة!! فيستعد الناس لتلقي هذه البشرى ويتهيئون بكليتهم لسماع كلمات الشيخ، فإذا به يقول لهم: أطمئنكم أنّ الله مالك الملك قد استلم أمور الحكم في هذا الكون، ولن ينفذ شيء إلا بأمره وقضاءه.

وهذا أسلوب منه وطريقة مبسطة يتنزّل فيها للعامة لينبّههم أنّ المالك الحقيقي لهذا الكون والمتصرف الوحيد فيه إنما هو الله تبارك وتعالى، وأنه لا يقع شيء إلا بعلمه ووفق إرادته، فليس للمؤمن أن يعترض أو يتضجر، وإنما عليه أن يعمل وفق شرع الله وأوامره ويقوم بواجباته المناطة به، ويتحمّل مسؤولياته وينهض بها بقوة وأمانة، والله عز وجلّ يفعل ما يريد، ويحكم ما يشاء، وليس للعبد وراء ذلك حبة خردل من تأثير.

مجالس الشيخ ودروسه

لم يكن الشيخ يعقد دروساً في العلم على طريقة العلماء في ذاك الوقت، فلم يكن له مجلس في علم معين من العلوم الشرعية، أو كتاب من الكتب العلمية كالفقه والأصول أو غير ذلك، إنما كانت دروسه دروس وعظ وإرشاد على نمط خاص عرف به، وغالباً ما تكون في تفسير القرآن الكريم أو في شرح مقتطفات من كلام ابن عربي في كتابه الفتوحات المكية.

ويمكن تقسيم مجالسه العلمية –رحمه الله– إلى أربعة أقسام:

الأول: مجلس التفسير في جامع الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي:

كان للشيخ مجلس تفسير دائم على مدار العام يعقد كل أسبوع في مسجد الشيخ الأكبر، وهو عبارة عن درس عام في تفسير القرآن الكريم.

في نفس الفترة التي كان فيها الشيخ يدرّس في جامع الشيخ الأكبر كان أيضاً يدرّس فيه الشيخ القدوة الفقيه صالح العقاد (ت:1390هـ) –رحمه الله– الذي كان يلقب بالشافعي الصغير، وكان على نقيض الشيخ في معظم الأمور، فالشيخ يحيى يحب الدعابة والفكاهة، ولا يعارض ولا يمانع بالإنشاد وسماعه ولو في المسجد من المنشدين والمدّاحين، وكان من عادته أنه بعد الدرس يأمر الحاضرين بالتبرع بما تجود به أنفسهم من المال، فيأخذه ويرده على الفقراء ويوزعه على المحتاجين قبل أن يقوم من مجلسه، ولا حرج عنده في الخروج في بعض التصرفات عن المذهب الشافعي إلى مذهب إمام معتبر آخر عند أدنى حاجة. أما الشيخ صالح فإنّه على العكس من ذلك تماماً، فكان جدياً، مهتماً بالعلوم الشرعية، شديد التمسك بالمذهب الشافعي، لا يخرج عنه أبداً في أي أمر من الأمور، كما يكره تعامل الشيوخ بالمال وجمع التبرعات في المسجد، وينكر الإنشاد وسماعه في المساجد، وأشياء أخرى يعدها من البدع.

ومع هذا التباين كان من قدر الله تعالى أن الشيخ صالح هو الذي صلى على جنازة الشيخ يحيى في هذا المسجد.

الثاني: مجلس الوعظ والإرشاد في جامع بني أمية الكبير (الأموي):

كان للجامع الأموي مكانة خاصة عنده –كما هو عند كثير من العلماء– وكان له فيه تواجد كثير ومتواصل، وكان شديد التعظيم لقبر النبي يحيى عليه السلام فيه، ويحض الناس على التأدب في حضرته، وكم نهى أناس وعنف آخرين رأى منهم استهانة في التأدب في حضرة مقام

هذا النبي الكريم، فكأنّه كان يعتقد جازماً أنّ هذا المقام هو مقام النبي يحيى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والتسليم.

كان لسيدي يحيى في هذا المسجد درس عام يلقيه كل يوم من أيام رمضان، يعظ فيه الناس بما يناسب هذا الشهر الفضيل، وسمعت من الشيخ المعمّر أبي حسين بدر الجوبراني أن الشيخ يحيى كان له درس في هذا المسجد كل يوم جمعة بعد صلاة العصر، بعد درس شيخه المحدث الأكبر، لكن لم أسمع ما يؤكد هذا من غيره.

بالإضافة لهذه الدروس فقد كان له دروس أخرى في بعض أيام السنة في المجالس العامة التي تكون في هذا المسجد.

الثالث: مجلس الفتوحات المكية بالشيخ الأكبر وفي منزله:

كان للشيخ درس عام في الفتوحات المكية في جامع الشيخ الأكبر يتكلم فيه بما يناسب العوام من الناس من الموعظة والإرشاد، ولكن بالمقابل كان له مجلس خاص في بيته في الفتوحات المكية أيضاً كل يوم جمعة بعض صلاة الفجر، وكانت طريقته في قراءة الفتوحات أن يقرأ الفاتحة ثم يفتح الكتاب عشوائياً، ثم يعطي الكتاب لأحد الحضور وهو رجل فاضل من بيت عجاج، فيقرأ من الصفحة التي فتح عليها الشيخ عشوائياً، ويبدأ بالشرح مما يلهمه الله تعالى ويفيضه على قلبه ويجريه على لسانه.

اشتهر سيدي يحيى بأنه لا مثيل له في فهم الفتوحات وشرحها وتدريسها والاستشهاد لمسائلها من الكتاب والسنة، واستخراج كنوزها ولآلئها بما يفتحه الله عليه، وبما وهبه من قدرة على فهم كلام الفتوحات وشرح معانيه، حتى لتحسبه أنه هو مؤلف الفتوحات وأنه صاحبها، وقد بلغني عن كثيرين أنه سبق شيخه الشيخ محمد أمين سويد في ذلك.

وقد حدثني السيد محمد الفاتح الكتاني وغيره ممن عرف سيدي يحيى أنّه كان يقرئ الفتوحات وكأنه يستظهرها كلها من حفظه، ويشرحها شرحاً قل نظيره. أقول: إنّ تمكُّن الشيخ من ذلك هو فتح من الله لا شك ولا ريب، وهو يدل على بلوغه منازل هؤلاء الرجال الكبار.

لقد صدت غوامض هذا الكتاب وأسرارُه ورموزُه كبار العلماء عن تدريسه بل تصفحه، وحذروا مما سموه شطحات ابن عربي، وكثير منهم أفتى بحرمة تدريسه ومطالعته وأمثاله من كتب القوم لمن لم يفهم مصطلحاتهم ولم يبلغ حالهم ولم يدرك مقاماتهم، وحذّروا من ذلك أشدّ التحذير، وقد نُقل عن ابن عربي نفسه قوله: من لم يبلغ مقامي فلا يقرأ كلامي. وكان شيخي الشيخ عبد الكريم الرفاعي رحمه الله يقول: طعام الكبار سمّ للصغار[230].

---

[230] انظر تفصيل هذا المعنى في فصل وحدة الوجود والاتحاد والحلول.

وهذا المنع والتحذير يدل على سعة أفق علمائنا وحسّهم العالي في الخوف على العامة، واهتمامهم الكبير بالحفاظ على عقيدتهم، وصون ألسنتهم عن الخوض في عقيدة القوم ودينهم، بما لا طائل منه إلا التشكيك في كلامهم وسلامة مقاصدهم، لأنّ من يقرأ كتب القوم ممن لم يبلغ منازلهم هو بين أن يكفّرهم إن أساء الظنّ بهم، وبين أن يفهم كلامهم فهماً سيئاً لم يريدوه، فيفسد معتقده ويذهب رشده.

وقد كان سيدي يحيى لا يسمح بحضور دروسه الخاصة في الفتوحات لمن لم يكن مؤهلاً لسماع كلام ابن عربي، فقد بلغني أنه كان إذا وجد بعض الحضور غير مؤهل للدرس كالشباب اليافعين فإنه لا يبدأ درسه حتى يخرجهم بطريقة لبقة وذكية.

الرابع: مجالسه العامة المتنقلة:

كان من عادته أنه أينما جلس فلا بد أن يكون منه موعظة أو درس، فإذا دخل مسجداً من المساجد للصلاة في أي وقت، قام بجمع الناس بعد الصلاة، ووعظهم بما يفتح الله عليه، بطريقته الخاصة والمميزة في إرشاد العامة وتوجيههم.

وكان لا يترك ذلك في مجالس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم التي يحضرها.

كانت للشيخ حجة قوية فشواهده على أقواله دائماً حاضرة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، سواء في تدريس الفتوحات أو التفسير، هذه الحجة القوية كان يصاحبها بساطة في التعبير، وعدم التكلف بالكلام، فقد كان يتكلم على عفويته، لا يبالي بتزويق العبارات ولا بتنميق الجمل، بل كان يتنزل في حديثه ليفهمه العامي البسيط، والولد الصغير، ويؤخذ به العالم النحرير، فهو يتكلم بعلم لا يوجد في السطور، ولم يقيد بكتاب، بل هو فتح من الله يفتحه على أحبابه وخاصته من خلقه، وعطاء منه تعالى يؤتية من يشاء، وربما تكلم بما يجول في نفس بعض المتشككين به أو المنتقدين عليه، فمن ذلك ما حدّث به مراراً الشيخ أديب الكلاس أنّ شيخه العلامة الشيخ صالحاً الفرفور أرسله إلى مسجد الشيخ محيي الدين ليدرس فيه كتاب (نور الإيضاح) في الفقه الحنفي، يقول: فدخلت المسجد وإذا بشيخ يلقي درساً في التفسير، فسأل مستفسراً عنه، فقيل له: هذا الشيخ يحيى الصباغ، ولم يكن يعرفه، فجلس يستمع له، وكان يتكلم عن حادثة الإفك، فأحاط بها من كل جوانبها إلا أنه كان يتكلم بالعامية، فخطر في قلبي لو أن الشيخ يتكلم العربية الفصحى لكان أفضل، وما كاد الخاطر يتركني إلا ونظر الشيخ يحيى إليّ فجأة وأصبح يتكلم بالعربية الفصحى، ثم هزّ رأسه وقال لي: (منيح هيك؟!!)، يعني هل أعجبك هذا الكلام الفصيح؟

ومن يومها دخلت محبة الشيخ في قلبه وصار يحضر دروسه، وصار له معه ملازمة وتواصل مستمر.

كل هذا يؤكد أن الشيخ كان يتكلم عن فتح إلهي وعلم لدنيّ، وليس فقط عن دراسة من كتاب أو سماع من أستاذ، أو تلق عن شيخ، وإنما هو الفتح يفتحه الله على من يشاء من عباده الصالحين وأولياءه العارفين (وعلمناه من لدنا علما) [الكهف:65].

درسه في تفسير القرآن العظيم:

كلّ من عرف الشيخ وسمع دروسه في التفسير أخِذ به وعلم أنه لا يُشق له غبار في تفسير القرآن بالقرآن، وكان بعض التلامذة المشهورين بالقرآن والإقراء يسألونه بعض الأسئلة، ومرادهم في ذلك اختبار علمه وحفظه، فكان يحاججهم بالقرآن وتفسيره، ويؤيده الله بالقرآن، فيجيب على أسئلتهم، ثم يبادرهم قائلاً: هاتوا جواب المسألة الفلانية، والمسألة الفلانية أيها الحفظة القراء!! فيعجزون عن مجاراته. فنعوذ بالله من حسد يسدّ باب الإنصاف.

لقد تحدث كل من سمع درسه من العلماء فضلاً عن العامة، أنّ درسه في التفسير كان درساً لا نظير له، فلم يكن له مثيل ولا شبيه يوضح حقائقه ويكشف دقائقه، فمن ذلك: تفسيره (للمتقين) من قوله تعالى: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون) [البقرة:3] أنّ الآية تدلّ على أنّ المؤمن التقي لا تجب عليه الزكاة!! ويفسر ذلك قائلاً: لأنّ المؤمن التقي دائم الصدقة والإنفاق تطوعاً مما يرزقه الله ويعطيه، فهو لكثرة إنفاقه لا يجتمع عنده نصاب الزكاة، ولو ملك نصاباً فإنه لا يحول عليه الحول وهو في حوزته، فكيف يتصوّر منه الزكاة؟.

وكان على هذا الحال كثير من علماء هذه الأمة سلفاً وخلفاً، فيروى أنّ الليث بن سعد (ت:176هـ) –رحمه الله– كان دخله الصافي ثمانين ألف دينار من الذهب في السنة، ولم تجب عليه زكاة قط، لأنه لا يستبقي منها ما يحول عليه الحول، والليث هذا هو الذي قال عنه الإمام الشافعي: "الليث أفقه من مالك ولكن ضيّعه أصحابه"[231].

وقبل أن أتحدث عن تفسيره للقرآن بالقرآن واستشهاده بالآيات القرآنية واستحضاره لها، أسوق هذا الحديث، فعن حمران مولى عثمان بن عفان قال: مرت على عثمان فخارة من ماء فدعا به، فتوضأ، فأسبغ وضوءه، ثم قال: لو لم أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مرة أو مرتين أو ثلاثا ما حدثتكم به، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما توضأ عبد فأسبغ الوضوء، ثم قام إلى الصلاة، إلا غفر له ما بينه وبين الأخرى"، قال محمد بن كعب: "وكنت إذا سمعت حديثاً عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم التمسته في القرآن، فالتمست هذا فوجدت: {إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم

---

[231] انظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي، حرف اللام.

نعمته} ، فعلمت أن الله لم يتم عليه النعمة حتى غفر له ذنوبه، ثم قرأت الآية التي في سورة المائدة {إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق} [المائدة:6]- حتى بلغ - {ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم} [المائدة:6] ، فعرفت أن الله لم يتم عليهم النعمة حتى غفر لهم"[232].

كذلك كان شيخنا لا يضارعه في هذا أحد في زمنه، فقد كان استحضاره للآيات القرآنية استحضاراً عجيباً، بما يؤكد أنه فتح رباني وعطاء إلهي، فكان من دلائل متانة حفظه وتمكنه منه أنه لا يمكن أن يمسك عليه أحد أيّ سهو أو خطأ أثناء تلاوته عن ظهر قلب، بل كان يقول مشجعاً الحفظة على تمكين محفوظاتهم: من يمسك عليّ خطأ في الحفظ أعطيه ليرة ذهبية مكافأة له! ولم يحظ أحد بهذه الليرة أبداً! إلا ما تقدم ذكره عن تلميذه السيد منير البكري رحمه الله.

وأما تفسيره واستشهاده بالآيات على المواضيع التي كان يتكلم فيها فقد كان الفتح الإلهي فيه واضحاً كالشمس، فهو مصدره ومورده، فقد شهد له بذلك الجمع الغفير، ممن سمع درسه في المسجد الأموي، أو في مسجد الشيخ محيي الدين، أو في مجالس الصلاة على النبي أو غيرها من المجالس.

وأما غوصه على المعاني الدقيقة وحسن ربط الشواهد ببعضها فقد أجمع الناس على أنّه فرد في ذلك ولم يلحقه فيه أحد، ولكن للأسف لم يبق شواهد من دروسه في هذا إلا النادر مما بقي في ذاكرة بعض الأفاضل.

فمن أمثلة ذلك: ما حدّث به الشيخ أديب كلاس فقال: كان لي درس في المسجد الأموي في شهر رمضان، وكنت أثناء إلقاء الدرس أرى قريباً من حلقة درسي الشيخ يحيى جالساً مسنداً ظهره إلى أسطوانة في المسجد، يستمع، وفي أحد الأيام تأخرت عن الدرس بسبب المواصلات، ولما وصلت؛ وجدت الشيخ يحيى يجلس مكاني ويلقي الدرس! فجلست حيث انتهى بي المجلس أستمع كبقية الناس، فسمعت منه تفسيراً لم أقرأه في الكتب، ودهشت منه كيف يربط بين الآيات، وينتقل من سورة إلى أخرى مستحضراً القرآن بشكل مدهش، وكان مما شرحه في ذاك الدرس قوله تعالى: (قال قائل منهم إني كان لي قرين) إلى قوله تعالى: (فاطلع فرآه في سواء الجحيم قال تالله إن كدت لتردين ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين) [الصافات:50-57]. فقال: هذان هما نفس الأخوين أصحاب الجنتين المذكورين في قوله تعالى: (واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً) [الكهف:32-43].

[232] عبد الله بن المبارك، الزهد والرقائق (316).

ومما نقل عنه في التفسير أيضاً تفسيره لقوله تعالى: (وما نهاكم عنه فانتهوا) [الحشر:7] قال: الأمر من الرسول صلى الله عليه وسلم –لكونه نائباً عن الله عز وجلّ– هو أمر الله، فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله (قل إنّ الأمر كلّه لله) [آل عمران:154] و (لله الأمر من قبل ومن بعد) [الروم:4] وحصرها في نبيه (فلا ينازعنك في الأمر) [الحج:67]، وحذّر الجميع عن مخالفة أمره بقوله: (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) [النور:63]، فمرجع الكل إلى هذا الأمين على الشريعة، فمن تمسّك بالشريعة فقد تمسّك بكل الطرائق الموصلة إلى الله عز وجلّ[233].

قالي لي بعض من حضر دروسه: كان إذا خاض في التفسير فإنه يكون كالبحر المتلاطم الذي لا ساحل له، ويأتي بكلام ومعان لم يسبق إليها، ولا توجد في كتاب من كتب التفسير أو غيرها، ولم يُر من يفري فريه.

وكم سئلت عن دروسه فيما إذا كان أحد من العائلة يحتفظ بنسخ مسجلة أو مدونة عنها، فأجيب بالنفي، فيقال لي: إنه لمن الخسارة أنّ دروسه لم يعتن أحد بتسجيلها أو تدوينها، فإنّ كثيراً مما كان يقوله الشيخ يندر أن يوجد في كتاب.

ولله درّ إمام النحاة ابن مالك (ت:672هـ) حين قال: "إذا كانت العلوم منحاً إلهية ومواهب اختصاصية، فغير مستبعد أن يُدّخر لبعض المتأخرين ما عسُر على كثير من المتقدمين"[234].

ومما قاله لي الأستاذ محمود غراب: "أنا لم أر نظيراً للشيخ يحيى في تفسير القرآن الكريم، لقد كان له فيه ذوق فريد"، وقد كان إضافة للتفسير العلمي المنضبط بقواعد العلم يتكلم أيضاً بالتفسير الإشاري، ويستنبط المعاني من الآيات بما يبهر العقول ويحيي النفوس ويذهل الألباب، ويشد المستمع لكلامه ويجذبه إليه جذباً، مهما كان سنه أو علمه أو قدره.

التفسير الإشاري:

والتفسير الإشاري هو لغة القلب التي تدرك بالذوق ولا يحيط اللفظ بالتعبير عنها، فالإشارة ترجمان لما يقع في القلوب من تجليات ومشاهدات، وهي لغة المحب مع المحبوب، وتلويح للمعنى المراد بما يفيض الله به على صفوته وأحبابه من أسرار في كلام الله وكلام رسوله.

فبعض الصوفية المحققين وبعض الأئمة المدققين أثبتوا المعاني وحققوا المباني، وأخذوا الإشارة من ظاهر اللفظ وباطن المعنى[235]. فيأتون بتفاسير ومعان لا تجدها عند الذين يأخذون بظواهر

---

[233] قال هذا في أحد دروسه للخاصة، فقد يجد العامي الذي لم يطلب العلم بعض الصعوبة في الربط بين هذه الآيات وفهم كلام الشيخ.

[234] قواعد التصوف، قاعدة (37).

[235] انظر: المصدر السابق، القاعدة (77).

الألفاظ، بل هي معان يتجلى الله بها عليهم ويفيضها على قلوبهم، قد لا يدل عليها ظاهر اللفظ، ولكنها ليست عشوائية وإنما تخضع لقواعد علمية، ولا تتعارض مع الأصول الشرعية، فإن تعارضت فهي تفسير باطني مردود على صاحبه.

وإليك بعض الأمثلة للتفسير الإشاري عند سيدي يحيى:

ففي تفسيره لقوله تعالى: (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق) [الجاثية:29] قال رحمه الله: المراد بالكتاب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأن المصحف لا ينطق بنفسه إلا بمحمد صلى الله عليه وسلم بقوله عنه: (بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم) [محمد:2] فالحق بقوله تعالى: (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) [الإسراء:105] فالنطق بمحمد صلى الله عليه وسلم، والبيان بمحمد صلى الله عليه وسلم، (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) [النحل:44] فمحمد صلى الله عليه وسلم هو المبين.

فتأمّل كيف يستحضر الآيات القرآنية استحضاراً عجيباً مع الربط بينها، وكيف حشدها ليدلّل على فهمه لقوله تعالى: (هذا كتابنا) في الآية الكريمة.

وفي تفسيره لقوله تعالى: (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) [طه:131]. قال: (زهرة الحياة الدنيا) يعني النساء مما زاد عن أزواجه صلى الله عليه وسلم. بينما المعنى الظاهر: لا تنظر إلى ما أعطينا أزواجاً، أي أصنافاً منهم زهرة الحياة الدنيا، أي زينتها وبهجتها.

وقال في قوله تعالى: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) [المجادلة:11]. (درجات) يظهر فيها العلماء بالله ليراهم المؤمنون.

أسلوبه في الوعظ وقوة حجته

أما في الموعظة والرقائق فقد كان له فيهما أسلوب فريد قلّ أن يجاريه فيه أحد، فقد كان يعتمد على ربط الناس بالله من خلال واقعهم العملي وحياتهم اليومية، بعيداً عن التكلف في الموعظة، فإذا زاره أحد في البيت فإنه غالباً ما يجد كتاب الفتوحات المكية بجانبه، وكان يطلب منه بعض الزوار أن يبخّت لهم منه –وهذه عادة موجودة عند كثير من أهل الشام وغيرها، أنّ الواحد منهم يفتح القرآن الكريم عشوائياً يستروح من ذلك الفأل الحسن– فكان يبخّت لهم من الفتوحات ويقرأ منه بضع كلمات أو أسطر، ثم يتكلم ما شاء أن يتكلم بما يفتحه الله عليه مما يلائم حال السائل، وكثيراً بل غالباً يكون ما يتكلم به الشيخ ليس له علاقة البتة بالكلام الذي قرأه من الفتوحات، وإنما يدخل في أعماق نفس السائل وهواجسه، وربما يتكلم الشيخ بفتح وكشف من الله بحال الشخص وما هو واقع فيه.

أما في المجالس العامة فكان يجيد ضرب الأمثلة التي تشدّ الناس وتهز نفوسهم، فمثلاً لحثّ الناس على شكر الله تعالى حدث أن أهدي له في إحدى الليالي شيئاً من اللحم، فقال لزوجته: قومي اعملي لنا بها كبة (أكلة شامية مشهورة). فقالت له: في هذا الوقت من الليل تريدني أن أعمل الكبة؟! أنا لست مستعدة ولا قادرة على ذلك الآن، فأخذ اللحم وخرج ليتصدق به على من يلقاه في الشارع، عملاً بعادته بعدم تبييت شيء من الطعام للغد، فلم يلق أحداً، إلا أنه رأى كلباً أو أكثر فأطعمها هذا اللحم، ثم عاد إلى البيت، وفي الصباح وعند خروجه لصلاة الفجر وجد الكلاب التي أطعمها تنتظره أمام البيت، ثم تبعته إلى المسجد، فلما بدأ درسه أو موعظته بعد الصلاة كان مما قاله للحضور: هذه الكلاب أحسن من بعض الناس!! أطعمتها مرة واحدة فلم تتركني، والله عز وجل يطعمنا ويسقينا ليلاً ونهاراً صباحاً ومساء، ويمدنا بنعمه الكثيرة المتنوعة التي لا تعدّ ولا تحصى طيلة حياتنا، ومع ذلك فإنّ كثيراً من الناس يتنكرون لنعمه وينسونه وينسون أفضاله ولا يؤدون شكره.

وقد يقول قائل كيف يطعم اللحم للكلاب، أليس الفقراء –وما أكثرهم– أولى بذلك؟ وجواباً على ذلك يستحسن أن أذكر القصة التالية: وهي أن عبد الله بن جعفر (ت:80هـ) –رحمه الله– نزل على نخيل قوم، فرأى غلاماً يعمل فيها قد أتى بطعامه ليأكله، فدنا منه كلب، فرمى إليه بقرص من طعامه، فأكله، فرمى إليه بالثاني والثالث، فأكله، فقال له عبد الله: يا غلام، كم قوتك كلّ يوم؟ قال: ما رأيت. قال: فلم آثرت هذا الكلب؟ قال: ما هي بأرض كلاب، إنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت رده[236].

---

[236] الرسالة القشيرية (421).

ولحثّ الناس على النوم باكراً والقيام للتهجد في الأسحار كان يقول: الكلاب تحمل وتلد في البطن الواحد خمسة أو ستة في أكثر الأحيان، ومع ذلك نراها قليلة العدد لا بركة فيها رغم أنها لا تؤكل، وأما المواشي من الأنعام كالغنم، فإنها لا تحمل في البطن الواحد أكثر من واحد إلا نادراً، والناس يأكلون لحمها كل يوم، ويتقربون إلى الله بذبحها، فالأضحية جزء من المناسك، فتذبح بأعداد كثيرة جداً، ومع كل ذلك فهي كثيرة ومتوفرة، قد بارك الله في عددها ولحمها، فما يريد أحد أكل لحمها إلا وجد منه الكثير، أتدرون سر ذلك؟ الأنعام تنام باكراً أول الليل وتقوم عند السحر في الوقت المبارك الذي يتجلى الله فيه على خلقه برحماته وعطاءاته، وأما الكلاب فتعوي وتنبح طول الليل، فإذا جاء وقت السحر وقت البركة والتجلي الإلهي غفلت عنه ونامت، فتلك تعرضت لنفحات الله فبارك الله بها، وهذه نامت وأعرضت عنها فمحقت بركتها.

وكان –رحمه الله– إذا رأى الذاكرين في مجلس من المجالس قد أغمضوا عيونهم لحضور القلب واستجلاب الخشوع، فإنه خشية أن يغلبهم النوم على هذه الحالة، كان يحثهم على النشاط وطرد النعاس قائلاً: افتحوا أعينكم فإنّ الله بصير.

ومن أمثلة حسن وعظه في حثّ الناس على الصدقة أنه عقب أحد دروسه أمر الناس بالصدقة كعادته، وأمر شخصاً أن يحمل منديلاً أو نحو ذلك ويمرّ على الحضور ليتصدق كل منهم بما تجود به نفسه، ولما وضعت النقود أمام الشيخ نظر فيها فاستقلّها فتوجّه إلى الحضور وقال: "هذه النقود لم تطفئ غضبي، فكيف بغضب الربّ جل جلاله!!".

انظر إلى هذه اللفتة الخفية لحديث النبيّ صلى الله عليه وسلم: "إنّ الصدقة لتطفئ غضب الربّ وتدفع عن ميتة السوء"[237].

وذكرت فيما سبق أسلوبه في لفت النفوس إلى الله تعالى عندما يصيب الناس ضيق أو شدة من حاكم[238].

قوة حجته وبيانه:

وأما ما كان يتمتع به من قوة الحجة والبيان فقد شهد به أهل العلم والبيان أنفسهم، فإنه كان يملك القدرة على أن يفحم المجادل والمعترض بقوة الدليل والبرهان، فقد يحدث أن يعترض عليه البعض ممن ينكر الكرامات أو يرى حرمة الاستغاثة والتوسل بالأنبياء والصالحين، وغير ذلك مما لا يروق للبعض، فكان يأتي بحجته ودليله من القرآن الكريم حصراً، وأحياناً من حديث

[237] الترمذي (664) عن أنس رضي الله عنه.

[238] انظر: فصل العلماء والحكام.

رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيرد عليهم أبلغ الرد، ولا يقوم لحجته أحد، ويعجزون عن الجواب، وهذه بعض القصص في ذلك:

اعترض أحد الأشخاص على الشيخ في أحد المجالس لأنه استغاث برسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال له: يا شيخ! إنّ الأموات لا تنفع ولا تضر، فقال له: هل تعرف قصة الإسراء والمعراج؟ قال المعترض: نعم، إنها في الصحيح، فقال له: هل لك أن تسردها علينا، فشرع المعترض يذكر قصة المعراج، فلما وصل في سرده إلى حيث قال موسى لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، وتكرر ذلك الرجوع والذهاب إلى أن تمّ تخفيف الصلاة من خمسين فريضة إلى خمس، قاطعه الشيخ قائلاً: هل كان موسى حياً لما اجتمع في السماء بالنبي صلى الله عليه وسلم وحدث ذلك الذي ذكرت من القصة؟ قال الرجل المعترض: لا، لم يكن موسى حياً بل كان ميتاً من مئات السنين، فقال له الشيخ: فكيف إذن نفع في تخفيف الصلاة وهو ميت؟ فأفحم الرجل ولم يجد جواباً.

ومن ذلك أيضاً أنّ رجلاً سمعه وهو يدعو الله تعالى، يقول في دعائه: يا رسول الله!! فقال له هذا الرجل: يا شيخ هذا شرك!! لا يجوز لك أن تنادي وتقول يا رسول الله، فقال له: هل تحفظ التشهد الذي نقوله في كل صلاة؟ قال: نعم، ومن لا يحفظ التشهد؟! فقال: أسمعني، فأخذ الرجل المعترض يقرأ التشهد، فلما وصل إلى قوله: السلام عليك أيها النبي، قاطعه الشيخ يحيى وقال له: لماذا تنادي رسول الله في التشهد، وتقول أيها النبي، أليس هذا شرك؟!! فعيي الرجل واستحيى من نفسه وسكت.

ومرة كان شيخنا يدعو الله عز وجل ويستغيث وينادي: يا الله يا الله، يا رسول الله، يا رسول الله، فإذا بأحد الجالسين يعترض عليه ويقاطعه قائلاً له: ألا يكفي الله وحده؟ لماذا تقول يا الله، يا رسول الله؟ فقال له الشيخ: إنّ الله عز وجل يقول في كتابه مخاطباً أزواج رسوله صلى الله عليه وسلم: (وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير) [التحريم:4] ألا يكفي الله وحده حتى يحشد الله تعالى كل هؤلاء ويذكرهم؟ جبريل، وصالح المؤمنين، والملائكة، أفلا يكفي الله وحده[239]؟؟

إنّ كلّ ما تقدم يثبت للحصيف المنصف أنّ الشيخ كان مسدّداً وملهماً من الله تعالى، وكم هكذا أصاب المحزّ وطبّق المفصل، فكفى وشفى، وروى وأروى، وما ذلك إلا لتجرده وعبوديته الخالصة لله تعالى.

---

[239] ذكر لي تلك الأخبار شيخي الشيخ وصفي المسدي تغمده الله برحمته.

لذا قال أهل المعرفة: "وقد ثبت أنّ دقائق علوم الصوفية منح إلهية، ومواهب اختصاصية، لا تنال بمعتاد الطلب"[240].

وورد: "من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم"[241].

---

240 قواعد التصوف، قاعدة (23).

241 سبق تخريجه.

زلات العلماء تُطوى ولا تُروى

كان لسيدي يحيى كما بينت أسلوبه المتميز في الوعظ والإرشاد، فيكاد يكون أسلوباً فريداً لم يعرف به أحد من معاصريه أو -ربما- غير معاصريه، وهذا التميز والتفرد في الأسلوب والطريقة يأتي من أنّه لم يكن ينظر لنفسه ولا يفكر فيها، ولم يكن يتكلم ليمجد ذاته أو ليتبوأ منزلة بين الناس، أو لينال رتبة أو شهرة، فهو على خلاف ذلك تماماً، فلم تكن النفس وحظوظها همه، ولم تكن الدنيا ومراتبها شغله، فقد كان همه أن يكون دلالاً على الله وهادياً ومرشداً لعباد الله، فكان حاله ومقاله (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم) [الصف:10].

ولقد كان -أيضاً- لطريقة الكلام التي يمتاز بها، والعفوية التي تغلب على تصرفاته، مع ما وهبه الله من قوة في الحجة وجهارة في الصوت، أثراً في هذا التميز الذي اشتهر به في مواعظه ودروسه.

يأخذ عليه البعض أنه كان لا يأبه لبرنامج موضوع للمجلس، أو لدور يراعيه ليتكلم، أو لا ينتظر أحداً من القوم ليقدمه أو ليستأذن منه في الحديث، وما إلى ذلك من ترتيب أو تهيئة أو استعداد، بل كان حاله في المجالس أنه إذا رأى أن الحال يستدعي الكلام لفائدة، أو جاءه فتح من ربه، شرع في الكلام ورفع صوته بالحديث، ودخل في الموعظة التي يريد أن يؤديها، غير آبه ولا مكترث لتنميق الكلام ولا تزويقه، ولا حاجة لمحسنات أو مقدمات، ولا داعي لجناس أو طباق، بل الغاية تأدية المعنى وإبلاغ النصيحة، وإيصال الرسالة والمقصود على الوجه الذي يلهمه الله له لمثل هذا المقام، أو يرى الشيخ أنه ينسجم مع طبيعة بعض المخاطبين الذين يقصدهم لذاتهم بكلامه ولا يصلح لحالهم إلا أمثال هذه الطريقة في الخطاب، وربما وجد بعض الناس أو بعض أهل العلم أو غيرهم في ذلك مجافاة للباقة التي تكون عند أهل العلم والمتصدرين للوعظ، أو ألفاظاً لايناسب أن تخرج من واعظ، فما بالك إن كانت من عالم أو عارف! أو إخلالاً للبرنامج الموضوع للمجلس أو خروجاً عن المألوف فيتضايقون من ذلك وينزعجون، ويزداد الاستهجان والاستغراب والضيق عند من لم يعرف الشيخ ولم يكن له علم بأحواله، أو ليس له معرفة بأساليبه وطرائقه، أو ممن لا يستسيغ هذا اللون من الكلام العامي، أو الموعظة بهذا الصوت الصاخب المجلجل، وربما تكلم الشيخ بكلام ينكره عليه البعض لأنه مخالف لأدب العلماء في الحديث ومسلكهم العام بالموعظة والكلام، أو قد ينظر المنكر أو الممتعض دون تمعن فيعطي حكماً متعجلاً دون تؤدة، إما لسوء ظنه بالشيخ أو لعدم فهمه لمعاني الكلام، وهذا كثيراً ما يكون سبباً في الاعتراض.

النجم تستصغر الأبصار رؤيته   والذنب للطرف لا للنجم في الصغر

يروى أنّ عالم العربية الشيخ سعيد الأفغاني (ت:1417هـ) –رحمه الله– مرّت به جنازة، فسألته امرأة: من المتوفي؟ فقال: الله. فقالت المرأة: فضائل قل هو الله أحد! الله يخرب بيتك!. هذه المرأة أنكرت عليه مقولته لجهلها بمدلولات الألفاظ، ولم تعرف أنه أجابها عما سألت، حيث سألته عن المتوفي –بكسر الفاء– لا عن المتوفى –بفتحها–، وفرق كبير بينهما، فالمتوفي هو الله، والمتوفى هو العبد.

ومن النكت الطريفة من هذا القبيل أنّ تلميذاً –ممتعضاً من الأحرف اللثوية– قال لفارس الخوري (ت:1383هـ): ما فائدة الحروف اللثوية، ولماذا نتكلّف لنخرج لساننا عند التلفظ بها؟ فأجابه: لا فائدة لها أبداً. وسنتركها لنقول: "كسّر الله أمثالك"[242].

وصدق المتنبي بقوله:

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً   وآفته من الفهم السقيم

أو ربما ينكر الممتعض أو المتعجّل لأنه يرى أنّ ما يسمعه من الشيخ مخالف لسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام، ضارباً بحسن الظن بأهل العلم وأهل الله عُرض الحائط، مع أن الواجب على هذا المنكر أن يلتمس العذر وأن يحمل ما سمع على أحسن أحواله، وما أحسن قول من قال:

وعين الرضى عن كل عيب كليلة   وعين السخط تبدي كلّ المساوي

وقد ذكر صاحب مجمع الأحباب ما مفاده: أن الناظر في كتب القوم قد يجد ما ظاهره يخالف ظاهر الشرع، فهذا إن صدر عن من هو مجمع على ولايته فإنه يجب تأويله وحمله على محمل صحيح، وإذا وجد ممن ليس كذلك فهذا يعرض عنه وعن قوله.ا.هـ

وهكذا يجب أن يكون أيضاً الحال مع باقي أحوالهم.

ويقول العلامة زرّوق: "الانتساب مشعر بعظمة المنتسَب إليه . . فلذلك لزم احترام المنتسِب لجناب الله بأي وجه كان، وعلى أي وجه كان . . فمن ثمّ تضرر كثير ممن تعرّض للاعتراض على المنتسبين لجناب الله، وإن كانوا محقين، إذ الحق يغار لهتك جانبه"[243].

ويقول: "من دواعي الإنكار على الصوفية النظر لكمال طريقهم، فإذا تعلقوا برخصة، أو أتوا بإساءة أدب، أو تساهلوا في أمر، أو بدر منهم نقص، أسرع للإنكار عليهم، لأن النظيف يظهر

---

[242] انظر: ذكريات علي الطنطاوي (211/2). وساق الشيخ علي في كتابه "رجال من التاريخ" قصة الجنازة والمتوفي عن الشيخ محمد الكافي التونسي، بغير هذا السياق أثناء ترجمته له، ولعلّهما واقعتان؛ لأن السياقين مختلفان، والله أعلم.

[243] قواعد التصوف، القاعدة (150).

فيه أقل عيب، ولا يخلو العبد من عيب ما لم تكن له من الله عصمة أو حفظ. ومنها رقة المَدرَك، ومنه وقع الطعن على علومهم في أحوالهم، إذ النفس مسرعة لإنكار ما لم يتقدم لها علمه"[244].

وكذلك يؤكد فيقول: "كثر المدّعون في هذا الطريق لغربته، وبَعُدَت الأفهام عنه لدقّته، وكثر الإنكار على أهله لنظافته، وحذّر الناصحون من سلوكه لكثرة الغلط فيه"[245].

مع هذا فلا يدّعي العصمة لهم أحد، إذ لا معصوم بعد النبي محمد صلى الله عليه وسلم أحد كائن من كان، سميته ولياً أو قطباً أو ما شئت.

وعن سعيد بن المسيب (94هـ) -رحمه الله- قال: "ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه؛ فمن كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله"[246].

وهذا ما يؤكده العلامة (زروق) بقوله: "وقد يكون لولي الزلة والزلات، والهفوة والهفوات، لعدم العصمة وغلبة الأقدار".

وقد سئل أبو يزيد البسطامي: أيعصي الوليّ الله تعالى؟ فسكت برهة ثم تلا قوله تعالى: (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) [الأحزاب:38].

فانظر كيف تأدب فلم يقل "نعم" ولم يقل "لا". يريد أن معصيتهم هي بحكم القدر النافذ فيهم، لا أنهم يقصدون انتهاك حرمات الله، فهم -إذا كانوا أولياء عند الله تعالى- معصومون في المقام، فلا تصدر منهم معصية أصلاً انتهاكاً لحرمات الله[247].

ورحم الله القائل[248]:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد   جاءت محاسنه بألف شفيع

ومع أنّ زلات العلماء تُطوى ولا تُروى، فقد كان البعض يعتبر بعض مزاح الشيخ يحيى من الزلات والشطحات، فقد اشتهر عنه النكتة في الكلام، وبما يخدش الحياء أحياناً، يلجأ لذلك في بعض الأوقات للتوجيه بالإشارة وباستخدام النقيض، أو لتوجيه شخص معيّن لا يصلح معه إلا هذا التصريح وهذه الطريقة في الخطاب، أو لحِكمٍ باطنة في الكلام يفهمها من يفهمها ممن ينظر إلى خفايا الكلام والمراد منه، ويجهلها من يأخذ الكلام على ظاهره، ويظن أن الشيخ يتكلم بدون تفكير، أو أنه يلقي الكلام على عواهنه دون أن يقصد منه شيئاً، وإذا أحسن الظنّ بالشيخ قال:

---

[244] قواعد التصوف، القاعدة (208).

[245] المصدر السابق، القاعدة (201).

[246] مجمع الأحباب (2/ 158).

[247] الفتوحات المكية (410/3). ونسبه في الرسالة القشيرية للإمام الجنيد، وكذا في قواعد التصوف، القاعدة (210).

[248] ذكره ابن القيم في (مدارج السالكين)، وهو لابن نباتة المصري.

إنه يقصد الترفيه عن الجالسين من ضيق أو همّ أو كرب، أو صرّح بأنها فلتات وشطحات تخرج من لسانه وزلات تقع منه، وربما اتهمه بأكثر من ذلك. ولكن في الحقيقة يكون الكلام مليئاً بالحكم الباطنة للمتأمل، فهؤلاء مسدّدون في كلامهم، ولا ينطقون غالباً في وعظهم وإرشادهم ونصحهم إلا عن علم أو إلهام[249]. ويؤيد هذا المعنى ما روي عن أنس رضي الله عنه قال: كتب عمر بن الخطاب إلى عماله: "اكتبوا عن الزاهدين في الدنيا، فإنّ الله عز وجل وكّل بهم ملائكة واضعي أيديهم على أفواههم، لا يتكلمون إلا بما هيأه الله لهم"[250].

وقال أبو سليمان الداراني (215هـ) -رحمه الله-: "إذا اعتادت النفوس ترك الآثام جالت في الملكوت، ورجعت إلى صاحبها بطرائف الحكمة، من غير أن يؤدي إليها عالم علماً".

حدّثني شيخي الشيخ أسامة الرفاعي -حفظه الله- أنّه كان مع والده في زيارة للشيخ يحيى مع بعض طلابه، فطلب منه أحدهم أن يبخّت[251] له من الفتوحات، ففعل، ثم وعظ الحاضرين، وتكلم بكلام حسن، ثم طلب منه آخر مثل الأول، فنهره ووجه له كلاماً قاسياً وشديداً وأطال قليلاً، فاستغربنا ذلك بشدّة، إذ لم يصدر ما يسئ من هذا الأخ أو غيره، وخاصة أنّه بخّت للأخ الأول وتكلم معه بكلام طيب وحسن، لم يتكلم والدي بأي كلمة، فلما هممنا بالانصراف، أشار له الشيخ يحيى بطرف خفي كي يتأخر، فتأخّر عنا دقائق ثم تبعنا، وبعد فترة انقطع هذا الأخ عن المسجد وانقلب علينا وصار يتكلم وكأنه ليس من إخواننا وأحبابنا، ولازم شيخاً آخر، فانزعج والدي لذلك كثيراً، لأنه كان حسب ما يراه طالباً جيداً، وجاء الأمر مفاجئاً، وبقي والدي حزيناً لذلك أياماً، ثم فجأة تغير حاله وانبسطت أساريره ونسي ذلك الطالب تماماً، فتعجبت من ذلك وسألته عن سرّ ذلك؟ فقال لي: هل تذكر زيارتنا منذ فترة للشيخ يحيى التي اشتدّ فيها على هذا الأخ؟ قلت: نعم، قال: هل تذكر أني تأخرت في الخروج عنكم قليلاً؟ قلت: نعم، قال: إنّ الشيخ أشار إليّ من طرف خفيّ كي أبقى قليلاً، فكان مما أسرّ لي أنّ هذا الطالب (الذي اشتدّ عليه) ليس منكم، وقال لي: هذا الطالب ليس من تلاميذك ولا من طلابك، وكنت نسيت ذلك، ولكني لما تذكرته برد قلبي، وفهمت كلام الشيخ وعرفت مقصوده.

فهذه الشدة التي أنكرها كل الحضور كانت مقصودة، وكانت بكشف من الله للشيخ، فأراد أن يؤدّب هذا الطالب وأن يلفت نظر شيخه وإخوانه للحذر منه، فالذي لم يحسن الظنّ بأولياء الله

---

[249] وفي "ترشيح المستفيدين على فتح المعين" من كتب الفقه الشافعي: أنّ أبا الحسن الشاذلي ومن نحا نحوه أخذ الأدعية والأذكار والتحصنات من طريق التلقي والإلهام، وتناوله من أصوله في اليقظة والمنام، وهو شيء لا بأس به لصحة مقاصدهم وسداد أقوالهم (127).

[250] مجمع الأحباب (217/1).

[251] انظر: فصل أسلوب الشيخ في الوعظ وقوة حجته.

يذهب به الظن في مثل هذه الحادثة كل مذهب، وينكر عليهم كلامهم، فلا ينتفع بهم، وربما أظلم قلبه لإساءته الظنّ بهم وبفحوى كلامهم.

وحدّثني أيضاً الأستاذ أبو عبد الله محمود الغراب فقال: ذهبت مع الشيخ محمد الشامي –رحمه الله– لزيارة الشيخ يحيى، وكانت أول زيارة مني له في بيته، وكنت حينها في كرب شديد وهمّ كبير، إذ كنت حديث عهد بالاغتراب عن مصر، ولا أعرف ماذا تخبئ لي الأقدار، فما إن جلست إلى الشيخ حتى أخذ يتكلم بأنواع من كلام الحب والغزل، وطرائق من المزاح الصريح الذي لم أعهده على شيخ من قبل، مما أزاح عني كثيراً من الهمّ وكان له أثر في إزالة الغم وإضفاء جو من الضحك والسرور كنت بحاجة شديدة له.

وأقول (أبو عبد الله): إن كلمات التغزّل وبعض الإيحاءات التي تخرج أحياناً من الشيخ يحيى والشيخ الحارون لها أسرار ومعاني باطنة، والبعض يسمي مثل هذا الكلام ممن يصدر من أمثال هؤلاء أنه إساءة أدب مع الله، أو إساءة أدب مع الشريعة، ولو كان هذا كما يقولون لسلب الله منهم هذا الحال من الكشف الذي وهبهم إياه مع الاستقامة، ولمَا أظهر عليهم هذه الكرامات وأمدّهم بها وزادهم منها.

ويُنسَب لأبي الأسود الدؤلي قوله:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه　　فالقوم أعداء له وخصوم

وقال آخر

لأسلَم من قول الوشاة وتَسلَمي　　سلمت وهل حيٌّ على الناس يَسلم؟

الإنكار على الشيوخ إذا خالفوا الشرع:

حدثني الشيخ هشام البرهاني –حفظه الله– فقال: أول ما تعرفت على الشيخ يحيى من خلال والدي –رحمه الله– أحببته، وكنت أتقصد السلام عليه لأقبّل يده، ولا أدع ذلك كلما رأيته، وكان كلما رآني في مجلس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم يناديني ويضعني أمام كل الناس لأقرأ عشراً من القرآن، فقد كنت أدارس القرآن مع الشيخ ديب النشواتي، وكان يحب الشيخ يحيى وملازماً له ويعرف عنه الكثير، ويروي عنه أحوالاً عجيبة شاهدها منه زادته تعلقاً به، وذات مرة دعا والدي الشيخ يحيى لمولد في بيتنا بمناسبة نجاح عملية أجريت للوالد، وكان في المولد جمع كبير من الرجال والنساء، وكثير منهم لا يعرف الشيخ يحيى، يومها تكلم الشيخ بكلام ظاهره مخالف لما اعتدنا عليه، كان الشيخ يحيى (قاطع الجنزير)[252] فتكلم بكلام لا يليق حسب رأيي

[252] كان الشيخ يحيى يمزج وعظه وحديثه بالطرفة والمزاح، فلم يكن على طريقة العلماء وخاصة شيخه الشيخ البدر الذي كان رجل جدّ، قليل الكلام، بخلاف سنينه الشيخ عبد المحسن الأسطواني المعمّر، عاش قريباً من (118 سنة) وكان من صدور العلماء وقاضي القضاة، فكان مع علوّ منزلته وكبر قدره مزّاحاً يحب النكتة ولا يمسكها، ولو كانت من تحت معقد

وخاصة مع وجود النساء، فانزعجت ولم أحتمله، فخرجت من المولد ووقفت في الطريق ومعي سبعة أشخاص أو ثمانية، وكان صوت الشيخ يحيى واصلاً للحارة ومالئاً الدنيا، كعادته، فلما انفضّ المجلس قلت للوالد: يا سيدي هل يجوز هذا الكلام؟ قال لي: يا بني هؤلاء لا تعتب عليهم ولا تنكر، فهؤلاء يتكلمون بلسان بعض الحاضرين. لم يدخل هذا الكلام لمخي (لم يقنعني)، وقررت أن أبتعد عن الشيخ يحيى، وأخذت منه موقفاً فصرت أين ما أراه أهرب منه وأجلس وراء عمود حتى لا يراني فيناديني -كعادته معي- لأقرأ القرآن، إلى أن كنا مرة في دعوة في بيت السيد منتصر الكتاني (ت:1419هـ) ابن أخ السيد المكي، بمناسبة مجيء مولود للسيد المنتصر (عقيقة المولود)، وكان الجمع غفيراً وجلهم من كبار العلماء وعلية القوم، أذكر منهم: معروف الدواليبي (ت:1424هـ)، والشيخ مصطفى السباعي (ت:1384هـ)، والشيخ مصطفى الزرقا (ت:1420هـ)، والشيخ صلاح كيوان، وكان رجلا ذا حال، وإذا بالشيخ صلاح يخرج ثم يعود متأثراً مندهشاً وهو يقول: (والله الحملة التي حاملينها ما أحد بيحملها) ما هي هذه الحملة؟ ومن الذي يحملها؟ لم أفهم شيئاً!!! وما هي إلا لحظات إلا والشيخ يحيى يدخل الدار بعده، فهربت واختبأت خلف الباب، ثم قامت الحضرة، وإذا برجل أسود شديد السواد، لا أعرفه ولم أره لا قبل هذا المجلس ولا بعده، وطلب مني بإلحاح أن ألحقه!، فارتبكت حيث لم يمهلني، فسبقني ونزل الدرج وهو يقول إلحقني، فلحقته حتى خرج من البيت، ووصل للطريق ومشى ما يقرب من مئة متر، إلى أن وصل إلى سيارة وفتح بابها، وإذا بدم كالبركة في السيارة، فقلت له: من أين هذا الدم؟ قال لي: من الشيخ يحيى!!! لقد خرج من السيارة ومشى إلى البيت وصعد الدرج حيث المجلس في الأعلى، والدم يقطر منه!!! وأنا أناديه شيخي .. الدم! الدم! شيخي .. فقال لي: أسكت! أنا لست امرأة حتى أحيض!! وفجأة انقطع الدم ودخل مع الحضور!!! (كان الشيخ يحيى معه فتق كبير، انظر فصل التوكل) يقول الشيخ هشام: أنا نسيت نفسي، ولم أعد أكترث لهذا الرجل الأسود ولا من هو، وصار همي أني أريد أن أرى الشيخ وأعرف قصة هذا الدم وأين ذهب، ولم يعد لي همّ سواه، فجلست خلف رجلين قائمين في الحضرة أرقبه من بينهما، وكان يلبس كالعادة سروالا أبيض وكلابية بيضاء، وطفقت أتفحصه وأنظر إلى ملابسه وسرواله فلم أر أثراً للدم، وبينما أنا كذلك إذا بالشيخ يباغتني فيباعد بين الرجلين اللذين تخفيت خلفهما ويشير إلّي بالعصاة ويقول لي: قم، تعال، عجبك هيك؟!!.

ومن يومها زال ما في نفسي عن الشيخ، ويفيض بالحديث عن الشيخ ثم يقول: هذا هو الشيخ كما عرفته (ويغلبه البكاء قليلاً!)، ويقول: كان الوالد يكنّ له كل تقدير واحترام، ومسلّم له حاله

الزنار كما يقول الشيخ علي الطنطاوي في كتابه رجال من التاريخ، وهكذا أيضاً كان الشيخ يحيى إذا انطلق في الحديث ربما تكلم ببعض النكات ولو كانت من تحت معقد الزنار!! رحمهم الله جميعا.

تسليما مطلقاً، وكان السيد المكي والسيد الهاشمي والشيخ أبو الخير الميداني وغيرهم من العلماء ورجال الصوفية يحترمونه ويجلونه.

أقول: وهذا الإنكار الذي حصل في نفس الشيخ هشام في بادئ الأمر، أو من غيره ممن يتحلّون بالعلم مع الأدب وصدق الطوية، لا يستنكر ولا يستهجن من التلاميذ مع شيوخهم، بل هو من المسائل المتعلقة بأدب التلاميذ مع مربيهم كما يذكرها أهل الطريق، ومن هذه المسائل أنّ للمتشرّع الصادق المخلص المحتسب أن ينكر على الصوفي ما ينكره ظاهر الشرع، ولكن في الأشياء المجمع عليها، لا في الخلافيات، مع اعتقاد كمال الصوفي في الباطن، فإنّ موسى أنكر على الخضر –عليهما الصلاة والسلام– ما خالف ظاهر الشرع. ولا شكّ أنّه كان يعتقد أكمليته وأعلميته ضرورة، لأنّ الله تعالى أخبره أنّ الخضر أعلم منه، إذ المتشرّع طريقه أخصّ فله أن ينكر على الصوفي، والصوفيّ طريقه أعمّ؛ فليس له أن ينكر على المتشرّع[253].

المريد مع شيخه لا ينبغي أن يكون كالميت:

أما ما ينقله بعض المتصوفة المغالين من أنّ على المريد أن يكون مع شيخه كالميت بين يدي مغسّله فهي مقولة محرّفة عن الأصل، فليس في تعاليم ديننا ما يدعو أو يتسبّب في تخريج طلاب ميتين معنى أو حساً، ولا تلامذة بلا عقول، أو جثثاً جامدة!! بل فيها حثّ على إعمال العقل والتفكر والبحث والنظر، وفي كتاب ربنا عز وجل عشرات الآيات مبثوثة في سوره تخاطب (أولي الألباب) و (لقوم يعقلون)، لتربي جيلاً واعياً وتخرّج تلامذة حكماء ودعاة نابهين متيقّظين، وأصل العبارة السابقة –قبل التحريف– وردت عن سهل بن عبد الله التستري (ت:283هـ) رحمة الله عليه وهي: "التوكل أن يكون العبد بين يدي الله عز وجل كالميت بين يدي الغاسل، يقلّبه كيف يريد"[254]. والفرق الكبير في مفهوم العبارتين لا يحتاج لأدنى تأمّل، وشتّان في المعنى والمؤدّى بين أن يكون المريد كالميت بين يدي الرب الخالق جل وعلا الذي بيده الأمر والتدبير، وبين يدي العبد المخلوق الذليل الضعيف العاجز المحتاج!!.

ولو افترضنا –جدلاً– صحّة ما يردده بعض الشيوخ من أنه على المريد أن يكون مع شيخه كالميت بين يدي غاسله، فهذا في حق الوريث المحمدي، الشيخ الكامل، والعارف الواصل، والولي المكاشَف.

إن الشيخ الذي يصح له التسليم – لو صحّ – هو كما وصفه ابن عربي:

"الشيخ من حمل عنك المشقات، وأدخلك منازل القربات.

---

[253] المواقف السبوحية، موقف (195).

[254] شعب الإيمان، البيهقي (108/2).

الشيخ من نقل اسمك ومحا رسمك.

الشيخ من أمات نفسك قبل أن تموت، وجال بروحك في عالم اللاهوت والملكوت".

مثل هذا الشيخ أصبح نادراً في أيامنا هذه، وبعض أهل هذا الشأن يقولون إنه معدوم منذ أزمان طويلة. فأنّى يمكن العثور عليه في هذا الزمان؟؟

ومع ذلك يؤكّد ابن عربي على أنّ للمريد أن يعترض على شيخه فيقول: "مريد الشيخ إذا ما رأى شيخه قد فعل ما لا يقتضيه الطريق عند الشيخ، فللمريد أن ينبّه الشيخ على ذلك، لموضع احتمال أن يكون غافلاً، وليس له أن يسكت عنه"[255].

ولابدّ من التأكيد هنا أنّ الإنكار على الشيوخ مقبول من أهل العلم فقط، أما العوام والجهلة فحقهم والمطلوب منهم كما يقول الإمام الغزالي رحمه الله: "أن يؤمنوا ويسلّموا، ويشتغلوا بعبادتهم ومعايشهم، ويتركوا العلم للعلماء . . . فإنه من تكلم في الله وفي دينه من غير إتقان العلم وقع في الكفر من حيث لا يدري، كمن يركب لجّة البحر وهو لا يعرف السباحة"[256].

وطالب العلم يجب أن يكون على الدوام لابساً ثوب الأدب، ومتسربلا سربال الحياء، لا يخلعهما في أي حال وخاصة أمام الخواص من الناس، فكيف أمام الخواصّ من أهل الله!! ومن هذه الحيثية فإنّ سيدي يحيى لمّا أنكر عليه مرة واحدٌ من أهل العلم شيئاً بطريقة غير لائقة، ناسياً ثوبه، خالعاً سرباله، ردّ عليه الشيخ بقوة: "الله يلهمك أن تتعلم الأدب من شيخك"، وكان شيخه الشيخ أبي الخير الميداني الذي كان يجلّ المترجم ويسلّم له حاله.

وفي أحد مجالس الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام أنكر أحد العلماء عليه إقامته مجلساً للصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وقال له: خيراً من ذلك وأفضل أن تقيم مجلس للعلم، فانتصر النبي عليه الصلاة والسلام لسيدي يحيى في المنام[257].

وفي أحد المجالس الخاصة أنكر عليه أحد طلاب العلم تجاوزه في الكلام تجاوزاً لم يألفه هذا الطالب، فأنّبه الشيخ أحمد الحارون[258] بطريقته الخاصة منتصراً لسيدي يحيى.

أنشد الفرزدق:

هل يضر البحر أمسى زاخراً   أن رمى فيه غلام بحجر؟

وللحسن بن حميد:

يا ناطح الجبل العالي ليَكلِمه   أشفق على الرأس لا تشفق على الجبل

---

[255] الفتوحات المكية (500/7).

[256] إحياء علوم الدين (43/3).

[257] انظر: فصل مجالس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

[258] انظر: القصة كاملة في فصل علاقة المترجم مع الشيخ أحمد الحارون.

والمحصلة كما قال لي الكثيرون ممن عرفوا سيدي يحيى: إنّ الشيخ يحيى هو نسيج وحده، ولا يمكن لأحد تقليده ولا مجاراته، ويصعب كثيراً جداً أن يكون المرء الشيخ يحيى الصباغ، فهو: يحفظ ولا يقاس عليه.

ولقد أجاد ابن القيم رحمه الله لما قال: "لو كان كلُّ من أخطأ أو غلط تُرك جملة، وأهدِرَت محاسنُه، لفسدت العلوم والصناعات والحِكم، وتعطلت معالمها"[259].

وما أعقل ذلك المريد الذي وقع شيخه فيما صورته المخالفة، وكان ذلك امتحاناً لمريديه، فتغير بعضهم وثبت غيره، فقال له شيخه: لِمَ لم تتغير كما تغير أصحابك؟ فقال المريد: ما صحِبتُك على أنك معصوم، ولكن صحِبتُك على أنك أعرف بطريق الله مني[260].

---

[259] مدارج السالكين (39/2).

[260] الشيخ المجاهد محمد الحامد(177).

الباب الخامس: أحواله مع الله وزهده وتوكله

وفيه خمسة فصول

الفصل الأول: حاله مع الله ورسوله

1- حاله في عبادته وتضرعه
2- محبته للنبي صلى الله عليه وسلم
3- الكلام في رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة

الفصل الثاني:

1- مجالس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

الفصل الثالث: زهد العارفين

1- زهده في الدنيا
2- الصدقة دواء لرفع البلاء
3- جوده وكرمه وإنفاقه

الفصل الرابع: توكّل الصدّيقين

1- توكله على الله
2- التداوي لا ينافي التوكل
3- الرقية الشرعية

الفصل الخامس: مجاهدته وكراماته

1- صبره ومجاهدته
2- بعض من كرامات الشيخ
3- الكشف وفراسة المؤمن

حال الشيخ في عبادته وتضرعه

مراقبة الله عز وجلّ هي مقام الإحسان الذي بيّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل عليه السلام حيث قال: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[261]. وهي منزلة من منازل الصديقين.

وهذه المنزلة من المراقبة يقول فيها بعضهم: "من راقب الله في خواطره عصمه الله في جوارحه".

ولا يصل الإنسان إلى درجة الولاية والقرب من الله تعالى إلا بعد التمكن في هذا المقام من المراقبة، وهو مقام يحتاج إلى مجاهدة للنفس مع مثابرة، ومما يساعد في ذلك دوام العبادة وكثرة الذكر مع الحضور وعدم الغفلة، ويدل على هذا ما رواه أبو هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ الله عز وجل قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته"[262].

ومرّ الحارث بن مالك الأنصاري –رضي الله عنه– برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: "كيف أصبحت يا حارث؟". قال: أصبحت مؤمناً حقاً. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "انظر ما تقول، فإنّ لكل قول حقيقة فما حقيقة إيمانك؟" قال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، قال: كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "يا حارث عرفت فالزم"[263]. وفي رواية "مؤمن نوّر الله قلبه".

وقد حكي عن الشيخ أبي العباس المرسي (ت:686هـ) –رحمه الله– أنه قال: "لي ثلاثون سنة ما غاب عني الحق طرفة عين!".

ومرة قال الشيخ الرباني عيسى الكردي لتلميذه الشيخ أبي الخير الميداني رحمهما الله تعالى: "إذا قلت لك أن الله جل جلاله لا يغيب عني طرفة عين فصدّق!"[264].

---

[261] أخرجه البخاري في الإيمان، باب سؤال جبريل النبي عن الإيمان والإسلام. ومسلم في الإيمان، باب الإيمان والإسلام والإحسان.

[262] أخرجه البخاري في الرقاق، باب التواضع.

[263] الطبراني في الكبير، والبيهقي في الشعب. ومعنى يتضاغون: أي يصيحون بالبكاء.

[264] انظر لمعرفة معنى ذلك فصل وحدة الوجود ووحدة الشهود.

فهذا من مشكاة حديث جبريل عليه السلام المتقدم، ويؤكد هذا الحال عند الشيخ عيسى الكردي، أنه لما كان في الأستانة وقع فيها زلزال شديد عام (1311هـ)، وكان في الصلاة، فما التفت ولا قطع صلاته[265].

وعند المحققين من أهل التصوف أنّ من صفات العارف أنّه لا يزايله الاضطرار، فهو دائماً يشعر بشدة احتياجه إلى مولاه، يملأ قلبه الافتقار إليه على أي حال كان، صحة أو مرضاً، وفي حال الغنى أو الفقر، لذا تراه دائم اللجوء إليه، لا ينقطع عن التضرع بين يديه والتذلّل على أعتابه، وخاصة إذا جنّ الليل حيث يحلو للمحبين الخلوة بحبيبهم.

وقد كان الشيخ يحيى على هذه الشاكلة فكان يردد:

الدنيا ساعة فاجعلها طاعة   نفسك الطمّاعة علّمها القناعة

كان غالب أيامه لا ينام من الليل إلا أقلّ القليل، وربما لم ينم أحياناً، كان يمضي ليله إما في مؤانسة أهله أو ضيفانه، أو في عباداته المتنوعة من ذكر، وتلاوة قرآن، وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وقيام وتهجد، ودعاء وتضرع، هكذا عرفه أبناؤه وأهله، وهكذا عرفه طلابه ومحبوه.

سمعت هذا كثيراً من أبناء الشيخ، وكذلك سمعت به من غيرهم، وقد أخبرني الشيخ عمر بن سليم الصباغ وهو من أقرباء الشيخ أنه بات ليلة عنده، فكان ليله عجباً، كان كله عبادة بين صلاة ودعاء وذكر وتلاوة، وتضرع مع بكاء طيلة الليل، لقد كان يبكي في تضرعه كما يبكي الأطفال الصغار، هكذا حتى أذّن الفجر.

ورحم الله القائل[266]:

له همم لا منتهى لكبارها   وهمّته الصغرى أجلُّ من الدهر

وكم عرّج عليه في الليل بعض أحبابه من العلماء وغيرهم، فيجدونه مستيقظاً متعبداً فيستقبلهم ويؤانسهم، وكان من عادة الشيخ السيد محمد المكي الكتاني، إذا جاءه ضيوف وأحبوا زيارة الشيخ يحيى، وكانوا على عجلة من أمرهم، أن يصطحبهم ليلاً لزيارة الشيخ قائلاً لهم: أنا أعلم أنّه لا ينام في الليل.

---

[265] انظر: علماء دمشق في القرن الرابع عشر.

[266] ينسب لسيدنا حسان بن ثابت الأنصاري -رضي الله عنه- يمدح النبي صلى الله عليه وسلم من قصيدة من الطويل، وذكر بعضهم أنه لبكر بن النطاح في أبى دلف العجلي، وقيل غير ذلك. والله أعلم.

وهذا هو حال العلماء الربانيين على مرّ الدهور، كحال كبار الصحابة رضي الله عنهم، فهذا عثمان –رضي الله عنه– يقوم الليل كله في ركعة واحدة، وهذا عمر –رضي الله عنه– يقول: "إذا نمت الليل ضيعت نفسي".

كانوا يقومون الليل كله، ومنهم من يقسمه أثلاثاً: ثلث لنفسه، وثلث للعلم، وثلث للعبادة. وكان الشيخ البدر على سنّة هؤلاء ونهجهم، ينام أول الليل مدة يسيرة متكئاً، ثم يقوم باقي الليل كله، وأخذ عنه معظم طلابه هذا الحال، كسيدي يحيى، وشيخي الشيخ عبد الكريم الرفاعي، الذي عاينت ذلك منه بنفسي، فضلاً عما سمعته من بعض أبنائه.

وهذا الحال هو حال كثير من علماء دمشق وغيرها، "دمشق سرّها في علمائها الصالحين، دمشق سرّها في هؤلاء الأولياء، والشيخ يحيى الصباغ واحد منهم، رأيته، ولتمنيت أن لو عشت في ظلاله ردحاً من الزمن، ما رأيته مرة إلا وانتابتني حال لا أدري كيف تسربت إليّ! ولا أعلم مصدر ذلك قطّ، لكنني أعلم أنه سرّ منبعث من حال هذا الرجل الموصول بالله سبحانه وتعالى"[267].

وما أشد حاجة طلاب العلم والدعاة اليوم إلى الاستكثار من هذا الزاد الروحي، وإلى الاعتناء بهذه الصلة العميقة مع الله تعالى، وما أحوجهم إلى أخذ أنفسهم بالمجاهدة والمصابرة على صقل أرواحهم بالقيام والتهجد والذكر، حتى تنفتح لهم مغاليق القلوب، وترتاح إليهم الأرواح، وتأرز لكنفهم النفوس المتعبة، فتستقي بدلائهم، وترتوي من معينهم، فإنّ كثيراً من طلبة العلم والمحسوبين على العمل الدعوي ينسون أنفسهم في غمرة ما هم فيه، وينسون أنّ طلب العلم وسيلة لا غاية، وأنّ الطريق إلى قلوب الناس يبدأ بسير القلب إلى الله.

ومن الحوادث التي تذكر لسيدي يحيى في حرصه على العبادة والطاعة، أنه في ليلة من ليالي الشتاء الباردة احتاج للاغتسال كي يقوم لعبادته، فلم يجد في بيته ما يسخّن به الماء، فنظر حوله فإذا عينه تقع على الخزانة الخشبية المخصّصة للملابس، فيرى عليها قطعة خشبية كبيرة تزينها، مصنوعة على شكل تاج لها، فقال لزوجته: أتبيعينني هذا اللوح من الخشب؟ ولم تكن لترفض له طلباً، قالت: خذه، قد وهبته لك. فخلعه، وجعله وقوداً سخّن به الماء!! وكان باستطاعته التيمم، وعذره البرد وفقده الوقود الذي يسخّن به الماء كما يقول فقهاء الشافعية، ولكن الدنيا وحطامها ما كانت لتساوي عنده شيئاً، فكيف لا يجعلها وقوداً للاغتسال للصلاة؟!

وكان يحرص على إيقاظ كل من في البيت لصلاة الفجر، يذكر لي بعض أخوتي الكبار أنه لما كان يوقظهم لصلاة الفجر –وقد كانوا في سن قد قارب الحلم– يأخذهم ثقل النوم، فلما

---

[267] نقلاً عن كلمة للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ألقاها في مناسبة تتعلق برحيل بنت المترجَم الحاجة يسرى الصباغ (أم بدر).

يستعصون عليه يأتي بإبريق الماء –حتى في فصل الشتاء– فيسكبه عليهم حتى يستيقظوا للصلاة.

وكان إذا صلى الفجر في البيت لسبب من الأسباب أطال صلاته إطالة كبيرة، وأحياناً كان يقرأ في صلاة الفجر سورتي البقرة وآل عمران بأكملهما، وقد اقتدى به بعض أولاده مرة فتعب تعباً شديداً، ففارقه وأتمّ وحده، ولم ينته الشيخ من صلاته إلا وقد طلعت الشمس، وهذا شبيه بما روي عن أنس أنّ أبا بكر قرأ في صلاة الصبح بالبقرة، فقال له عمر حين فرغ: كَرُبَت الشمس أن تطلع، قال: "لو طلعت لم تجدنا غافلين"[268].

وعن الأحنف قال: "صليت خلف عمر الغداة، فقرأ يونس وهود ونحوهما"[269].

أمّا حاله في المناجاة لله تعالى فكان التذلل والانكسار وإظهار الفاقة والافتقار، فمما كان يناجي به ربه ما سُمِع منه كثيراً وهو ينادي: ربي إني فقدت أبي . . وفقدت أمي . . وفقدت أحبابي . . وها أنا ذا بين يديك وحيد ضعيف، ربي لم يعد لي غيرك، يا رب إنك اعتنيت بي ورزقتني وأنا جنين حقير في بطن أمي، أفتراك تتركني الآن وأنا شيخ كبير، وأنا عجوز ضعيف، قد طالت لحيتي، وضعف جسمي، ووهن العظم مني، حاشاك يا ربي، حاشاك يا الله.

ويستمر هكذا في مناجاته وقتاً طويلاً، ثم يسأل الله حاجته، فلا يدع شيئاً إلا ويطلبه من الله عز وجلّ، فيقول: يا رب لا يوجد عندي طعام، ليس عندي لحمة، أريد لحمة، ما عندي برغل، أريد البرغل، لا يوجد عندي أرز، أريد الأرز، يا رب ما في عندي ملح، أريد ملحاً، يا رب ما في عندي شاي، أريد الشاي، يا رب ما عندي سكر، أريد السكر، وهكذا يسأل الله كل حاجاته، لا يدع حاجة صغيرة ولا كبيرة إلا ويذكرها بعينها واسمها، وهذا هو عين التذلل والافتقار إلى الله تعالى.

ومما كان على لسانه في الدعاء ويرددها كثيراً كلمة (المدد)، فكم سُمع –رحمة الله عليه– وهو يناجي ربه ويقول: يا فتاح يا عليم المدد، يا رزاق يا كريم المدد، يا حي يا قيوم المدد ، اللهم عليك المعتمد. ثم يتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول: رسول الله كن لنا شافعاً، أنت والله شفيع لا تردّ.

وكان أيضاً يتمثل في مناجاته هذين البيتين، ويرددهما:

يا خالق الأكوان   باللطف عاملني
ما لي عمل يرضيك   أنت الغنيّ عني

---

[268] مصنف ابن أبي شيبة (353/1). وعند مالك في الموطأ(43/1) أنه قرأ بسورة آل عمران، فلعلها واقعة أخرى.

[269] مصنف ابن أبي شيبة (353/1).

وهذا الحال من إظهار التضرع والتذلل والتمسكن لله تعالى هو حال العباد الصالحين، وهم بذلك مقتدون وممتثلون لأمر النبي صلى الله عليه وسلم: "ليسأل أحدكم ربّه حاجته كلّها حتى يسأله شِسْع نعله إذا انقطع"[270].

وفي الحديث الشريف أيضاً: "سلوا الله من فضله، فإنّ الله عز وجل يحب أن يُسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج"[271]. وهو أمر الله عز وجل: (واسألوا الله من فضله) [النساء:32].

وكان أيضاَ من أكثر دعاء الشيخ يحيى ومناجاته: يا حي يا قيوم ، مع البكاء والتضرع والتذلل.

ومن دعائه: "إلهي لا تشمت أعدائي بدائي، واجعل القرآن العظيم شفائي ودوائي، إلهي أنا المبتلى وأنت المداوي، سبحانك، يا عزيز ياحكيم، لا تشمت بي عدواً أثيم".

وكان يكثر من ذكر الله باسمه الباسط والفتاح.

ورحم الله شهاب الدين السهروردي الذي قال:

ودعاهم داعي الحقائق دعوة فغدوا بها مستأنسين وراحوا
ركبوا على سنن الوفا فدموعهم بحر وشدة شوقهم ملاح
والله ما طلبوا الوقوف ببابه حتى دُعوا وأتاهم المفتاح
لا يطربون بغير ذكر حبيبهم أبداً فكل زمانهم أفراح
حضروا وقد غابت شواهد ذاتهم فتهتكوا لما رأوه وصاحوا
أفناهم عنهم وقد كُشفت لهم حجبُ البقا فتلاشت الأرواح
فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إنّ التشبه بالكرام فلاح

وأما أوراده في النهار فكثيرة كالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وغيرها، وكان يقرأ ألف مرة سورة الصمد كل يوم أحد من كل أسبوع.

ومن أوراده التي كان يداوم عليها ويوصي بها الاستغفار والدعاء بالصيغة التالية: "رب اغفر لي ولوالديّ ولمن له حق عليّ وللمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات" كان يوصي بترداده كل يوم سبع وعشرين مرة، وهذا مأخوذ من السلف، فقد ذكر ابن القيم رحمه الله، "كان بعض السلف يستحب لكل أحد أن يداوم على هذا الدعاء كل يوم سبعين مرة، فيجعل منه ورداً لا يُخلّ به، وسمعت شيخنا يذكره، وذكر فيه فضلاً عظيماً لا أحفظه، وربما كان من جملة أوراده التي لا يُخلّ بها، وسمعته يقول: إنّ جعْله بين السجدتين جائز"[272]ا.هـ.

---

[270] الترمذي (8/3604).

[271] الترمذي (3571).

[272] مفتاح دار السعادة (368)، ابن قيم الجوزية.

وأيضاً كان من أوراده التي يوصي بها الدعاء التالي: "اللهم بارك لي في الموت وفيما بعد الموت" خمسة وعشرين مرة كل يوم[273].

هذا حاله طيلة العام، فإذا دخل شعبان زاد من إقباله على الله تعالى وأكثر من التعبد والتحنّث، فإذا اقترب رمضان أخذ ينشد:

إذا العشرون من شعبان ولّت   فواصل شرب ليلك بالنهار

ولا تشرب بأقداح صغار   فإن الوقت ضاق عن الصغار

وذلك إعلاناً على التشمير والجدّ ومضاعفة الجهد في العبادة، وشحذاً لهمم المؤمنين وجمع العزيمة على الطاعة، بملء الليل والنهار بألوان الطاعات، وعدم الاكتفاء بالجرعات الخفيفة منها.

وأما في المجالس العامة فقد اشتهر من دعائه فيها: اللهم زوج الأعزب منا وأعن المتزوج.

والخلاصة في ذلك: أنه كان من أصحاب العزائم في الطاعة والعبادة والصلة بربه تعالى كشأنه في كل أحواله، وقد كان يقول:

نحن حزب الله من يلحقنا؟   جدّنا جدٌّ وجدٌّ هزلنا

جعلنا الله من أولئك الأخيار ومن أصحاب تلك العزائم فإنه:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم   وتأتي على قدر الكرام المكارم[274]

273 أخرج الطبراني في الأوسط بإسناد صحيح من حديث عائشة رضي الله عنها: "من قال في يوم خمساً وعشرين مرة اللهم باركْ لي في الموت وفيما بعدَ الموتِ ثم مات على فراشه أعطاه الله أجر شهيد".

274 من قصيدة للشاعر أبي الطيب المتنبي يمتدح بها سيف الدولة.

محبته للنبي صلى الله عليه وسلم

إنّ محبة النبي عليه الصلاة والسلام من أهم دعائم الإيمان، فلا إيمان بدون هذه المحبة القلبية الوجدانية التي تورث اتباعاً وانقياداً، وتثمر امتثالاً واستسلاماً لما جاء به هذا الرسول الأكرم، فعن أنس بن مالك –رضي الله عنه– أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"فو الذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين"[275].

فلذا كان من البدهي أن تكون هذه المحبة سبباً رئيساً من أسباب النجاة يوم القيامة، والفوز بجنات النعيم، فقد روي أنه لما توفي عثمان بن مظعون –رضي الله عنه– قالت امرأته: هنيئاً لك الجنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وما علْمُك بذلك؟" قالت: كان يا رسول الله يصوم النهار ويقوم الليل، قال: "بحسبك لو قلت: كان يحب الله ورسوله"[276].

ومن هنا كانت محبة الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم لا يضاهيها ولا يعدلها شيء في الدنيا، حيث بلغت حداً لا يكاد يوصف ولا يبلغه البيان، ويعجز عن التعبير عنه القلم واللسان، ويكفي إذا أردت أن تعرف مدى هيامهم بهذا الحبيب المحبوب والصفي المصطفى أن تتأمل كلام عروة بن مسعود رضي الله عنه وهو يحدث قومه –وكان مبعوثهم يوم الحديبية–: فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر، وكسرى، والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها[277].

وهذا زيد بن الدثِنَة –رضي الله عنه– لما أسِر يوم الرجيع وأخرجه أهل مكة من الحرم ليقتلوه قالوا له: أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وإنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تُصِبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي. فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً[278].

وبلغ بهم الحب أنّهم كانوا يحرصون كل الحرص أن يكون عند أحدهم شيئاً من أثره صلى الله عليه وسلم من لباس أو شعر أو ظفر، فهذا معاوية بن أبي سفيان –رضي الله عنه– كان يحتفظ بقميص رسول الله صلى الله عليه وسلم وردائه وإزاره وشعره، فأوصى عند موته فقال: "كفّنوني

---

275 أخرجه البخاري في الإيمان، باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم.

276 حلية الأولياء (106/1).

277 أخرجه البخاري في الشروط، باب الشروط في الجهاد.

278 أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (326/3).

في قميصه، وأدرجوني في ردائه، وأزروني بإزاره، واحشوا منخريّ وشدقيّ بشعره، وخلّوا بيني وبين رحمة أرحم الراحمين"[279].

وذكر الإمام الذهبي –رحمه الله– في ترجمة التابعي المخضرم عَبيدة بن عمرو (ت:72هـ) قال: قيل لعَبيدة –بفتح العين–: إنّ عندنا من شَعْر رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من قِبَل أنس بن مالك. فقال: لأن يكون عندي منه شعرة أحب إليّ من كل صفراء وبيضاء على ظهر الأرض!.

قال الذهبي: هذا القول من عَبِيدة هو معيار كمال الحب، وهو أن يؤثر شعرة نبوية على كل ذهب وفضة بأيدي الناس، ومثل هذا يقوله هذا الإمام بعد النبي صلى الله عليه وسلم بخمسين سنة، فما الذي نقوله نحن في وقتنا لو وجدنا بعض شعره بإسناد ثابت، أو شِسع نعل كان له، أو قلامة ظفر، أو شقفة من إناء شرِب فيه! فلو بذل الغنيّ معظم أمواله في تحصيل شيء من ذلك عنده أكنتَ تعدّه مبذّراً أو سفيهاً؟ لا![280] .

وبلغ بهم الحب والوله بهذا الشفيع المشفّع أنّ أحدهم صار لا يطيق فراقه لحظة واحدة، فجعل يفكر في أمر الآخرة حتى أقضّ مضجعه قِصَرُ عمله عن أن يبلغ به مرافقة هذا الحبيب في الجنة، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إليّ من نفسي، وإنك لأحبّ إليّ من أهلي ومالي، وأحبّ إليّ من ولدي، وإني أكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت إنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك. فلم يرد النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية: (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) [النساء:69][281].

وأما علامة هذا الحب فهو الإكثار من ذكر الحبيب، فالمحب لا يستطيع أن ينسى محبوبه لأنّ قلبه مولع به، فكلما أكثر من ذكر المحبوب واستحضاره في قلبه واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبه؛ زاد شوقه إليه، واستولى الحب على جميع قلبه . . ولا شيء أقرّ لعين العبد المحب من رؤية محبوبه، ولا أقرّ لقلبه من ذكره وإحضار محاسنه، وإذا قوي هذا في قلبه؛ جرى لسانه بمدحه . . فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره بقلبه ولسانه . . وكما أن الذكر من نتائج الحب فالحب أيضاً من نتائج الذكر، فكل منهما يثمر الآخر، وزرع المحبة إنما يُسقى بماء الذكر، وأفضل الذكر ما صدر عن المحبة[282].

---

[279] معرفة الصحابة لأبي نعيم (2496/5).

[280] سير أعلام النبلاء (42/4).

[281] رواه الطبراني في الصغير (26/1).

[282] انظر: جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، ابن القيم(248).

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن أناس من أمته هذا حالهم فقال: "مِن أشدّ أمتي لي حباً ناس يكونون بعدي يودّ أحدهم لو رآني بأهله وماله"[283].

لذلك لا يُستغرب ما يُروَى عن التابعين والصالحين من شدة محبتهم وهيامهم بهذا النبي العظيم لدرجة أنهم غابوا عن أنفسهم في نفسه، وذابت روحهم في روحه، حتى صاروا كما قال المحب: أنا من أهوى ومن أهوى أنا.

ومن أثر هذا الحب ما روي عن سيدنا أبي بكر الصديق –رضي الله عنه– أنه لما مرض النبي عليه الصلاة والسلام أنشد:

مرض الحبيب فعدْتُه   فمرضتُ من أسفي عليه

شُفي الحبيب فعادني   فشفيتُ من نظري إليه

[283] أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فيمن يود رؤية النبي صلى الله عليه وسلم.

الكلام في رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة

فمن أخبارهم وأحوالهم في شدة محبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما روي أنّ عبد الله بن المبارك (ت:181هـ) -رحمه الله- كان يكثر الجلوس في بيته، فقيل له ألا تستوحش؟ قال: كيف أستوحش وأنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين لهم بإحسان[284].

وما روي عن الشيخ أبو العباس المرسي أنه قال: "لو غاب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ما عددت نفسي من المسلمين"!!. وهذا يفيد من جملة ما يفيد: أنه مراقب لرسول الله صلى الله عليه وسلم في كل حركاته وسكناته، وأنه لو لم يقتد في لحظة برسول الله صلى الله عليه وسلم لكان كما قال. ويفيد أيضاً: أنّ منهم من يراه في عين قلبه لأن قلبه لا يغفل لحظة عن الصلاة والسلام عليه.

وعن علي الجمل العمراني -رحمه الله- قال: "مما منَّ الله به عليَّ أني ما ذكرتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ولا خطر على قلبي إلا وجدتني بين يديه"[285].

ويذكر الشعراني في طبقاته أنّ الشيخ محمد بن أبي جمرة -رحمه الله- كان "كبير الشأن مقبوض الظاهر معمور الباطن غلبت عليه آثار صفة الجلال كان معظماً للشرع قائماً بشرائعه، وشعائره، وأنكروا عليه في دعواه رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم يقظة، وعقدوا له مجلساً (لمحاسبته على دعواه) فأقام في بيته لا يخرج إلا لصلاة الجمعة، ومات المنكرون عليه على أسوأ حال وعرفوا بركته"[286].

وكان شيخ علماء الشام المحدث الأكبر يقول لطلابه: "أتسمعون ردّ النبي صلى الله عليه وسلم في التشهد حينما تقولون: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته؟" فيقول (تلميذه): وهل أحد يسمع ذلك؟! فيجيبه: "هناك أناس لو غاب عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لحظة لماتوا"!![287].

ومن عجب أني أحنّ إليهم وأسأل شوقاً عنهم وهم معي
وتبكيهم عيني وهم في سوادها ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي[288]

وهذا الحضور الدائم مع النبي صلى الله عليه وسلم بدون غيبة عنه، كما يذكره أهل التصوف ليس كما نفهمه نحن على ظاهره، حضور أجساد أو أشخاص بأعيانها وذراتها، حتى أنكره

---

[284] البيهقي في شعب الإيمان.

[285] تفسير البحر المديد لابن عجيبة، سورة إبراهيم، الآية (19).

[286] الطبقات الكبرى (1/136)، عبد الوهاب الشعراني.

[287] الدرر اللؤلؤية في النعوت البدرية.

[288] في نفح الطيب أنّ هذين البيتين لمهيار الديلمي. ونسبه آخرون لغيره.

جماعة من كبار العلماء وحملوا حملاً شديداً على من قال برؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة، مع أنّ الأخبار بذلك مشهورة صحيحة متداولة بكثرة، ومنقولة عن كبار العارفين المشهود لهم بالاستقامة والصلاح كالشيخ عبد القادر الجيلاني وأمثاله، وهي من صحتها وكثرتها لا يحسن بالعاقل تكذيبها وإنكارها، ولا يسعه تجاهلها وتقبيح صاحبها لمجرد أنّها على خلاف ما اعتاده العقل من التعامل مع الماديات والمحسوسات، وإنما جاء هذا الإنكار من هذا الفهم الخاطئ ومن هذا القياس، ولكنّ المراد –كما صرح الغزالي– مشاهدة الصور والأمثال، أو معنى آخر يعرفه أصحاب هذا المقام من الحب، حب أفناهم عن ذواتهم وأخرجهم عن أنفسهم، وحرّر أرواحهم من أسرها في الأجساد، ونقلهم إلى عالم الروح والملكوت، عالم لا يسع المحجوبين بالشهوات والغارقين في الماديات إدراكُه وفهمه على حقيقته، وذلك لظلمة قلوبهم واستحكام الأنا والأغيار فيها.

ونقل صاحب المنار عن الشعراني في (اليواقيت والجواهر) أنّ "جماعة كانوا يرون النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة منهم الشيخ قاسم المغربي، ونقل عن الشيخ قاسم المذكور أنه قال: وأكثر ما تقع رؤية النبي عليه الصلاة والسلام يقظة بالقلب، ثم تترقى إلى رؤية البصر، قال: وليست رؤية النبي كرؤية بعضنا بعضاً، وإنما هي جمعية خيالية، وحالة برزخية، وأمر وجداني لا يدرك حقيقته إلا من باشره".

وأما ابن عجيبة –رحمه الله– ففسر هذه الرؤية: "بتشكل روحه الكريمة على صورة جسده الطيب" صلى الله عليه وسلم. فقال: "فإذا أكثروا من الصلاة بالحضور ثبتت الصورة الكريمة في قلوبهم، فيرونه في المنام كثيراً، وربما تتشكل روحه الكريمة على صورة جسده الطيب، فيرونه يقظة"[289].
وكذلك فسرها غيره فقال: "وأما اجتماعه بالأولياء –رضي الله عنهم– فيحمل على روحه، وأنها تتشكل بصورته، فالأرواح لها تصرّف بعد الموت كالحياة . . . ورؤية النبي صلى الله عليه وسلم جهاراً لبعض الأولياء رؤية نورانية، وهو من رؤية المثال لا في عالم الشهادة"[290].
ثم يقول: "ثم إن كثيراً من الصالحين يقول: إنه يرى النبي صلى الله عليه وسلم يقظة ولا ينكر هذا منهم، وإنما هي رؤية روحانية لا جسمانية، ولذلك يراه البعض دون البعض في المكان الواحد، ولو كان بجسمه لرآه كل أحد، لأنّ رؤية الجسم لا تتوقف على صلاح وتقوى، بل رآه الكفار في حياته صلى الله عليه وسلم وشر الخلق وخيارهم.

---

[289] الفتوحات الإلهية شرح المباحث الأصلية (6).

[290] محمد بن درويش الحوت، أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب (678).

واعلم أنّ الشيطان لا يمكنه أن يتمثّل بصورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهذا لطف وكرامة من الله تعالى، زيادة في حفظهم وعصمتهم منه، حتى لا يقدر على التشكّل بشكلهم، فإذا أكرم الله عبداً برؤية رسوله صلى الله عليه وسلم يقظة يتمثّل له نوره الشريف بصورة جسمه الكريم، وربما ظنه الرائي أنّه الجسم الشريف لغلبة الحال"[291].

وقد أيّد الشيخ محمد رشيد رضا –رحمه الله– هذه الرؤية في اليقظة بعد أن نقل كلام الشعراني المذكور، ولكنه فسرها وأولها بظاهرة روحانية بشكل يتوافق مع مذهبه في إنكار الكرامات والخوارق[292].

وفصّل القاضي أبو بكر بن العربي فقال: رؤية النبي صلى الله عليه وسلم بصفته المعلومة (في المنام) إدراك على الحقيقة، ورؤيته على غير صفته إدراك للمثال، واستحسنه السيوطي.

ولا يسع المرء إنكار أمثال هذا لمجرد أنّ عقله لم يهضمه، فصدق الله عز وجل القائل: (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) [يونس:39]. والقائل: (فسيقولون هذا إفك قديم) [الأحقاف:11]

وما أحسن قول الشاعر أبي الطيب المتنبي:

ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مرّاً به الماء الزلالا

وقد أشار المحدث الأكبر البدر إلى هذا المعنى من الصلة برسول الله صلى الله عليه وسلم في دروسه حيث يقول: "ويكفيه فخراً عليه الصلاة والسلام أن يكون نوره مستمداً من نور الله سبحانه وتعالى . . . ومن اعتقد أنه ينقطع نور النبي صلى الله عليه وسلم عنه في حال من الأحوال فإنه يخشى عليه أن يسلب منه الإيمان، فما من مؤمن ولا مؤمنة إلا وبينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم رابطة بمثابة الخيط الممدود . . لا يجوز لأحد أن يقول: إنه لا ينتفع بنور النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته، فإنّ الله تعالى جعل جميع ملكه من عرشه إلى فرشه، وما يكون في هذه الدار، كل ذلك من نوره عليه الصلاة والسلام"[293].

ولقد قرأت في كرّاسة سيدي يحيى بخطّه ما يقرب من قول شيخه البدر روحاً ومعنى، من ذلك: "الحمد لله على آدم أبي البشر، لولا محمد ما عاش أحد، ولا ضوت الكواكب".

هناك ظواهر تحدث في عالمنا مرتبطة بعالم الروح والملكوت لا نستطيع إدراكها لأنها فوق قدراتنا البشرية المحدودة، وإذا صحّ الخبر بحدوثها وجب قبولها، من هذه الظواهر مما نحن بصدده أنّ الصحابي عبد الله بن سلام قال: رأيت كأني في روضة، ووسط الروضة عمود، في أعلى العمود عروة فقيل لي: ارقه، قلت: لا أستطيع، فأتاني وصيف فرفع ثيابي فرقيت، فاستمسكت بالعروة، فانتبهت وأنا مستمسك بها، فقصصتها على النبي صلى الله عليه وسلم

---

291 المرجع السابق(680).

292 مجلة المنار (184/6).

293 المحدث الأكبر، محمود بيروتي(286 و287).

فقال: "تلك الروضة روضة الإسلام، وذلك العمود عمود الإسلام، وتلك العروة عروة الوثقى، لا تزال مستمسكاً بالإسلام حتى تموت"[294] وفي رواية "فانتبهت وإنها لفي يدي".

ومنها أنّ السيدة عائشة بنت إبراهيم الكزبري[295] -رحمها الله- رأت النبي صلى الله عليه وسلم في منامها، وقد وضع تمرة في فم ولدها محمد بدر الدين، وكان صغيراً، فاستيقظت فرأت التمرة في فمه.

ويروي الشيخ محمود الرنكوسي (ت:1405هـ) رحمه الله، أنّ زميله في الطلب عند المحدث الأكبر أخبره فقال: كان الشيخ يقول لنا ونحن عنده في الدرس: "في ناس يذهبون ويطوفون بالبيت، وفي ناس يذهبون إلى المدينة لزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم، أما تذهبون أنتم؟ شدوا حالكم واذهبوا". يقول الشيخ محمود: وقد سمعت ذلك أيضاً من الشيخ[296].

وإذا لم تر الهلال فسلّم   لأناس رأوه بالأبصار

وسبق أن نقلت كلام الإمام الغزالي عن أهل الطريق أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم، ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجة يضيق عنها نطاق النطق، ولا يحاول معبر أن يعبّر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكن الاحتراز عنه[297].

"وهذا وأمثاله محمول على معنى صحيح يعرفه أهل الذوق ولا ينافى ما وردت به القواطع . . . وإياك أن تقول بظاهره مع ما أنت عليه، وكلما وجدت مثل هذا لأحد من أهل الله تعالى، فسلِّمه لهم بالمعنى الذي أرادوه، مما لا تعلمه أنت ولا أنا، لا بالمعنى الذي ينقدح في عقلك، المشوب بالأوهام، فالأمر واللهِ وراء ذلك"[298].

ومن جميل ما قرأته للشيخ المفكر فتح الله كولن -حفظه الله- عن محبة المؤمن للنبي عليه الصلاة والسلام قوله:

إنه بيننا على الدوام بروحه، وحسْبَ بعضهم بجسده النوراني؛ فالإمام السيوطي يذكر أنه التقى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتحدث معه مرات عديدة. أجل، إنه لم يمت بالمعنى الذي نفهمه من الموت، بل غيّر أبعاد الوجود فقط، فمن الخطأ النظر إلى وفاته وكأنها مثل وفاة أي شخص اعتيادي، ذلك لأن القرآن يذكر لنا ألا نقول عن الشهداء -وهم أقل بمرتبتين اثنتين عن الأنبياء- إنهم أموات. إذن، فكيف يجوز لنا أن نقول عنه إنه "ميت" بالمعنى الذي نفهمه عن

294 أخرجه البخاري في التعبير، باب التعليق بالعروة والحلقة.

295 هي والدة المحدث الأكبر الشيخ محمد بدر الدين الحسني.

296 الدرر اللؤلؤية في النعوت البدرية.

297 انظر: فصل الشيخ الأكبر والتلقي الفيضي والروحي.

298 ذكر هذا الكلام الألوسي في تفسيره روح المعاني، عند تفسيره لسورة الفاتحة.

الموت؟ أجل، لا يسعنا إلا أن نقول إنه انتقل إلى بُعد آخر، لذا فإن الأشخاص الذين استطاعت أنظارهم وأبصارهم الامتداد إلى هذه الأبعاد يستطيعون رؤيته ومشاهدته.

إن الذين استطاعوا الخلاص من سجن الجسم، ووصلوا إلى مرتبة حياة القلب والروح، يستطيعون عيش الماضي والمستقبل معاً وفي الوقت نفسه. إذن، فلِمَ لا يوجد سلطان الرسل في الآخرة وفي الدنيا وأمام الملائكة وأمام الأنبياء في الوقت نفسه وفي اللحظة نفسها؟[299]

ثم يقول: فإن كان فهم الأولياء والأصفياء والأبرار والمقربين وحدسهم –دع عنك الأنبياء العظام– يحتاج إلى صفاء روحي وإلى نقاء قلبي خاص، فكيف يمكن فهم الأنبياء في هذا العالم المادي الغليظ الذي تكثر فيه الحجب والأستار؟ إذن، فلكي نفهمهم فإن علينا التوجه إليهم بكل استعداداتنا القلبية، ولطائفنا الروحية، وبكل دقة واهتمام وتركيز. فإن كان المطلوب فهم شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن هذه الدقة والاهتمام والتركيز يجب أن يزداد أضعافاً مضاعفة، هذا علماً بأن درجة معرفة كلٍّ منا وفهمه يتبع درجة قوة نظرته القلبية، ولكن لا أحد يستطيع أن يفهمه ككل أو يحيط به إحاطة تامة، فهو كما قال البوصيري:

وكيف يُدرِك حقيقتَه قومٌ نيامٌ تَسلّوْا عنه بالحُلُم

هذه هي بعض أحوال الشيوخ الكمّل، فإذا تقرر ذلك، فليس بغريب ما عرف عن سيدي يحيى وما نقل عنه من أحوال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، كقوله لما شعر من بعض بناته امتعاضاً من بعض تصرفاته: إني لا أُقدِم على عمل ولا أتصرف بأمر (أي ذي بال) إلا بإذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان أولاده يرون منه أحوالاً عجيبة من الحب والهيام عندما يذكر الحبيب عليه الصلاة والسلام، لدرجة أن بعضهم نقل أنه كان يرى النبي صلى الله عليه وسلم يقظة، وأنّ ذلك تكرر له كثيراً، وهذا الادعاء من البعض ناتج عن حدس منه وتوقع، أما الشيخ يحيى فلم يتفوّه بمثل هذا الكلام، ولم يدّع هذا المقام ولا هذه الرؤية لنفسه، ولا أعرف أنّ أحداً سمع هذا منه، ولكن من ادعى له هذا فإنه عبر عن ما شاهده من حاله أثناء مناجاته لله وصلاته على رسوله.

وقد ذكر الشيخ ياسين الزملكاني –حفظه الله– (حفيد شيخ المترجم) مراراً أنّ الشيخ يحيى جمعه بالنبي صلى الله عليه وسلم يقظة، وسمعت ذلك في مجلسه بنفسي مع عدد من الحضور، وملخص ذلك: أنه حضر مرة أحد مجالس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم التي تعقد صباح الأربعاء، وكان يومها في جامع سنان باشا، بحضور عدد كبير من العلماء وأهل الولاية،

---

[299] النور الخالد (52)، فتح الله كولن.

يقول: التفتّ فإذا الشيخ يحيى في صدر المجلس، فنظر إليّ حتى أحسست أنه يريد شيئاً مني، فلما هممت إليه إذا به قد استغرق في الذكر، وأخِذ بي عن نفسي فغاب شخصه عني تماماً، ورأيت بدله سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم!!

وقد أحبّ البعض أن يتأكد مما يقوله الشيخ ياسين فسأله: يا سيدي لعلّ ذلك كان غفوة أو مناماً؟ فقال بل يقظة!! وأكّد مراراً على أنّ هذه الرؤيا كانت يقظة.

وما فعله سيدي يحيى مع الشيخ ياسين إنما فعله لأنه من أهل الله، فقد كان والده –وهو صاحب كرامات– يقول له: "يا ليتني شعرة ببدنك ولو ترضى لقبلت قدمك!!"، فهو رجل مؤهّل روحياً لهذا، وعنده الاستعداد الكامل لذلك الحدث، ولم يفعله الشيخ يحيى مع عامي من الناس، لا يملك الاستعداد.

وفعله الشيخ يحيى أيضاً مع صهره زوج ابنته الشيخ محمد عاشور، وهو صالح ابن صالح[300]، فقد قال لزوجته – بنت الشيخ يحيى– بعد عودتهما من نزهة مع الشيخ كان فيها الكثير من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كالعادة، قال لها معجباً مندهشاً: لقد جمعني أبوك بالنبي عليه الصلاة والسلام يقظة[301].

فلا تنكر ما حدثتك به، فإني أرويه عن ثقات معروفين بصلاحهم ومشهود لهم بين الناس بذلك. وقد قيل: من تحقّق بحالة لم يخلُ حاضروه منها، فمن جلس على دكان العطار لم يفقد الرائحة الطيبة. وفي هذا المعنى يقول أبو العباس المرسي: "والله لقد صحبت أقواماً يعبُر أحدهم على الشجرة اليابسة فتثمر رماناً للوقت". وأبو العباس هذا قال فيه شيخه أبو الحسن الشاذلي (ت:656هـ) –رحمه الله–: "هو الرجل الكامل، والله إنه ليأتيه البدوي يبول على ساقيه، فلا يمسي عليه المساء إلا وقد وصله إلى الله". وقد كان أبو الحسن الشاذلي يوصل الرجل إلى الله من نفس واحد[302].

وأيضاً فإنّ مما هو مقرّر عند العلماء أنّ الأعمال منها ما هو مقبول ومنها ما هو مردود، إلا الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فإنها مقبولة غير مردودة، وهي بمثابة الشيخ في آخر

---

[300] من تلاميذ ومحبي الشيخ السيد المكي الكتاني. انظر: فصل زوجاته وأولاده، لتطلع على حال هذا الرجل.

[301] هكذا كانت نزه الشيخ يحيى مع عامة الناس فكيف مع الخاصة!؟ ذكر وصلاة على رسول الله عليه الصلاة والسلام، قارن هذا بنزه عامة الناس اليوم؛ بل بنزه بعض طلاب العلم أنفسهم والمحسوبين على العمل الإسلامي، ترى الفرق البيّن، فما كلّ بيضاء شحمة، ولا كلّ سوداء تمرة. كما قال النابغة:

حسبنا زماناً كل بيضاء شحمة ليالي إذ نغزو جذاماً وحميرا

وهذا البيت من قصيدته المئوية التي مدح فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم حسبما ذكر السبكي في طبقاته ونقل أبياتاً كثيرة منها.

[302] انظر: الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية (97 و 123).

الزمان، والإكثار منها ربما أنتج كثرة رؤيته صلى الله عليه وسلم في المنام، وربما في اليقظة، وغير ذلك من الفتوحات والإكرامات[303].

كان سيدي يحيى كثير الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان ورده من ذلك يتجاوز آلاف المرات في اليوم الواحد، حيث كان لا يخلو مجلس من مجالسه منها، حتى إنه إذا خرج لنزهة وأخذ مجلسه فيها لا يترك الوقت يضيع بما لا ينفع، بل يبادر فيقول: نريد أن نصلي على النبي، وكان يبتكر طرقاً عديدة لحثّ الذاكرين على حضور القلب والخشوع، وتفريغ البال من الشواغل، من ذلك أنه كان وقت الصيف –حيث الحرّ وتكاد تكون نسمات الهواء معدومة– يشير إلى شجرات أمامه ويقول لجلسائه: هذه الشجرة لي، وهذه لك، وهذه لفلان، وهكذا يخصص لكل شخص شجرة، ويقول لهم: أريدكم أن تصلّوا على النبي بخشوع وحضور قلب حتى تتحرك أغصان هذه الشجرات ببركة وفضائل هذه الصلوات، فصاحب القلب الحيّ هو الذي تتحرك أغصان شجرته متناغمة مع ذكره وصلاته (أسلوب له لجمع القلب على الحضور أثناء الذكر)، وأسرعنا حضوراً من تتحرك أغصان شجرته قبل غيرها، وأفضلنا حضوراً من تتحرك أغصان شجرته أكثر، فيجلس مع مرافقيه يصلون على النبي عليه الصلاة والسلام ويذكرون الله تعالى، يتخلل ذلك إما شيء من الطعام أو التفكّه أو شرب الشاي الأخضر، ثم يعود أدراجه، وقد ملأت نفوس مرافقيه السعادة من هذا المجلس وما تخلله من مواعظ وأحاديث مفيدة ممزوجة بالفكاهة والدعابة، فقد كانت له طريقة فريدة وعجيبة في الوعظ والإرشاد، تأخذ بلب السامع وقلبه، بحيث لا يستطيع إلا أن يمتلئ تأثراً وإعجاباً ومحبة.

لقد كان الشيء الذي لا يخلو من مجلسه هو الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وأذكر أنا وإخوتي أننا لما كنا صغاراً كان يعطينا نقوداً ترغيباً لنا ويقول: صلوا على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يكرر ذلك ويقول: ارفعوا أصواتكم وأسمعوني.

وكان إذا بدأ ورده من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم لا يقطعه حتى يتمه، فكم من مرة جاءه الزوار من دمشق ومن خارجها، منهم العلماء والمفتون وغيرهم وهو مستغرق في ورده، فلم يكن يكلمهم حتى ينتهي منه.

وكان يحب التنويع في صيغ الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك أنه كان يكثر من قراءة (دلائل الخيرات) للإمام الجزولي رحمه الله، وخاصة يومي الإثنين والجمعة، وليلتيهما.

ومن أحواله أيضاً في محبة النبي صلى الله عليه وسلم ترديده لبعض أشعار ابن الفارض في محبة هذا النبي العظيم، كقوله في إحدى قصائده:

وعلى تفنّن واصفيه بوصفه   يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

[303] المحدث الأكبر، محمود بيروتي(284–285).

وعلّق مرة على هذا البيت فقال: طُلب من ابن الفارض أن يمدح النبي عليه الصلاة والسلام، فما مدحه بسوى هذا البيت، لأنه مستحيل أن يعرف أحد النبي صلى الله عليه وسلم تماماً، لأنه لو عرفه لكان مثلاً له في المرتبة، ولا مثل له عليه الصلاة والسلام.

ومرة تمثّله ثم قال: لو تفنّنت الشعراء والأدباء والعلماء بذكر أوصاف النبي وما خصّه الله من علوم الشريعة، ومقام كريم، ورفعة قدر، وشأن عظيم، ومكانة لا تطال، وشرح قرآن على أربعة عشر قراءة، كلها في صدره صلى الله عليه وسلم بقوله سبحانه وتعالى: (فإنما يسرناه بلسانك) [مريم:97] يفنى الزمان والأعصر والدهور ويبقى فيه صفات لا تعلم.

ومن الأبيات التي كان يرددها في محبة رسول الله عليه الصلاة والسلام:

يا من أسرني بالجمال   صِل مغرماً وارع الجميل

من علّمك هذا الدلال   قل لي فهل عندك دليل

لما ضنا جسمي الغرام   من جهلهم جابوا الطبيب

يا ناس أنا راحتي السقام   الموت ولا بعد الحبيب

وكان يذكر قول أبي العتاهية:

وليس على الله بمستنكَر   أن يجمع العالم في واحد

ويقول: هذا الواحد هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم يستشهد بقول الإمام البوصيري في البردة الشريفة:

هو الحبيب الذي ترجى شفاعته   لكل هول من الأهوال مقتحم

وكلهم من رسول الله ملتمس   غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم

أقول: وهذا يؤيده قول الله تعالى: (إنّ إبراهيم كان أمّة) [النحل:] لأنه يجتمع فيه من الكمالات ما لا يوجد إلا في جماعة.

ومما قرأته في كراسته بخطه: "قال تعالى جده: (وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا) [الإسراء:74]. وقال تعالى إحسانه: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) [إبراهيم:27].

فالثبات للمؤمنين حاصل بالقول الثابت، والثبات للنبي صلى الله عليه وسلم حاصل بالفعل، لكونه ممدّاً للمؤمنين وهو أولى بهم، وهو أبوهم، وأزواجه أمهاتهم. صلى الله عليه وعليهم أجمعين".

وقدمت في أول هذا الفصل أنّ من أحب شيئا آثره وآثر موافقته؛ وإلا لم يكن صادقاً في حبه وكان مدعياً، فالصادق في محبة النبي صلى الله عليه وسلم تظهر عليه علامة ذلك، وأول العلامات الاقتداء به واستعمال سنته، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والتأدب بآدابه في العسر واليسر والمنشط والمكره، وهذا دلّ عليه قوله تعالى: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله)

[آل عمران:31]، وقال عليه الصلاة والسلام: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به"[304].

لذلك كان دائم التذكير في مجالسه بفضل هذا النبي العظيم وفضل محبته والصلاة عليه، وضرورة اتباعه والتأسي به في هديه وسمته، قال –رحمه الله– في تفسير قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) [آل عمران:81]. "ختم تعالى هذا المقام لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله: (فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) ليعلمنا بعظيم شرفه ومرتبته وأنه المتبوع وهم التابعون له، والمقصود بالذات وهم له لاحقون، وإنما تأخّر ظهوره الحسّي ليكون مستدركاً لما فاتهم من الكمالات وجامعاً لجميع فضائلهم وزيادات. ويشهد لهذا قوله سبحانه وتعالى يوم عرفات في محضر مئة ألف وأربعة وعشرين ألفاً من أصحابه[305] (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً) [المائدة:3]"اهـ.

وفي أحد المجالس في بيت السيد محمد المكي الكتاني، أخذ بعض الحاضرين كأس الشاي بشماله، فقال له الشيخ يحيى: خذه بيمينك، وذلك عملاً بسنة التيامن، فنقله الرجل بيده اليسرى ووضعه في يده اليمنى ممتثلاً أمر الشيخ، فقال له الشيخ: ارفع، ارفع، ارفع، والرجل يمتثل حتى وصل بالكأس إلى فمه، فأخذ يشرب الشاي ويبكي، يبكي فرحاً أنه استطاع أن يحرّك يده اليمنى التي كانت مشلولة منذ مدة، ويتواصل بكاءه والشيخ يقول له: لو قلت لا أستطيع لما أكرمك الله بذلك.

انظر فضل الامتثال للسنة الشريفة والانقياد للعلماء، فمن أجل امتثاله بسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام كما وجهه الشيخ جاءه الكرم الرباني والإذن الإلهي بالشفاء من الشلل.

وهذا له شاهد من الهدي النبوي يدل عليه ويؤيده، فقد روي عن الصحابي سلمة بن الأكوع –رضي الله عنه– أنّ رجلاً أكل عند النبي صلى الله عليه وسلم بشماله فقال: "كل بيمينك" قال: لا أستطيع. قال: "لا استطعت" –ما منعه إلا الكبر– فما رفعها إلى فيه[306].

إنّ كلّ أحوال الشيخ التي مرت معنا أو سنتحدث عنها في بقية هذا الكتاب من السعي على العيال، والكسب الحلال، والتوكل، والكرم، والتصدق، والزهد، وقضاء حوائج المسلمين، وغير ذلك هي من تجليات هذه المحبة وهذا الاتباع لهذا النبي الكريم المكرّم.

---

[304] ذكره النووي في الأربعين النووية، وقال: حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح.

[305] جزم بهذا العدد الجلال السيوطي في الخصائص الصغرى.

[306] أخرجه مسلم في الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما.

ولقد كان من آثار هذه المحبة ونتائجها، مشاركته إخوانَه من العلماء المحبين في تأسيس مجالس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والمداومة على حضورها وملازمتها.

مجالس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

أول من أسس مجلس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم[307] هو الشيخ محمد عارف عثمان بن رشيد الباني[308] (ت:1965م)، رحمه الله، وكان قد أخذ إجازة بصيغة للصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أثناء إقامته في المدينة المنورة من رجل صالح من العارفين بالله، تعرّف عليه في المسجد النبوي حيث كان دائم الاعتكاف فيه، والصيغة هي: (اللهم صل على سيدنا محمد وآله وسلم) على أن تُقرأ اثنتين وتسعين ألف مرة، وذلك بتلقين من رسول الله صلى الله عليه وسلم في رؤيا رآها ذلك العارف[309]، فرجع الشيخ محمد عارف إلى دمشق فلقي شيخه مفتي الشام في ذلك الوقت وشيخ الحنفية، الشيخ عطا الله الكسم (ت:1357هـ)، وقص عليه الخبر وبلغه الأمر، وهكذا ابتدءا المجلس، وكان مجلسهما ينعقد من الصباح حتى المساء كل أربعاء من كل أسبوع في بيت الشيخ عارف نفسه في (القيمرية)، وكان ذلك منذ ما يقرب من سبعين عاماً (في بداية الأربعينيات من القرن العشرين)، ودعي للمجلس جمع منهم: الشيخ محمد سعيد البرهاني، والشيخ عارف الدوجي (ت:1371هـ)، والشيخ سعد الله الحريري (ت:1384هـ)[310]،

---

[307] مجلس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم هو مجلس يقام في أحد المساجد أو في أحد البيوت، ويتم فيه الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم (92) ألف مرة، وربما يكتفي البعض بأقل من ذلك، ويقرأ فيه أيضاً بعض الأذكار والأوراد.

[308] الحسيني (نسبة لقضيب البان الموصلي) الدمشقي الحنفي، كان تاجراً بسوق الخياطين مع الشيخ محمد نجيب كيوان، رحمهما الله تعالى.

[309] وتفصيل ذلك، قصة يرويها الشيخ هشام البرهاني عن والده محمد سعيد، وهي أن الشيخ عارف عثمان كان مجاوراً في المدينة المنورة، وكان دائم الجلوس في مصلى النبي صلى الله عليه وسلم في الروضة الشريفة، فكان يرى شيخاً صالحاً من السودان يكثر المكوث في الروضة أيضاً، لكنه يغطي رأسه ووجهه بغطاء أبيض، فلفت وجوده الدائم نظر الشيخ عارف، فقال في نفسه: أتمنى أن أتعرف على هذا الرجل وأقبّل يده، وذات يوم رفع الشيخ السوداني عن رأسه وأقبل على الشيخ عارف وقال له: السلام عليك يا شيخ عارف، وسماه باسمه!! فرح الشيخ عارف بذلك واستغرب كيف ناداه باسمه، فقبّل يده واستقبله بحرارة وجلسا متقابلين كل منهما ينظر ويديم النظر في صاحبه، ثم قال الشيخ السوداني: ياشيخ عارف حضرة النبي صلى الله عليه وسلم يُقرؤك السلام، وقد حمّلني أمانة إليك، وهي: قم للشيخ عارف عثمان الذي يجلس في محرابنا وقل له: يأمرك رسول الله بالنزول إلى الشام وعقْدِ مجلس الصلاة عليه بالصيغة التالية: اللهم صل على سيدنا محمد وآله وسلم، اثنان وتسعون ألف مرة، وستجدون خيرها. فقال الشيخ عارف: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. وتعانق الشيخان وسط البكاء فرحا واستبشاراً، وتعاهدا على المضي في التكليف، ونزل الشيخ عارف إلى الشام للقيام بالأمر.

[310] وهذا ما ذكره لي الشيخ هشام البرهاني من الأسماء الأوائل التي دعاها الشيخ محمد عارف عثمان للمجلس، لكن الشيخ محمد خير مسلماني في رسالته عن تأسيس المجلس عندما يذكر المؤسسين –وكما أكّد لي شخصياً– يذكر أسماء مختلفة تماماً، فهم حسب روايته: الشيخ محمد عارف عثمان، والشيخ عطا الكسم، والشيخ عبد الرزاق الطرابلسي، والشيخ عبد الرحيم أبو الشامات، فقط، ويذكر أنهم انزووا في زوايا الغرفة وتقاسموا العدد، كل واحد منهم يأخذ (23) الف مرة حتى آذان الظهر أو قبله بقليل.

ولما بلغوا أربعة عشر شخصاً تقريباً انتقلوا إلى مسجد القاري بجوار بيت الشيخ عارف في حي القيمرية، قرب مكتب عنبر، وصار يحضره الشيخ يحيى الصباغ والشيخ محمد الهاشمي وآخرون، إلى أن كثر العدد فانتقل المجلس إلى المساجد الكبيرة، حيث صار يحضره جل العلماء والعارفين من مدينة دمشق[311].

كان المجلس يقتصر فقط على الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بالصيغة المجاز بها، وأما الحضرة[312] والذكر فقد تمّ إضافتها عقب المجلس بعدما طلب الشيخ يحيى الإذن في ذلك من الشيخ محمد الهاشمي، وكان ذلك، وهكذا اشتهر أمر المجلس بحيث لم يبق أحد من أهل العلم إلا وشارك فيه على اختلاف طرقهم الصوفية، الرفاعية، والقادرية، والرشيدية، والنقشبندية، وغيرها، وأضاف بعض المشايخ شيئاً من الأوراد التي تناسب طريقته في الذكر، فالشيخ سعد الله الحريري زاد أسماء الله الحسنى، والشيخ يحيى بإذن من الشيخ محمد الهاشمي زاد الحضرة،

---

[311] ويفصّل الشيخ محمد خير مسلماني في رسالته ذلك فيذكر: أن المجلس انتقل من مسجد القاري إلى منزل الشيخ عبد اللطيف الدقر صهر الشيخ عارف عثمان فترة من الزمن استمرت ثلاثة أشهر ووصل العدد إلى ثلاثين أو أربعين شخصاً، ثم بعدها انتقل المجلس إلى دار الحديث في العصرونية، في هذه الفترة اتصل الشيخ محمد عارف عثمان بالشيخ محمد سعيد البرهاني والشيخ محمد الهاشمي والشيخ يحيى الصباغ -رحمهم الله تعالى- وانضموا لحضور المجلس في دار الحديث، فلبثوا فترة فيها والعدد قليل لم يزدد كثيراً، حتى رأى الشيخ يحيى الصباغ النبي صلى الله عليه وسلم في الرؤيا ما يدلّ على تعميم هذا المجلس في مساجد دمشق، فانعقد المجلس في المسجد الأموي فترة، ثم مسجد محيي الدين بن عربي فترة أخرى، ثم مسجد الشيخ عبد الغني النابلسي، ثم بعدها مسجد مازي في حي الميدان.

ويذكر الشيخ المسلماني أن الشيخ يحيى هو الذي كان يحرّك هذا المجلس، وأنّ الشيخ محمد سعيد البرهاني كان هو الذي يسجل وهو الذي يدعو، أما قراءة قصة المولد فكانت على الشيخ عبد الوهاب الصلاحي وحده.

[312] الحضرة هي عبارة عن مجلس ذكر جماعي، يتحلّق فيه الذاكرون حلقة واحدة وهم بحال القيام، وكل واحد يمسك بيديه يد من على جانبيه، ثم يذكرون الله تعالى وهم على هذا الحال، ويكون ذكرهم بترديد لفظ الجلالة باللفظ المفرد (الله، الله) بصوت مرتفع وبنغمة معينة، ويقارن ذكرهم إنشاد مجموعة من المنشدين المشاركين، أناشيد وابتهالات متنوعة، تمجد الذات الإلهية العلية، أو تمدح الحضرة النبوية الشريفة، على صاحبها أزكى الصلاة والسلام والتحية.

وقد كانت هذه (الحضرة) في زمن أولئك الأعلام من العلماء العارفين، كالشيخ محمد الهاشمي، والشيخ أبي الخير الميداني، والشيخ محمد سعيد البرهاني، والشيخ يحيى الصباغ، وغيرهم، منضبطة بقواعد الشرع وآدابه، لا يجرؤ أحد من الناس – كائناً من كان – أن يخرج بها عن حدود الشرع قيد أنملة، فلو ظهر من أحد الذاكرين ما يخالف شروط الذكر الجماعي، من قفز أو صياح ونحو ذلك؛ قام المشرفون على الذكر بنهيه عن ذلك وتنبيهه، فإن لم يلتزم أخرج من حلقة الذكر. ثم بدأ الأمر بعد زمن من انتقال هؤلاء العلماء الأعلام يميل إلى التساهل والتغاضي بعض الشيء، فبدأت تظهر في بعض حلقات الذكر (الحضرة) – وليس كلها– بعض المخالفات التي تسيء لهذه المجالس، ولا يصح السكوت عنها.

والذكر الجماعي أجازه الشافعي وغيره، وحرمه مالك ومن معه ممن قال بسد الذرائع، وأدلة المجيزين كثيرة، فمن الكتاب قوله تعالى: (فاذكروني أذكركم)، ومن السنة ما في الصحيحين وغيرهما: "من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم".

ولكن يشترط في الذكر الجماعي شروط منها: خلّوه عن محرم أو مكروه يقترن به، والتزام أدب الذكر من كونه شرعياً أو في معناه، بحيث يكون بما صح واتضح، وأن يكون على وجه السكينة، وإن مع قيام مرة وقعود أخرى، لا مع رقص وصياح ونحوه. انظر: القاعدة (122) من كتاب قواعد التصوف.

وهكذا، حتى صار الورد العام للمجلس مكوناً من هذا المجموع الموجود اليوم، ثم تأسس المجلس في عدد من المدن السورية كحلب وحمص وحماة، بجهد مجموعة من العلماء والصالحين، حيث قاموا بزيارة لشيخ من كبار العارفين في مدينة حمص يعرف بالشيخ حافظ، وكان في هذه الزيارة كبار المشايخ منهم: الشيخ محمد عارف عثمان، والشيخ محمد الهاشمي، والشيخ محمد سعيد البرهاني، والشيخ يحيى الصباغ، والدكتور الشيخ صلاح الدين خير الله، رحمهم الله تعالى جميعاً.

ولكن قبل هذا كله بسنين كان يعقد مجلس للحضرة عند مقام الشيخ الأكبر، وبلغني أن الشيخ أمين سويد كان يقول عنه: هذه الحضرة محضورة.

وكان الشيخ أبو الطيب قويدر -رحمه الله- يحدّث أولاده -وعنهم أنقل هذا- أنه كان يحضر هذه الحضرة عند مقام الشيخ الأكبر ولم يبلغ من العمر أربع سنين، ويذكر أنه كان يجلس على النافذة لصغره، وكان يرى الشيخ يحيى في هذا المجلس.

كان حضور الشيخ يحيى للمجلس لافتاً، كما في أي مجلس يتواجد فيه، فصوته الجهوري لا يخفى على أحد، فكان يتكلم، ويعظ، ويعلق، ويدرس، فكان هو المحرّك لهذا المجلس الذي يمتاز معظم الحضور فيه بأنهم من كبار أهل العلم ورجال التصوف[313].

وكان من عادة الشيخ في معظم مجالسه أن يجمع المال من القادرين ليردّه على المحتاجين[314]، وكان يفعل ذلك أثناء حضوره هذه المجالس.

بعد أكثر من سنتين على وفاة سيدي يحيى والسيد محمد الهاشمي، لوحظ بعض الفوضى في جمع المال، حيث لم يعد ذلك منضبطاً كما كان، مما حدا ببعض العلماء -وقد أزعجهم استمرار ذلك بطريقة غير منضبطة- وحرصاً منهم على سمعة هذه المجالس وهيبتها، حدا بهم ذلك إلى عقد اجتماع حضره كلّ من: الشيخ محمد عارف عثمان (وكان الاجتماع في بيته في بلدة الزبداني)، والشيخ محمد سعيد البرهاني، والشيخ عبد الكريم الرفاعي، والشيخ أبو كامل الخطيب، والشيخ أحمد الحبال الرفاعي (ت:1431هـ)، والشيخ أبو عزت عصاصة، والشيخ خير الحمصي، رحمهم الله جميعاً، وحضر معهم الشيخ هشام البرهاني الذي حدّثني بهذه التفاصيل -حفظه الله- واتفقوا في هذا الاجتماع على ترك مجلس الأربعاء، وعقْد مجلس آخر يوم الاثنين،

---

[313] انظر: في الفصل السابق قصة الشيخ يحيى مع الشيخ ياسين الزملكاني وكيف جمعه يقظة برسول الله صلى الله عليه وسلم.

يروي السيد أبو الطيب قويدر رحمه الله أن السيد محمد المنتصر الكتاني سأل عمه السيد محمد المكي الكتاني: أين أجد الأبدال من الأولياء الذين أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنهم في الشام؟ فأخذ بيده إلى مجلس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في جامع التوبة، وقال له: إن لم تجدهم هنا فلن تجدهم في مكان آخر.

[314] انظر: فصل داووا مرضاكم بالصدقة.

باعتباره يوم مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن أصرّ قسم من أهل العلم وعلى رأسهم الدكتور الشيخ صلاح خير الله على مجلس الأربعاء باعتباره هو الأصل[315]، ورفضوا عقد مجلس آخر يوم الإثنين، ورأوا في ذلك شقاً للصف وانقساماً غير مبرر لوحدة الكلمة.

وهكذا صار هناك مجلسان، مجلس يوم الأربعاء، وآخر يوم الاثنين، وعُرِف كل مجلس برجالاته. بعد مدة من الزمن –وقد انتقل كل المؤسسين الأوائل إلى رحمة الله– صار بعض رجالات المجلسين يتزاورون في هذه المجالس، فهؤلاء يحضرون مع أولئك، وأولئك يحضرون مع هؤلاء، حرصاً على وحدة الكلمة، وخوفاً من أن يفسر عدم الحضور بالتدابر أو الاختلاف.

أسس الشيخ يحيى أيضاً عدداً من مجالس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعضها في المساجد وأخرى في البيوت، وذات مرة أنكر عليه أحد العلماء إقامة مجلس للصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في مسجد الشيخ الأكبر، وقال له: لو أقمت مجلس علم بدل هذا المجلس لكان أفضل، فانتفض الشيخ انتفاضة المغضَب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال له بكل حدة: اسكت، هذا مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم!! فخجل هذا العالم وخرج من المسجد، فرأى من ليلته رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرؤيا وهو يعاتبه قائلاً له: لماذا خرجت من مجلسي؟

ومما يذكر هنا ما ذكره الشيخ إبراهيم الفضلي الختني البخاري نزيل المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وكان في زيارة للشام أنه حضر مجلساً للصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم قريباً من جامع التوبة اصطحبه إليه الشيخ محمد سعيد البرهاني رحمه الله، وكان في المجلس الشيخ محمد الهاشمي وبجانبه الشيخ يحيى الصباغ، يقول: فلما أنهيت مئة صلاة على النبي قلت للذي يأخذ الصلوات: (مئة)، فقال لي: بعد الألف، فقال له الشيخ يحيى: مئة هذا الشيخ بمنزلة ألف غيره، أي لأنه من المدينة المنورة[316].

وهذه المجالس لا تزال قائمة إلى اليوم، لكن مع تعدد القائمين عليها وزهد العلماء في حضورها تضاءل أثرها، ولم تعد تجمع إلا القليل من أهل العلم، بعكس ما كانت عليه من قبل، فقد كانت هذه المجالس إلى نهاية السبعينيات من القرن الماضي يحرص على حضورها كثير من العلماء، وكثير من أهل الصلاح والتقوى، فكنت ترى في المجلس الواحد عدداً كبيراً من العلماء بل من

---

[315] ويؤرخ الشيخ محمد خير مسلماني على نسخته (المجموعة المباركة) وهي مجموعة الأذكار والقصائد التي تقرأ في المجلس، وقد أطلعني على التاريخ المدون عليها بما يشير إلى أنّ تحول المجلس من مجلس واحد إلى مجلسين حدث في شهر تموز عام 1964م، أي بعد ثلاث سنوات من وفاة سيدي يحيى والسيد الهاشمي والشيخ محمد أبو الخير الميداني، ويصرّ في حديثه لي على أنّ السبب لا علاقة له بجمع المال، وإنما هو برأيه من تشويش بعض الأتباع الذين تعصبوا لشيوخهم، وأيضاً لغياب صفاء بعض النفوس وتغلب الذات والأنا، كما يؤكد في حديثه لي أنّ الشيخ محمد عارف عثمان رحمه الله المؤسس الأول للمجلس، لم يترك مجلس الأربعاء الذي أسسه بنفسه.

[316] محمد سعيد البرهاني أربعون عاماً في محراب التوبة (92)، محمد رياض المالح.

كبارهم، وكان المسجد يمتلئ بالناس المحبين، كيف لا وفيها العلماء الربانيون الذين برؤيتهم يذكر الله، وبكلامهم ومواعظهم تصقل القلوب، فقد كانت–حقاً– مجالس تزكي النفوس، وتمسح عنها أدران الدنيا.

ورحم الله المؤدب أبو الحسن علي بن أحمد الفالي (ت:448هـ) الذي قال:

لما تبدّلت المجالس أوجها ... غير الذي عهدت من علمائها

ورأيتها محفوفة بسوى الألى ... كانوا ولاة صدورها وفقهائها

أنشدت بيتاً سائراً متقدماً ... والعين قد شرقت بجاري مائها

أمّا الخيام فإنّها كخيامهم ... وأرى نساء الحيّ غير نسائها

وأما اليوم فلا خيام ولا نساء، ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

أسأل الله تعالى أن يبارك في كل المجالس التي يراد بها وجهه الكريم، ويديم نفعها، وأن يبارك في الصادقين المخلصين من أهلها والقائمين عليها.

زهده في الدنيا

كان حال الصحابة الأجلاء وكبار التابعين والصالحين من هذه الأمة الزهد في الدنيا والإعراض عنها بقلوبهم، وذلك رغبة فيما عند الله وتأسياً بحال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فالزهد سبب المحبة "ازهد في الدنيا يحبك الله"[317]، وكان صلى الله عليه وسلم سيد الزهاد، فهذه فاطمة رضي الله عنها تأتيه بكسرة خبز، فقال لها: "ما هذه الكسرة يا فاطمة؟" قالت: قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام!!"[318].

وهذه السيدة عائشة تحكي حاله فتقول: "كانت تأتي علينا أربعون ليلة و ما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا غيره. قال: قلنا: أي أماه فبم كنتم تعيشون؟ قالت: بالأسودين التمر و الماء"[319].

وبه اقتدى الصحابة الكرام رضي الله عنهم، فأعرضوا عن الدنيا بالكلية، ولم يلتفتوا إليها ولا إلى شيء من حطامها، فلم تكن لهم على بال بكل ما فيها، لأنّ الآخرة كانت همّهم، ولرضوان الله تعالى كان مسعاهم وجدّهم، فلما أقبلت عليهم الدنيا تعاملوا معها بحسن تدبيرهم، فإذا جاء الحق يطلبها من أيديهم أنفقوها راضية أنفسهم قريرة أعينهم، وكانوا عند المكارم أجود بالدنيا من الريح المرسلة.

كيف لا يكونون كذالك والدنيا عندهم هي كما يقول سيدنا علي: "الدنيا جيفة، فمن أراد من الدنيا شيئاً فليصبر على مخالطة الكلاب"[320].

وحقيقة الزهادة في الدنيا هي أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك.

وهذا ينشأ من صحة اليقين وقوته، فإنّ الله ضمن أرزاق عباده وتكفّل بها (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) [هود:6].

وقد نقل عن سيدي يحيى كلام في غاية النفاسة مما يتعلق باليقين، وذلك أثناء شرحه للحديث التي روته السيدة عائشة الصديقة -رضي الله عنها- عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: "من أرضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس، ومن أسخط الناس برضا الله كفاه الله مؤنة الناس"[321] فقد قال سيدي يحيى رحمه الله: "إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله،

---

317 ابن ماجه (4102).

318 البيهقي في شعب الإيمان.

319 الحاكم في المستدرك، كتاب الأطعمة.

320 مجمع الأحباب (293/1).

321 الترمذي (2414).

وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمّهم على ما لم يؤتك الله، إنّ رزق الله لا يجرّه حرص حريص ولا يردّه كراهية كاره. إنّ الله تبارك اسمه جعل الشرح والفرح في الرضى واليقين، وجعل الهمّ والحزن في السخط والشكّ، إنّك لم تدع شيئاً تقرّباً إلى الله إلا أجزل لك الثواب عليه، فاجعل همّك وسعيك لآخرة لا ينفذ فيها العطاء".

وفي شرحه لقوله تعالى: (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) [فاطر:2]. قال رحمه الله: "يلزم على العبد الصادق في محبة الله أن لا ينظر الفتح إلا من الله، ولو جاءه من الأكوان يلزمه أن يعتقد أنّ الخالق واحد، والرازق واحد، والمسخّر واحد، والمسبّب واحد، والباسط واحد. ولو تعددت صفاته بمعنى أسمائه بقوله: (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) [الإسراء:110]. فلو ذَبحْتَ الذبيحة باسم تسعة وتسعين من أسمائه بكونها صفات لم تجز الذبيحة بغير اسم الله الأكبر الأعظم، أو صَلّيتَ بلفظٍ سوى (الله أكبر) لم تصحّ الصلاة".

فالزهد من أعمال القلوب لا من أعمال الجوارح، ولهذا كان أبو سليمان الداراني يقول: "لا تشهد لأحد بالزهد، فإنّ الزهد في القلب".

ومن هنا عرف بعضهم الزهد بأنّه خلوّ القلب من التعلق بغير الرب، أو برودة الدنيا من القلب وعزوف النفس عنها.

فزهد العامة ترك ما فضل عن الحاجة في كل شيء، وزهد الخاصة ترك ما يشغل عن التقرب إلى الله في كل حال، وزهد خاصة الخاصة ترك النظر إلى ما سوى الله في جميع الأوقات[322].

ومن هنا فإنّ الزهد في الدنيا صفة من الصفات المتأصلة عند الأولياء والعارفين، وبسببه يجري الله ينابيع الحكمة على أفواههم، وتنطق بها ألسنتهم، فعن أنس رضي الله عنه قال: كتب عمر بن الخطاب إلى عمّاله: "اكتبوا عن الزاهدين في الدنيا، فإنّ الله عز وجل وكّل بهم ملائكة واضعي أيديهم على أفواههم، لا يتكلمون إلا بما هيأه الله لهم"[323].

وعلى هذه الشاكلة كان سيدي يحيى، رحمه الله، زاهداً في الدنيا، معرضاً عنها قلباً وقالباً، لا يعولّ إلا على الله، شديد التوكل عليه مع صدق في هذا التوكل، كبير الثقة بربه، لا يلتفت إلى أحد سواه، فلا يعتمد على مخلوق، وكان يقول: "كل أمر بيد الله، وهذه الأسباب حجابه، فلا تكن إلا مع الله"، لذا لم يكن يركن إلى جاه، ولا يؤخذ بمنصب، ولا يغريه مال، ولا تهزه النوائب ولا الحوادث، وكان يقول: "نفسك الطماعة علّمها القناعة"، فقد كان بحق جبلاً راسخاً، وطوداً شامخاً، ووريثاً محمدياً من حيث صدق توكله على ربه، وتسليمه واستسلامه لخالقه، واعتماده الكامل على الواحد الأحد، وهذه هي عين الاستقامة على شرع الله، لأنهم قالوا: استقامة لا ورع

[322] معراج التشوف.

[323] مجمع الأحباب (217/1).

فيها غير تامة، وورع لا ينتج زهداً قاصر، وزهد لا يثير توكلاً يابس، وتوكل لا تظهر ثمرته – بالانقطاع إلى الله تعالى عن الكل واللجأ إليه– صورة لا حقيقة لها[324]، فحال سيدي يحيى يذكرنا بأولئك الربانيين الذين لم تدخل الدنيا إلى قلوبهم، ويذكرنا بأولئك الذين إذا امتلأت جيوبهم منها تحايلوا للتخلص منها، وكأنها ثعبان أو عقرب.

فقد روي أن الصحابي طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، باع أرضاً له بسبعمئة ألف، فلما حُمِل المال إليه قال: "إن رجلاً تبيت هذه عنده في بيت لا يدري ما يطرقه من الله سبحانه وتعالى لغرّير بالله عز وجل"، ولم ينم، وجعل رسوله يختلف بها في سكك المدينة حتى أسحر وما عنده منها درهم[325].

كان سيدي يحيى يشتري طعام يومه يوماً بيوم، وكثيراً ما يستدين حاجته من الطعام من اللحام والسمان والخضري، وكان أحياناً يتأخر كثيراً في السداد، ثم لما يأتيه رزقه يردّ ما عليه للدائنين، وكثيراً ما كان بعضهم يستردّ دينه مرات عديدة، فيتغافل هو عن ذلك، ناوياً إما جبرهم بتأخره عليهم، أو إدخال السرور عليهم، أو التصدق لوجه الله تعالى، أو عدم إحراجهم، وكان يعطيهم وهو يضاحكهم ويمازحهم، وكأنه يشير إليهم إلى أنه يعرف أنهم قد استردوا ديونهم من قبل.

ومن زهده وتواضعه وتعلقه بربه واعتماده على فتح الله ومواهبه وعطاياه، أنه لم يكن يقتني حتى الكتب، ولم يكن له في بيته مكتبة، فمكتبته كانت تضم كتابين فقط: كتاب الله تعالى، وكتاب الفتوحات المكية، فقد كان بذلك –رحمه الله– على سلف العارفين في التخلي عن كل ما يربط العبد بالدنيا، أو يشغله عن ربه، أو يخرّب عليه نفسه أو يخشى منه أن يخلّ بتواضعها، مثل الترف والسرف، أو غنى التعالي والتفاخر، فلعله كان يجد في اقتناء الكتب والإكثار منها شيئاً من ذلك.

وهكذا الربانيون لا يتعلقون بشيء مهما بدا غالياً عليهم فهذا الشيخ الرباني أبو الخير الميداني يخرج عن مكتبته التي كانت أعز الأشياء عليه مرتين زهداً في الدنيا.

ولقد سمعت من أحد مشايخي أنّ ثلاثة من علماء المغرب، ومنهم المحدث الشريف السيد محمد بن جعفر الكتاني (ت:1345هـ)، والد السيد المكي رحمهم الله تعالى، ذهبوا إلى شيخ في بلادهم (المغرب) يعتقدون به الصلاح والولاية، وطلبوا منه إصلاح نفوسهم، فشرط عليهم أن يبيعوا كتبهم، ويغيروا ملابسهم من زي العلماء إلى زي العوام، ثم طلب منهم نقل مزبلة من غرب المدينة إلى شرقها، ففعلوا!!

وإذا كانت النفوس كباراً   تعبَتْ في مرادها الأجسام[326]

[324] قواعد التصوف، قاعدة (211).

[325] مجمع الأحباب (317/1).

[326] من قول الشاعر أبي الطيب المتنبي.

فكان أحد شروط تهذيب النفس –عند هذا المربي العارف– أن يبيعوا كتبهم، فلعلّ سيدي يحيى كان يقصد تهذيب نفسه بذلك.

وأيضاً لم يكن يلتفت كثيراً لمظهره وملبسه، فكان يلبس اللباس الأبيض النظيف ويضع على رأسه العمامة التي يضعها التجار، ولا يضع العمامة البيضاء التي كانت تخص العلماء، وذلك تواضعاً منه وهروباً من الظهور والتكبر.

عليك بالنفس فاستكمل فضائلها　　　فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وأحواله في الزهد كثيرة مرّ معنا شيئاً منها في فصل التكسب سنة الأنبياء وكيف كان يتصدق بكل ما يأتيه من أرزاق، وسيتبين مزيداً من زهده –مما يندر مثيله– من خلال الفصول التالية.

الصدقة دواء لرفع البلاء

الصدقة إضافة إلى أنها دليل عملي على الزهد في الدنيا، هي برهان على صحة الإيمان وقوة اليقين بما عند الله، وإنّ طيب النفس بها علامة على وجود حلاوة الإيمان وطعمه[327].

ونظراً لما للصدقة من فضل وأجر، ولما لها من أثر في رفع البلاء عن العبد، فقد كان سيدي يحيى يعتني كثيراً بأمرها ويحثّ الناس عليها، وكثيراً ما كان يأخذ من الناس المقتدرين –بنية رفع البلاء عنهم– ويردها على الفقراء والمحتاجين.

وقد ورد في الأثر: "داووا مرضاكم بالصدقة فإنّ الصدقة تدفع عن الأعراض والأمراض"[328]. وفي الحديث عن علي –رضي الله عنه– أنّه عليه الصلاة والسلام قال: "باكروا بالصدقة فإنّ البلاء لا يتخطاها"[329].

ومن أحوال سيدي يحيى في ذلك أنّ الشيخ هشام البرهاني كان –كما حدّثني– يدارس القرآن الكريم مع الشيخ ديب نشواتي –وكان محباً وملازماً للشيخ يحيى– فحدّثه أنّه مرة وقع في ضائقة شديدة وأصابه همّ وغمّ، وتتالت الأيام وتتابعت الأسابيع ولم تتكشف عنه الغمّة ولم ينفرج الهمّ، وطال ذلك عليه، إلى أن جاءه الشيخ لبيته من غير ميعاد، وقال له: قم الآن وائت بخاروفين، فقام واشترى خاروفين وأتى بهما له، فأمره بذبحهما وتوزيعهما على الفقراء، وجاء على إثر ذلك الفرج من الله تعالى للشيخ ديب، وانزاح عنه الهمّ والغمّ، وقضيت حاجته.

ومن ذلك: أن رجلاً جاءه فقال له يا سيدي إنني في ضائقة مادية فادع الله لي أن يوسّع عليّ، فقال له الشيخ: أخرج كل ما في جيبك من النقود وأعطنيه! فتعجب هذا الرجل كيف يأخذ الشيخ منه كل ما معه وهو في ضائقة؟ ولم يجد أمامه إلا الامتثال، فأخرج كلّ ما في جيبه ووضعه في كفّ الشيخ الذي قام بتوزيعه على الفور، يقول هذا الرجل: فما هي إلا أيام وفتح الله عليّ في الرزق فتحاً كبيراً.

ومن ذلك أيضاً: أنّ شاباً من بيت دغمش قال للشيخ: سيدي أريد أن أفتح مكتباً (لعمل ما) فادع الله لي. فقال له الشيخ: هل تشاركني بالربع؟ فقال: نعم. فقال له الشيخ: كم ليرة معك؟ فقال: أربع. فقال الشيخ: أعطني ليرة (الربع). ففعل، فأخذها الشيخ وأعطاها لسائق تكسي، وقال له: خذ هذه الليرة واذهب اليوم إلى بيتك واقعد مع زوجتك، وكفاك اليوم شغل.

---

[327] جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، (2/23). وفي الصحيح: "والصدقة برهان".

[328] البيهقي في شعب الإيمان.

[329] المعجم الأوسط للطبراني.

ولا يزال هذا الشخص –والحمد لله– إلى كتابة هذه السطور في نعم كثيرة، وأحواله المادية جيدة منذ هذه المشاركة.

كان إذا طلب من أحد من الناس شيئاً – وكثيراً ما كان يفعل ذلك– فإنه لا يطلبه لنفسه وإنما لينفقه على أصحاب الحاجات وذوي الفاقات، فيكون صدقة تؤخذ من الأغنياء لتوضع في يد الفقراء، ويكون بسببه كفّ بلاء عن المتصدق، وأحياناً كان يأخذ من بعض الناس على كره منهم –وهذا نادر– ويوزعه لله تعالى ليردّ الله عنهم البلاء بفضل الصدقة، ولكنّ البعض كان يستغرب تصرف الشيخ هذا ويستهجنه، لأنه لم يكن يعرف الحكمة من تصرف الشيخ، وما أكرمه الله به من الكشف. ولكن رغم كل ذلك فإنّ الشيخ كان يأخذ ويردّ، وخاصة إذا أحسّ بأنّ المتصدق أخرج صدقته ونفسه غير طيبة بها، فكان يأخذ بنية أن يفرّج الله كربة المكروب، ويقضي دين المدين، وليدفع الله البلاء عن المتصدق، وكان عندما يردّ ما أخذ فإنّه يردّ أحسن مما أخذ، وخاصة إذا أخذ ممن حاله أقرب إلى الفقر، فعندها يردّ له أضعاف أضعاف ما أخذ منه، وهذا هو حال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كان يقترض ليقضي حوائج المسلمين، وليصرف على مصالحهم، ثم يقضي بأحسن، فعن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: كان لرجل على النبي صلى الله عليه وسلم سنّ من الإبل، فجاءه يتقاضاه، فقال صلى الله عليه وسلم: "أعطوه"، فطلبوا سنه، فلم يجدوا له إلا سناً فوقها، فقال: "أعطوه"، فقال: أوفيتني وفى الله بك، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنّ خياركم أحسنكم قضاء"[330].

وعن جابر بن عبد الله –رضي الله عنهما– قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد –قال مسعر: أراه قال: ضحى– فقال: "صل ركعتين"، وكان لي عليه دين، فقضاني وزادني[331].

فمن أحوال الشيخ في ذلك أن شيخي الشيخ عبد الكريم الرفاعي ذهب مرة مع نفر من تلاميذه لزيارته، وأثناء الزيارة أخذ بيده قطعة من الحلوى (قرص معمول) وقال: من يأخذ مني هذا القرص بكلّ ما معه في جيبه؟ وكان من بين الطلبة القاضي الفاضل محمد عيد حفظه الله، وكان وقتها شاباً، وهو سبط الشيخ يحيى بالرضاعة من بنته الكبرى (أم وجيه)، فقال: سيدي أنا آخذها، وكان قد استلم راتبه الشهري في نفس اليوم، فأعطاه الشيخ قطعة الحلوى وأخذ ما معه حسب الاتفاق، انقضت الزيارة، والسيد محمد عيد طيلة المجلس يقول في نفسه: الآن يعيد الشيخ لي المبلغ، وانفضّ المجلس ولم يُعِد له ما أخذه منه!! يقول القاضي محمد عيد: بعد مدة رآني

---

330 البخاري في الوكالة، باب وكالة الشاهد والغائب جائزة، ومسلم في المساقاة، باب من استلف شيئاً فقضى خيراً منه.

331 البخاري في الصلاة، باب الصلاة إذا قدم من سفر.

الشيخ يحيى وكان راكباً في الباص وأنا أنتظر للركوب، فأشار إليّ كي أصعد، فصعدت وإذا به يعطيني مبلغاً من المال يزيد على ما أخذ مني في ذلك المجلس[332].

ومن ذلك: أنه مرّة أخذ من الحاج أبي سعيد قويدر –حفظه الله– خمس ليرات (وهي تعادل في هذا الوقت ما يقرب من خمسمئة ليرة)، ثم رآه بعد يومين أو ثلاثة في مصيف بقين، فأعطاه خمسة وعشرين ليرة وقال له مداعباً: خذ ما لي عاوزك (أي لست بحاجتك)[333].

ولم يكن الشيخ –رحمه الله– يوزع المال الذي يأتيه عبثاً، أو يصرفه كيفما اتفق بقصد التخلص منه فقط، لا أبداً، فقد كان ملهماً في ذلك، كاشفاً، ومسدداً من الله تعالى، إذ غالباً ما كان يضعه عند أصحاب الحاجات الماسة من الذين لا يجدون طعاماً أو دواء أو نحو ذلك، فيقيل به عثرة عاثر، ويعين به على نوائب الدهر، وإذا صدف أن وزع على عموم الناس، فإنّ ذلك يكون لغاية حميدة أيضاً، كعدم إحراج بعض أهل المروءات ممن يريد وصلهم، أو للتستر على عزيز قوم ذلّ، وقع في ضائقة، أو نزلت به حاجة، أو وقع عليه بلاء أو قضاء من الله تعالى، فيلجأ الشيخ أحياناً في مثل هذا الحال إلى الحيلة فيوزع المال على جميع الحضور، ويخصّ العاثر أو المبتلى أو المحتاج بما يسدّ عوزه ويخفف مصابه.

من ذلك ما حدثني به الشيخ أبو حسين بدر الجوبراني –حفظه الله– عن أحد تجار سوق الحميدية، أنّ الشيخ بعد أحد دروسه في الجامع الأموي حثّ الناس على التصدق بعد أن وضع منديلاً كعادته، ولما انتهى من جمع المال أخذ ينادي: فلان تعال، فيعطيه ليرة، وفلان، فيعطيه ليرتين، وفلان، فيعطيه نصف ليرة، وهكذا، ثم نادى على أحد تجار سوق الحميدية الميسورين، فقال له: أما أنت فخذ هذا ويكفيك، قال التاجر: فنظرت فإذا به قد أعطاني فرنكين (عشرة قروش)، فعجبت له وأخذتها للبركة، ثم لما خرجت وركبت الترام عائداً لبيتي، أردت أن أدفع أجرة الترام فأدخلت يدي في جيبي لأدفع أجرة الترام –وكنت أحمل مبلغاً لا بأس به من النقود أخذته من متجري– وإذا بي قد نشلت!! ولم أجد بحوزتي ما أدفعه أجرة الترام إلا تلك (القروش) التي أعطاني إياها الشيخ يحيى، فقلت في نفسي: لله درك يا شيخ يحيى، أكشف الله لك أني سأقع في هذا المأزق فأعطيتني أجرة الترام لتنقذني من هذه الورطة وهذا الإحراج؟!!

ومن هذه الحوادث ما حدّثني به الشيخ هشام البرهاني عن والده أنّ الشيخ يحيى صادفه أحد المرات فقال له: امشي معي إلى الحمّام (حمّام السوق) لنستحمّ، فقال الشيخ سعيد: لقد أخذت حمّاماً البارحة، فأصرّ عليه الشيخ وأدخله معه الحمّام، فما أن ألقى على نفسه قليلاً من الماء

---

[332] حدثني بذلك شيخي الشيخ أسامة الرفاعي وكان بصحبة والده في هذه الزيارة.

[333] انظر: تفاصيل هذه القصة في فصل الكشف وفراسة المؤمن.

(طاسة واحدة) إلا أن قال له: هيا بنا انتهينا!! فقال له الشيخ سعيد: لقد بللنا أنفسنا فقط، دعنا نستكمل الاستحمام. فأصرّ عليه فلم يكمل استحمامه، ولما خرج أعطى مبلغاً كبيراً لصاحب الحمّام. يقول الشيخ هشام نقلاً عن والده: كان قصد الشيخ يحيى من كل ذلك أن يكرم صاحب الحمّام ويتصدّق عليه، ولكن دون أن يشعره بأنه يتصدّق عليه.

ومن قصصه في الصدقات أنّ واحداً ممن اشتدت به الحال، وعضه الفقر، وأسلمته الفاقة للجوع، واضطرته الحاجة للاستدانة، أحاط به دينه وعجز عن وفاءه، فأكثر الدائنون من مطالبته وملاحقته حتى أزعجوه وأهانوه، ثم أمهله بعضهم مدة قائلاً له: إن لم تسدد خلال هذه الفترة سنشتكي عليك ونضعك في السجن، فما كان منه إلا أن نصب مشنقة في بيته ليشنق نفسه إن لم يأته ما يسدد به دينه، وخرج يبحث عن سبيل وفرج، وعن رزق ومفترج، وقرر إذا عاد بخفّي حنين أن يشنق نفسه، فلما أعياه البحث وأضناه التعب، آواه طلب الراحة إلى مسجد، ولحسن طالعه وسبْق القدر بفوزه وسعده؛ كان سيدي يحيى يلقي درسه، فلما انتهى من الدرس قال للحاضرين: نريد أن نجمع مبلغاً من المال، وأمر أحدهم أن يطوف على الناس، ليتبرع كل منهم بما يريد، ثم قال له: خذ المال –وكان مبلغاً كبيراً– وأعطه لفلان، وأشار بيده لرجل في آخر المسجد، فإذا هو هو، فأخذه فرِحاً مندهشاً، ومن شدة فرحه بهذا المال وشدة تعجبه من كشف الشيخ حكى للناس حاله وما كان من شأنه.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

ومن قصصه أيضاً أنه أحسّ يوماً أنّ زوجته كانت في أحد الليالي تعاني من ألمها على فراق ولدها، وشدة الحنين والشوق له –وكان يقيم في مصر للدراسة– إذ مرت مدة من الزمن ولم يصلها منه شيء يطمئنها عنه كالعادة، فأقبل الشيخ عليها قائلاً: إن كنت تريدين أن تطمئني على –منصور– فأعطيني العشر ليرات التي معك في الخزانة، وأشار بعصاه لمكانها، وكان لا يرضى أن يبيت عنده شيء من مال أو طعام، فأراد أن يعلّق قلب زوجته بالتوكل على الله من ناحية، ويتخلص من ناحية أخرى من هذه الليرات فلا تبيت في بيته، فقد أخفتها زوجته عنه كي تدفع منها أجرة رسالة ترسلها إلى ابنها، وتعطي هدية لساعي البريد إذا جاءها برسالة من ولدها، ولكن لما كشف الشيخ حالها وطلب منها هذه الليرات، وهي تعرف ولايته وحاله مع ربه أعطته ما طلب، فقام على الفور بتوزيعها، ثم توجه إلى الله تعالى يدعوه ويناجيه، ويتوسل ويسأله أن يطمئن الأم على ولدها، وفي صباح اليوم التالي تحصل المفاجأة ويأتي ساعي البريد يحمل رسالة لأم منصور من ولدها، فبرد قلبها، وعادت لها نفسها وطمأنينتها، وهدأ شوقها وحنينها.

ومما يؤكّد أنّ الشيخ كان يطلب من الناس المال في أغلب الأحيان بقصد أن يرفع الله البلاء عنهم، أنّه اعتاد أن يمرّ على متجر لأحد أقربائه المقربين ويأخذ منه ما تيسر من المال مما يجود به، ثم في أحد الأيام اعتذر هذا القريب عن التصدق لأنّ الأمر كثُر عليه، فكأنه ضجر أو

سئم من ذلك، وإذا بحريق يشبّ في المتجر في اليوم التالي فيأتي على كلّ ما فيه، فيفطن أنّ طلب الشيخ منه كان بنية أن يرفع الله عنه البلاء بفضل الصدقة.

جوده وكرمه وإنفاقه

وأما جوده وكرمه فهو برهان عملي آخر على زهده الحقيقي في الدنيا، ودليل ساطع على صدقه في هذا الزهد، فهو ليس زهد البخلاء أو المعدمين غير الواجدين، فقد كان مضرب المثل في الجود والكرم، وعلى قدم النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام في السخاء والعطاء، وهذه هي أحوال أحباب الله "إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود "[334]. و"إنّ الله كريم يحب الكرم و معالي الأخلاق و يبغض سفسافها"[335].

ولا يصل المرء لمرتبة الجود حتى يسهل عليه البذل، فلا يجد فيه صعوبة، بل يصير له سجية، وهذا ما كان عليه سيدي يحيى وشهد به كل من صحبه وخالطه، فكان لا يشقّ له غبار في ذلك، فمع كل ما آتاه الله من مال، ومع كل ما ساق له من كنوز؛ توفي ولم يترك بيتاً ولا عقاراً، ولا ورّث أهله ولا أولاده درهما ولا ديناراً، فلم يدخر شيئاً مما رزقه الله –وقد آتاه الكثير الكثير– بل أنفقه كله في سبيل الله وابتغاء مرضاته، تأسياً واقتداء بهدي النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، فعنه صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة إلا من قال بالمال هكذا وهكذا، يمنة ويسرة"[336].

ومن كرم النبي صلى الله عليه وسلم أنه دخل على بلال وعنده صبرة (كومة) تمر، فقال: "ما هذا يا بلال؟" قال: يا رسول الله .. ادخرته لك ولضيفانك، قال: "أما تخشى أن يكون له بخار من النار؟ أنفق بلالاً ولا تخش من ذي العرش إقلالاً"[337].

وأما أخبار الصحابة رضي الله عنهم في ذلك فكثيرة جداً، فيروى أنّ حواريّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته، وأحد المبشرين بالجنة، الزبير بن العوّام –رضي الله عنه– كان من أكثر الصحابة مالاً وعتاداً، فقد كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج، فيتصدق به في مجلسه، ولا يقوم بدرهم منه[338]، ويروى أن الزبير لم تجب عليه الزكاة قط لأنه لم يكن يدخر شيئاً.

ويروى عن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– أنّه أخذ أربع مئة دينار فجعلها في صرّة، ثم قال لغلام له: اذهب بها إلى أبي عبيدة ابن الجراح، ثم تلَهّ ساعة في البيت حتى تنظر ما يصنع، فذهب الغلام، قال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك، فقال: وصله الله ورحمه، ثم قال: تعالي يا جارية، اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، حتى

---

[334] سنن الترمذي (2799) موقوفاً على سعيد بن المسيب، وروي مرفوعاً عن سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه.

[335] الحاكم في المستدرك(1/112).

[336] أبو نعيم في الحلية (153/1).

[337] الطبراني.

[338] مجمع الأحباب(323/1).

أنفذها، فرجع الغلام فأخبره، فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل -رضي الله عنه-، فقال: اذهب بها إلى معاذ، وتلهّ في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع، فذهب بها إليه، وقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك، فقال: وصله الله ورحمه، ثم قال: تعالي يا جارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، وإلى بيت فلان بكذا، فاطّلعت امرأة معاذ -رضي الله عنه وعنها- فقالت: نحن والله مساكين فأعطنا، قال: ولم يبق في الخرقة إلا ديناران، فدحا بهما إليها، فرجع الغلام إلى أمير المؤمنين فأخبره، فقال: إنهم إخوة، بعضهم من بعض[339].

وعن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أن مسكيناً سألها وهي صائمة وليس في بيتها إلا رغيف، فقالت لمولاة لها: أعطيه إياه! فقالت: ليس لك ما تفطرين عليه، فقالت: أعطيه إياه، قالت: ففعلت، قالت: فلما أمسينا أهدى لنا أهلُ بيتٍ أو إنسانٌ ما كان يهدي لنا شاةً وكفَنَها، فدعتني عائشة فقالت: كلي من هذا، هذا خير من قرصك[340].

جعل الشيخ يحيى قدوته هؤلاء فهان عليه المال، وهانت عليه الدنيا، وجادت نفسه بهما.

وقصصه في الجود والكرم كثيرة يصعب بل لا يمكن حصرها، ولكن أورِد متفرقات منها تدل على مختلف أحواله في ذلك، فمن كرمه أنه أراد مرّة أن يذهب إلى لبنان بما يخص عمله في الدلالة، فقال لصاحب السيارة: الأجرة بالدين؟ فوافق، ولما وصل إلى لبنان وانتهى من عمله، جاءه مال وفير من ذلك، وكان ما يقرب من خمسين ليرة ذهبية، فأخذ يوزعها كعادته حسب ما يلهمه الله تعالى، فتشوّف صاحب سيارة الأجرة أن يكون له من ذلك نصيب، فلما نفذ صبره ورأى أنّ المال أوشك أن ينفذ، ولم يبق منه إلا بضع ليرات ذهبية، أيقن أنه سيعود من رحلته خالي الوفاض، ولن يكون له من هذا المال شيء، لم يتمالك أن يضبط نفسه، فقال للشيخ: لو جعلت لي شيئاً، فقال له: اتفقنا أنّ الأجرة بالدين! ثم ما لبث أن صرف ما بقي معه، إلا أنه اشترى عدة سلات من تين، أعطى صاحب سيارة الأجرة واحدة منها، وقال له: من هنا أخذناهم (الليرات الذهبية) وهنا وزعناهم[341].

ومن كرمه أنه كان يحب إطعام الطعام لقوله تعالى: (ويطعمون الطعام على حبه)[الإنسان:8]. أي على حب الله، على أحد التفاسير. وعملاً بأمر المصطفى عليه الصلاة والسلام: "أيها الناس أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام"[342]. وبما ورد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أنّ رجلاً سأل النبي صلى الله

---

[339] المصدر السابق (414/1)، وهو في المعجم الكبير للطبراني.

[340] موطأ مالك.

[341] وهذا من هدي الني صلى الله عليه وسلم كما في صحيح البخاري: "صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم".

[342] السنن الكبرى للبيهقي.

عليه وسلم: أي الإسلام خير؟ قال: "تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف"[343].

فقد كان لا يمرّ عليه يوم إلا ويذبح فيه ما لا يقلّ عن خمسة خرفان ليطعم الطعام ويقيم الولائم لأحبابه وزوّاره، وكان في أي وقت دخل عليه زائر أو ضيف وجد في غرفته طاولة عليها ألوان من الحلوى والفاكهة، وكثيراً ما كان الضيوف لا ينصرفون إلا بعد طعام، وكان بعضهم يبيت عنده، وهذا كما روي عن أنس بن مالك –رضي الله عنه– أنه قال: "زكاة الدار أن يتخذ فيها بيت للضيافة"[344].

ومن قصصه في الإنفاق أنه ذات مرة ذهب في نزهة مع بعض محبيه إلى عين الفيجة، فلما حضر وقت طعام الغذاء، بدأ مرافقوه بتجهيز الطعام، فاشتروا اللحم وكلّ ما يحتاجونه لوجبة شواء دسمة، ثم قاموا بشواء اللحم وتجهيز الطعام على أحسن وجه، ولما أصبح كل شيء على أتمّه؛ إذا بالشيخ يلمح رجلاً فقيراً، فيناديه فيعطيه الطعام كلّه! فقال له بعض مرافقيه: يا سيدي لنا عدة ساعات ونحن نعتني بتجهيزه وتحضيره، وقد صار وقت الغذاء، فلو أعطيته ما شئت من مال، وهو يتصرف به كيفما شاء، ودع هذا الطعام لغداءنا، فلم يلتف الشيخ لذلك، وأمر السائق بالعودة إلى دمشق، وكان غذاؤهم مما تيسر.

وهذا شبيه بما روي عن عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما– أنّه نزل الجحفة[345] وهو شاكٍ (مريض) فقال: إنّي لأشتهي حوتاً، فصنع له، فلما وضع بين يديه جاء سائل، فقال: أعطوه الحوت، فقالت امرأته: نعطيه درهماً، فهو أنفع له من هذا، واقض أنت شهوتك منه، فقال: شهوتي ما أريد[346].

أنت للمال إذا أمسكته فإذا أنفقته فالمال لك

ومن حاله أيضاً في الكرم والسخاء أنّه كان إذا أراد أن يزور أحداً استأجر سيارة، ووقف على الفاكهاني، وملأ السيارة بأصناف الفاكهة، ثم وقف على بائع الحلويات واشترى ألواناً منها، وكان يدفع ثمنها ربما أضعاف قيمتها، وكان يوم سعد على هذا الفاكهاني أو الحلواني، وإذا لم يكن معه مال، كان يستأذن البائع ويقول له: الدفع ليس اليوم وإنما حتى يأتينا من الله، فنادراً ما رفض

---

[343] أخرجه البخاري في الإيمان، باب إطعام الطعام من الإسلام. ومسلم في الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل.

[344] الرسالة القشيرية (425).

[345] الجحفة كانت قرية جامعة ومنزلاً عامراً قريبة من البحر الأحمر، بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، أقرب إلى مكة، وهي ميقات أهل الشام ومصر والمغرب إذا لم يمروا على المدينة المنورة، واستعيض عنها اليوم بمدينة قريبة منها تسمى (رابغ).

[346] مجمع الأحباب (1/472).

أحد له طلباً، فإنه يوم مبارك وميمون على الذي يشتري منه الشيخ في ذلك اليوم، وهكذا كان حاله مع سائق سيارة الأجرة.

وهذا يذكرني بابن الفضيل بن عياض (ت:187هـ) أنه كان يشتري من باعة محلّته، فيقولون له: لو دخلت السوق فاسترخصت؟ فيقول: هؤلاء نزلوا بقربنا رجاء منفعتنا[347].

كان الشيخ أحياناً يدخل حمام السوق، فيقوم العامل بخدمته وتدليك قدميه، فيعطيه أجرة على ذلك تعادل أجر شهر من العمل، وكان أحياناً يدخل الحمام في جادة العفيف، فيقول لصاحب الحمام كم عدد الزبائن الموجودين في الحمّام؟ ثم يدفع له عن نفسه وعنهم جميعاً.

وسبق أن ذكرت في زهده، أنّ من عادته أنّه إذا دخل مسجداً للصلاة، جمع الناس بعد الفريضة، ووعظهم بشرح آية من كتاب الله عز وجل، ثم يضع منديلاً، ويحثّهم على التصدق، ثم يقوم بتوزيع ما تمّ جمعه على جميع من في المسجد.

يجود علينا الأكرمون بمالهم ونحن بمال الأكرمين نجود

وكانت تأتيه أحياناً أموال طائلة من عمله في الدلالة فيوزعها في ساعة واحدة، فكان يستوي عنده المال والتراب، ومما كان لافتاً في تصدقه أنه كان إذا جاءه شيء من الأموال أو الذبائح أو العطايا؛ فإنه يوزعه كله وغالباً لا يبقي منه لأهل بيته وذوي قرابته كأبنائه وبناته شيئاً أبداً، وكأنه يذهل عنهم بلذة الإنفاق في محبة الله، وهذا شبيه بحال كثير من أهل الله في ذلك، ومنه ما روي عن عائشة –رضي الله عنها– أنه جاءها يوماً من عند معاوية –رضي الله عنه–ثمانون ألفاً، فما أَمسى عندها درهم، قالت لها جاريتها: فهلا اشْتَرَيتِ لنا منه لحماً بدرهم؟ قالت: لو ذكَّرتيني لفعلتُ[348]. وأحياناً كان يدخل بيته محمّلاً بكل الخيرات مما يحتاجه لأهله وضيوفه من أصناف المأكولات والفاكهة والحلوى.

كان للسيد محمد المكي الكتاني مجلس تقام فيه حضرة كل يوم ثلاثاء، فأراد السفر لمصر، فقال الشيخ يحيى: أرى أن لا ينقطع هذا المجلس أثناء غياب السيد بل يبقى مستمراً، فكان كلّ ثلاثاء يأتي وقت المجلس ومعه حوالي عشرة أسطل من القشطة مع ما يكفيها من القطايف ليكرم الحاضرين، ثمّ فوق ذلك يوزع عليهم المال، فكان يخرج الفلوس من جيبه ويرميها يميناً وشمالاً، عشرات، وخمسات، وهكذا، وبدون عدّ (والخمسة ليرات في تلك الأيام تعادل الخمسمئة ليرة في أيامنا)، واستمر ذلك زهاء تسعة أشهر، وهي المدة التي غابها السيد محمد المكي[349].

ومن كرمه أنه كان يشتري الخراف، ثم يقوم بتوزيعها لحماً على الفقراء والمحتاجين، وربما أمر بطبخها ودعا الناس للطعام، وأقام جلسة ذكر لله وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ومن

---

[347] الرسالة القشيرية (419).

[348] جامع الأصول في أحاديث الرسول، ابن الأثير (671/4).

[349] حدثني بذلك الحاج أبو سعيد قويدر.

كثرة ذلك صار في ذمته لأحد القصابين مبلغ كبير، فقال للقصاب: إني أريد أن أهبك داري مقابل المبلغ الذي لك في ذمتي، فرضي القصاب، وكانت الدار ثمن اللحم والخراف الذي في ذمة الشيخ.

وقصصه في ذلك كثيرة جداً لدرجة أنّ بعض الناس لاموه على سخائه وجوده، وأنّه لو ترك شيئاً لأهله وعياله، ولكنّ حاله كان يخاطبهم بما خاطب الشاعر زوجته أو جاريته (طريفة) عندما لامته على كرمه حيث قال:

قالَتْ طُرَيفْةُ ما تبْقَى دَراهِمُنا وَما بِنا سَرَفٌ فيها وَلا خرقُ

إنَّا إذا اجْتَمَعَتْ يَوْماً دَراهِمُنا ظَلَّتْ إلى طُرُقِ المَعرُوفِ تَسْتَبِقُ

ما يأْلَفُ الدِّرْهَمُ الصَّيَّاحُ صُرَّتَنا لَكنْ يَمُرُّ عَليْها وهْو مُنْطلِقُ

حتَّى يَصِيرَ إلى نَذْلٍ يُخلِّدُهُ يَكادُ مِنْ صَرِّهِ إيَّاهُ يَنْمَزِقُ

توكله على الله

مع كل ما أوتيه الشيخ من جود وكرم، وزهد وترفع عن الدنيا، كان يجتهد في طلب الرزق الحلال وذلك ببذل الجهد والسعي فيما ييسره الله[350]، لأن السعي والعمل لا ينافي الزهد والتوكل بحال من الأحوال، فالتوكل عمل القلب، وأما التكسب فهو عمل الجوارح، فالجوارح تعمل والقلب يتوكل، وقد عرّفوا التوكل بأنه ثقة القلب بالله حتى لا يعتمد على شيء سواه، أو هو التعلق بالله والتعويل عليه في كل شيء[351].

وقال أبو القاسم القشيري: التوكل محله القلب، وأما الحركة الظاهرة فلا تنافيه إذا تحقق العبد أن الكل من قبل الله، فإن تيسّر شيء فبتيسيره، وإن تعسر فبتقديره.

فليس التوكل إلا الثقة والطمأنينة، لا ترك الأسباب مع الشكّ والاضطراب، فليس هذا من التوكل المطلوب في شيء، فلا يقول بترك الأسباب إلا صاحب حال، أو جاهل بالطريق وبالسنة.

قال جمهور الصوفية: يحصل التوكل بأن يثق بوعد الله، ويوقن بأن قضاءه واقع، ولا يترك اتباع السنة في ابتغاء الرزق مما لا بد له منه من مطعم ومشرب وتحرّز من عدو، بإعداد السلاح وإغلاق الباب ونحو ذلك، ومع ذلك فلا يطمئن إلى الأسباب بقلبه، بل يعتقد أنها لا تجلب بذاتها نفعاً ولا تدفع ضراً، بل السبب والمسبَّب فعل الله تعالى، والكل بمشيئته، فإذا وقع من المرءِ ركون إلى السبب قدح في توكله، وهم مع ذلك فيه على قسمين: واصل وسالك، فالأول صفة الواصل، وهو الذي لا يلتفت إلى الأسباب ولو تعاطاها، وأما السالك فيقع له الالتفات إلى السبب أحياناً، إلا أنه قد يدفع ذلك عن نفسه بالطرق العلمية والأذواق الحالية، إلى أن يرتقي إلى مقام الواصل[352].

فمن نظر إلى العارف وجده جبلاً لا يتحرّك، ثابتاً لا يتدكدك، ليس له نظر إلى الأسباب ولا يركن البتة لها، ومن نظر إلى ظاهره رآه كالطائر من غصن إلى غصن، ومن شجرة إلى شجرة[353]. فالعارفون موقنون أنّ الرزق الحلال يُعطَى حسب الافتقار، ولا يؤخذ بقوة المخلوق وقدرته، ولا بكثرة كدّه ودوام سعيه، ولا بشدة ذكائه ووفور عقله، وإلا لمات الأطفال من الجوع، والمشاهد أنه كلما اعتمد الإنسان على إرادته ابتلُي بضيق المعيشة وتكاليفها أكثر، فالاعتماد والتوكل يكون حصراً على الله الواحد الأحد، والسعي سبب تعبدي محض لا دخل له بسعة الرزق ورغد العيش.

---

[350] انظر فصل التكسب سنة من سنن الأنبياء.

[351] معراج التشوف وحقائق التصوف.

[352] فتح الباري لابن حجر (389/18)

[353] انظر المواقف السبوحية، موقف (165). وانظر فصل التكسب سنة الأنبياء (ص:؟؟) من هذا الكتاب.

ولو كانت الأرزاق تجري على الحِجا هلكْنَ إذن من جهلِهنّ البهائم

ومن مظاهر صدق توكله أنه كان لا يبيت عنده في بيته شيء من مال أو طعام أبداً، ولو كان ملعقة من سكر أو حفنة من شاي، وحاله في ذلك عجيب، إذ كان إذا بات عنده شيء من غير أن ينتبه له، كأن يغفل أهله عنه، أو يتعمدوا إخفاءه خلسة في ناحية من البيت، يعرف ذلك من حكة يجدها في جسده، أو ضجر يملأ نفسه ويكدّر خاطره، فلا يهدأ حتى يعرف ماذا أخفى أهله عنه في البيت من مال أو طعام، وغالباً ما يُكشَف له بإلهام من الله، فيقوم يصرفه للمحتاجين، ولو كان ذلك في أحلك الليالي ظلمة، وأشدها برداً وصقيعاً، وقد اشتهر عنه هذا الحال في حياته، فتشكك بعض الناس أن يكون أحد على مثل هذا الحال، ورأوا أنّ في ما يتناقله الناس من ذلك الحال عن الشيخ فيه مبالغة كبيرة، إذ اعتاد العامة والخاصة أن يسمعوا من مديح المريدين لشيوخهم وإطرائهم لهم مبالغات لا حصر لها، يبررها لهم الحب والتبجيل والتعظيم.

المبالغة في تعظيم الشيوخ:

ومع أنّ إجلال العلماء العاملين المخلصين، والشيوخ العباد والزهاد العارفين وحبهم مما يُستحسن ويُحضّ عليه في ديننا وشرعنا، وهو مما يتقرّب به المؤمن إلى ربه، فالمرء مع من أحب كما أخبر بذلك الصادق المصدوق[354]، إلا أنّ المبالغات والتجاوزات في التبجيل التي قد تصل أحياناً إلى حدّ التقديس والتي يقع فيها بعض الطلاب مع أساتذتهم وشيوخهم، وبعض المريدين مع المربين والموجهين؛ ليست مطلوبة ولا محمودة، ولا هي من الدين في شيء لأنّ الله أبى العصمة إلا لأنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، فلا يصحّ ما نراه من هذه المبالغات والتصرفات عندما تتجاوز المألوف والمنقول عن الصحابة والسلف الصالح، وخاصة أنّ المربي المرشد الكامل يكاد يكون معدوماً في هذا الزمان، وإن لم يكن معدوماً فهو أندر من نادر، والنادر لا حكم له.

من هنا فقد كذّب بعض الناس ما سمعوه عن حال سيدي يحيى، وحسبوه من هذا القبيل الذي أسلفت من التبجيل والمبالغة، فحاول العديد منهم أن يقطعوا دابر الشك في هذا الشيخ المتوكل باليقين، وذلك باختباره وامتحانه، فأرسل له مرة مسؤول شرطة المزة – وكان الشيخ حينها يسكن في منطقة الشيخ سعد بحي المزة – أحد عساكره بمبلغ من المال في منتصف ليلة شديدة الظلمة من ليالي الشتاء الباردة، وأمره أن ينظر خبره وما يفعل بها، فما هي إلا دقائق إلا ويخرج الشيخ ليتخلص من هذا الهمّ الثقيل الذي نزل به، والعبء الذي لا صبر له عليه، ولا يحتمل بقاءه في

[354] فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المرء مع من أحب". البخاري في الأدب، باب علامة حب الله عز وجل. ومسلم في البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب.

حوزته سويعات حتى يطلع الفجر، فخرج من بيته وتوجه باتجاه أحد الحراس في محرسه الخشبي ليضع بين يديه هذا المال.
بعد أن تصدّق الشيخ بالمال على الحارس وعاد أدراجه لمنزله، جاء العسكري الذي دفع المال للشيخ إلى هذا الحارس وسأله: ماذا أعطاك الشيخ؟ فقال – خائفاً –: أعطاني هذا المال، فأخذه منه وعدّه، فإذا هو هو لم يبق الشيخ منه قرشاً واحداً له ولعياله!! فسأل الحارس عن حاله، فقال: والله إنّي بأمسّ الحاجة له لبلاء نزل بأهل بيتي.
وقد حصلت مثل هذه القصة من الشيخ سليم المسوتي (ت:1324هـ) رحمه الله، وهو من طبقة شيوخ الشيخ يحيى، وكان على درجة عالية جداً من الزهد والتوكل.
وهذا يذكّرني بقصة عن أبي ذر رضي الله عنه، فقد ذُكر في بعض الروايات التاريخية أنّ معاوية رضي الله عنه أراد أن يمتحن أبا ذر رضي الله عنه في اشتراكيته التي يدعو إليها، فأرسل إليه في جوف الليل بألف دينار، فلمّا أصبح استرجعها منه بحجة قالها، فعاد إليه رسوله يخبره أنه لم يجد عند أبي ذر شيئاً منها!!!
وقد روى لي الحاج أبو عصام التخين – عافاه الله – أنّ والده أبا راشد، كان من جيل الشيخ يحيى ويسكن ملاصقاً لعائلته، ويعرف عن الشيخ يحيى وعائلة الصباغ الشيء الكثير، وكثيراً ما كان يسمع أصواتهم وهو في داره، كحال كثير من المتجاورين يومها، خرج في الثلث الأخير من ليلة مقمرة من بيته قاصداً مسجد الشيخ الأكبر لصلاة الفجر، قد حسب من شدة ضوء القمر أنّ الفجر قد طلع، فصادف في طريقه جاره الشيخ يحيى، فسأله الشيخ ما الذي أخرجك في هذا الوقت؟ قال: الصلاة، قال له الشيخ: الوقت مازال مبكراً!! أجاب أبو راشد: خرجت من بيتي ولن أعود حتى أصلي، ولكن أنت ما الذي أخرجك إذن؟ قال له الشيخ: نسيت في جيبي ليرة ذهبية ولم أنتبه لذلك، فضجرت، فظننت أنّ أهلي قد غافلوني فأخفوا عني مالاً أو طعاماً في البيت، فلما نفوا ذلك، فتشتُ فوجدت في جيبي هذه الليرة الذهبية، فخرجت لأتصدق بها، خذها وأعطها لأول شخص تصادفه في طريقك!! وعاد إلى بيته، يقول أبو راشد: فصادفت رجلاً قادماً من جهة جادة العفيف، فأعطيته الليرة الذهبية. وبعد ثلاثة شهور قابلت هذا الرجل في الطريق، فأراد أن يردّ لي ما أخذ، وجعل يشكرني على صنيعي معه، فقلت له: تلك الليرة لم تكن مني وإنما هي من الشيخ يحيى، ولكن أخبرني ما هي قصتك في ذلك اليوم؟ وما الذي أخرجك من بيتك قريباً من السحَر؟ فقال: كانت زوجتي في حال مخاض، فقصدت مكتب تكسي المهاجرين كي أستأجر سيارة توصل زوجتي إلى المستشفى، فأبوا أن يرسلوا سيارة إلا بعد أن أدفع لهم الأجرة نقداً، ولم يكن معي الأجرة، فانطلقت هائماً على وجهي، حتى رأيتك فأعطيتني تلك الليرة.
والقصص في ذلك كثيرة متشابهة، لا فائدة في حصرها وذكرها، إذ المقصود يحصل بذكر المثال، ولا حاجة للأريب من الاستكثار.

وهذا الحال – مِنْ صِدقِ التوكل والزهد – لا يقدر عليه إلا أقلّ القليل من خاصة الخاصة، ومن هنا فإن واحدة أو أكثر من نساء الشيخ لم يستطعن الصبر على ذلك، مما كان سبباً في الطلاق كما بينت سابقاً، حيث تكرر منهنّ إخفاء قليل من الطعام أو الدريهمات في البيت عن الشيخ، خوفاً من أن يقوم بتوزيعه والتصدق به، ويبقين بلا طعام في اليوم التالي.

حال النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته في الادّخار:

وهذا الحال من عدم الادخار اعتماداً على ما عند الله، وخشية القدح والخدش في صدق التوكل عليه، هو حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وحال كثير من الصحابة رضوان الله عليهم.

فقد أخرج أبو يعلى عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: أهديت للنبي صلى الله عليه وسلم ثلاث طوائر؛ فأطعم خادمته طائراً، فلما كان من الغد أتته بها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألم أنهك أن ترفعي شيئاً لغد (أي لا تتركي شيئاً لليوم التالي)! فإن الله تعالى يأتي برزق كل غد".

وعن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم -رضي الله عنها- قالت: دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساهِم (متغير) الوجه، فخشيت ذلك من وجع، فقلت: يا رسول الله مالك ساهم الوجه؟ فقال: "من أجل الدنانير السبعة التي أُتينا بها أمس؛ أمسينا وهي في خُصْم (طرف) الفراش"[355] وفي رواية "أتتنا ولم ننفقها".

وجاءه مرة مال، أربع ركائب عليهن أحمالهنّ، فأمر بلالاً بهنّ ليقضي ديناً كان عليه، فلما رجع بلال، قال له النبي صلى الله عليه وسلم: "فضل شيء؟" قال: نعم، ديناران؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: "انظر أن تريحني منهما، فلستُ بداخل على أحد من أهلي حتى تريحني منهما"[356].

وقد كانت أسماء بنت الصديق -رضي الله عنها- لا تمسك شيئاً لغد[357].

وهذا أبو بكر -رضي الله عنه- كان يأتي بماله كله فيضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم!! فيقول له عليه الصلاة والسلام: ما أبقيت لأهلك؟ فيقول: أبقيت لهم الله ورسوله[358].

وقد فعل أبو بكر هذا وخرج عن ماله لله ورسوله أكثر من مرة.

وهو أيضاً مذهب سيدنا أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، ومذهب من يقول بحرمة الادخار، ولكن الصحيح أن الادخار جائز، وقد ادخر النبي صلى الله عليه وسلم قوت عياله لسنة، فعن عمر رضي الله عنه "أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يبيع نخل بني النضير، ويحبس لأهله قوت سنتهم"[359]، أما في حق نفسه فكان لا يدخر من غدائه لعشائه، فعن أَنس قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يدخر شيئاً لغد"[360].

---

[355] أحمد في مسنده (26557).

[356] البيهقي في شعب الإيمان.

[357] البخاري في الأدب المفرد.

[358] أخرجه أبو داود (1678).

[359] أخرجه البخاري في النفقات، باب حبس نفقة الرجل قوت سنة على أهله، وكيف نفقات العيال. ومسلم في الجهاد والسير، باب حكم الفيء.

[360] سنن الترمذي (2362).

وبالجملة فترك الادخار محمود لمن غلب يقينه وقوي قلبه، وأما الضعيف الذي يضطرب قلبه . . فالأفضل له أن يدع طريق المتوكلين، ولا يحمّل نفسه ما لا يطيقه[361].

وقد وجد في كراسة الشيخ بخط يده:

لا تعجلَن فليس الرزق يأتي بالعجل   الرزق في اللوح مكتوب مع الأجل

فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا   لكنما خلق الإنسان من عجَل

ومما وجد بخط يده أيضاً: في تفسير قوله تعالى: (إنا فتحنا لك فتحاً مبينا) [الفتح:1].

"فالله بنفسه أخبر أنه الفاتح الفتح المبين، فيلزم كلَّ عبد الاعتقاد بأن الفتّاح هو الله عز وجلّ، والشكوى لغيره مقامٌ ناقص، والشكر مقامٌ لازم، فمن شكى لغير الله لا يأتيه مكسب من أحد سواه، ومن شكر يزده الله من فضله ويجيبه".

[361] الأربعين في أصول الدين (283)، الإمام الغزالي.

التداوي لا ينافي التوكل

التداوي هو نوع من تعاطي الأسباب، فكان من مقتضى تعاطي الشيخ يحيى لأسباب الرزق بالعمل والسعي للكسب؛ أن يتعاطى الدواء كسبب للشفاء من المرض، ولكنه -كما سيأتي- لم يكن مع التداوي كما كان مع التكسب، ولعلّ ذلك منه حرصاً على أن يكون من جملة من عناهم النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه ابن عباس -رضي الله عنهما-: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب، هم الذين لا يسترْقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون"[362].

وفضل الله واسع، فقد ورد عن أبي أمامة -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله يقول: "وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً بغير حساب ولا عذاب، مع كل ألف سبعين ألفاً وثلاث حثيات من حثيات ربي عز وجل"[363].

وقد اختلف العلماء: هل الأفضل لمن أصابه المرض التداوي أم تركه لمن حقق التوكل على الله؟ وفيه قولان مشهوران، وظاهر كلام أحمد أنّ التوكل لمن قوي عليه أفضل[364]، للحديث السابق.

ومن حِكَم العارفين قولهم: "بلاء يدنيك خير من عطاء يقصيك".

مذهب الشيخ ترك التداوي:

لقد كان مذهب سيدي يحيى أنّ من صِدْق التوكل على الله وتمامه ترك التداوي، وقد بيّن الإمام الغزالي في إحيائه أنّ ترْك التداوي قد يُحمد في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل، وأن ذلك لا يناقض فِعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنّ الذين تداووا من السَّلَف لا ينحصرون، ولكن قد ترك التداوي أيضاً جماعة من الأكابر.

فقد روي عن أبي بكر -رضي الله عنه- أنه قيل له: لو دعونا لك طبيباً؟ فقال: الطبيب قد نظر إليّ وقال: إني فعَّال لما أريد.

وقيل لأبي الدرداء -رضي الله عنه- في مرضه: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قيل: فما تشتهي؟ قال: مغفرة ربي. قالوا: ألا ندعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب أمرضني!

وقيل لأبي ذر رضي الله عنه، وقد رمدت عيناه: لو داويتهما؟ قال: إني عنهما مشغول. فقيل: لو سألت الله تعالى أن يعافيك؟ فقال: أسأله فيما هو أهم عليّ منهما!

---

[362] أخرجه البخاري في الرقاق، باب ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

[363] أخرجه أحمد (5/ 268)، والترمذي (2437). وحسنه العلماء.

[364] جامع العلوم والحكم (501/2)، ابن رجب الحنبلي.

وكان أحمد بن حنبل(ت:241هـ) -رحمه الله- يقول: "أحب لمن اعتقد التوكل، وسلك هذا الطريق، ترك التداوي مِن شرْب الدواء وغيره، وإن كان به علل فلا يخبر المتطبب بها أيضاً إذا سأله".

ولكن مع كل هذا فالأصل في الشرع هو التداوي، اقتداء بالثابت المُحكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، وخصوصاً إذا اشتد الوجع، ووُجِد الدواء الناجع وفق سُنَّة الله تعالى، فإذا كانت هناك صوارف خاصة لبعض الصالحين تصرفهم عن التداوي لأسباب[365]، فيمكن أن تُقبل في الجملة، وهي أسباب جزئية في أحوال خاصة تُقدَّر بقدرها.

وقد كان سيدي يحيى من هؤلاء الصالحين الذين لهم صوارف خاصة تصرفهم عن التداوي.

فقد أمضى حياته ولم يذهب إلى طبيب من أجل التداوي، ولم يشرب دواء قط، وفي أحد المرات أصابه المرض، فأراد محبوه أن يداووه فأبى، فعمدوا إلى إبريق صغير فملؤوه بالماء ووضعوا فيه الدواء، فلما طلب الشيخ ماء للشرب أعطوه الإبريق ليشرب منه، فأخذه ثم بدأ يدور به على الجالسين يطلب من كل واحد أن يشرب شربة منه، فامتثلوا لأمره حتى فرغ عن آخره ولم يشرب منه ولا قطرة واحدة، فكأنه كشف له ما فعلوا من التحايل عليه ليشرب الدواء، فتحايل عليهم بهذه الطريقة، وفوّت عليهم مقصودهم.

وقد كان مصاباً بفتق منذ صغره، وكم طلب منه أهله ومحبوه أن يجري عملية جراحية لذلك فيأبى ويقول لهم: هل اشتكيت لكم؟ وقد كبر الفتق إلى درجة مزعجة جداً، وصار يصعب عليه المشي والتنقل، وتطور الأمر حتى صار أحياناً كثيرة ينزف دماً، وإذا كلّمه أحد في ذلك ليتداوى كان ينهره قائلاً: أنا لست امرأة حتى أحيض!!.

لقد كانت تنتابه آلام وأوجاع لا يستطيع الإنسان العادي تحمّلها، ومع ذلك ترك التداوي والعلاج مشياً على مذهبه في ذلك، والذي خلاصته: التوكل على الله والرضا بقضائه والتسليم لمشيئته، فالتداوي عنده يخدش بتمام التوكل، وينمّ عن عدم الرضا بقضاء الله وما اختاره لعبده.

لقد كان ينزل به المرض فيتألم أشد الألم، لا يحسّ به إلا زوجته، لا يشتكي، لا يجزع، لا يتضجر ولا يتبرم، بل لا يحب أن يعرف أحد بمرضه، فهو راض عن الله بما أصابه، وصابر محتسب، ومستسلم لربه ومذعن لقضائه، فكتمان المصائب والأمراض من كنوز البر، كما في الحديث النبوي[366].

---

[365] انظر هذه الأسباب في كتاب (إحياء علوم الدين)، في باب التوكل.

[366] البيهقي في شعب الإيمان، عن ابن عمر رضي الله عنه، والطبراني عن أنس رضي الله عنه.

أحسب أن سيدي يحيى كان من هؤلاء الذين أرادوا الحصول على تلك الكنوز فكسروا الأقفال ليظفروا بما وراءها، فكان لهم ما أرادوا، وكانت له إعانة من الله تعالى على تحمّل هذا الحال إلى أن لقي وجه ربه.

وقد يستغرب الواحد منا مثل هذا الحال، وذلك بحكم بشريتنا وضعف أنفسنا، أما خواص عباد الله الذين فازوا بمقام الرضا بالله وبقضائه فهم غائبون عن أنفسهم بمحبتهم لله تعالى، فتارة يلاحظون ثواب الرضا بالقضاء، فينسيهم ألم المقضيّ به، وتارة يلاحظون عظمة المبتلي وجلاله وكماله، فيستغرقون في مشاهدة ذلك، حتى لا يشعرون بالألم، وهذا يصل إليه خواصّ أهل المعرفة والمحبة، حتى ربما تلذذوا بما أصابهم لملاحظتهم صدوره عن حبيبهم، كما قال أحدهم: أوجدهم في عذابه عذوبة. وسئل أحد التابعين عن حاله في مرضه فقال: أحبه إليه أحبه إليّ. وسئل السريّ السقطي(ت:253هـ): هل يجد المحب ألم البلاء؟ فقال: لا[367].

وهذا عروة بن الزبير العالم الأجلّ، الكريم الأب (الزبير بن العوام) والأم (أسماء بنت الصديق أخت السيدة عائشة) والنفس واليد، وكان أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، يقرأ ربع القرآن كل ليلة يقوم به الليل، وما تركه الا ليلة قرر الأطباء قطع رجله بعد أن يئسوا من علاجها. عرض عليه الأطباء الخمر كي يسكروه فلا يحسّ بألم القطع، فأبى وقال: لا أستعين على قدر الله بمعصية الله. فأرادوه أن يشرب المُرقِد (البنج) فقال: لا، فإني لا أحب أن أسلَب عضواً من أعضائي وأنا لا أجد ألم ذلك لأحتسبه عند الله.

فقال لهم: إني سأدخل في ذكر الله، فإذا رأيتموني استغرقت فيه فشأنكم بها.

فلما رأوه استغرق بدأت العملية. قطعوا اللحم بالسكين المحمى بالنار للتعقيم، حتى إذا بلغوا العظم نشروه بالمنشار، وهو يهلل ويكبر، وقد جلله العرق، ثم عمدوا إلى الزيت المحمى بالنار كووه به – للتعقيم– فأغمي عليه[368].

قال بعض المحبين:

عذابه فيك عذب وبعده فيك قرب
وأنت عندي كروحي بل أنت منها أحَب
حسبي من الحب أني لما تحب أحِب

أما شيخنا فكان يردد:

لما ضنا جسمي الغرام من جهلهم جابوا الطبيب
يا ناس أنا راحتي السقام الموت ولا بعد الحبيب

---

367 جامع العلوم والحكم (1/483).

368 انظر تفصيل ذلك في كتاب رجال من التاريخ للشيخ علي الطنطاوي، رحمه الله.

فثمرة التوكل الرضا بالقضاء، فمن وكل أموره إلى الله ورضي بما يقضيه له ويختاره فقد حقق التوكل عليه.

الرقية الشرعية

وأما حال سيدي يحيى مع الرقية الشرعية، فلم يختلف كثيراً عن حاله مع التداوي ومذهبه فيه، فقد كان لا يرقي أحداً إلا نادراً، وإذا رقى فكأنه في ذلك يتصرف بناء على إلهام معين أو إذن أو كشف، ويدل على ذلك حوادث عديدة، فقد طلب منه عدة مرات بعض الناس رقية لهم أو لأحد من ذويهم فكان يتحايل على ذلك، ولا يرقي، فمن ذلك ما حدثني به الحاج أبو عصام التخين قال: أخذت ابني عصام –وكان طفلاً– معي ذات مرة لزيارة جدته لأمه، فصادفت الشيخ يحيى، فسلمت عليه، وقلت له: يا سيدي أرجوك أن تكبس لي عصام (يعني ارقه)، فنظر إليّ وقال: هل أنت مجدوب!؟ هذا ليس بحاجة لتكبيس، هذا بحاجة لقرشين يشتري بهما شيئاً له، وأخرج من جيبه أربعة قروش وأعطاهم لابني عصام.

فمشيت قليلاً فصادفت أحد أقرباء الشيخ، وهو السيد أبو هاشم عيد (والد القاضي السيد أحمد عيد)، فقال لي: بماذا كنت تتحدث مع عمك الشيخ يحيى؟ فذكرت له ما كان بيننا، فقال لي: هل تعلم أنّ الشيخ يحيى لم يكن بحوزته ولا قرش واحد!! وقد طلب مني منذ قليل فأعطيته أربعة قروش، فنسي حاله وآثر ولدك على نفسه!!

وكثيراً ما كان الشيخ إذا طلب أحد منه رقية يحيله على الشيخ السيد محمد الهاشمي[369].

ومن الحالات النادرة والخاصة التي رقى بها بعض المرضى ما حدثني به الشيخ هشام البرهاني، وخلاصته: أن شقيقته التي تكبره سناً أصابها مرض أقعدها عن الحركة وسبب لها الآلام، وأخيراً قرّر الأطباء الذين عالجوها وتابعوا مرضها – وكانوا ثلاثة من كبار الأطباء– أنّ حالتها ميؤوس منها، وأن الموت سينزل بها حتماً خلال أيام، واستعدت عائلتها لموتها، وبدأت تهيئ ما يلزم لهذا الحدث، وفجأة يأتي الشيخ يحيى لمنزلهم، يصرخ وينادي –وأهل البيت يسمعون صياحه من أول ما دخل الحارة– ويقول: افتحوا الباب! فلما فتحوا له الباب دخل على عجل ومن غير استئذان!! وتوجه إلى الغرفة التي فيها المريضة، يقول الشيخ هشام: ولا أعرف كيف عرف مكانها، وقد أتى ومعه كمية من الخبز المشروح، فغطاها به، وبدأ يقرأ عليها ويدعو وهو يشير إليها بعكازته ويمررها على جسدها، ثم رفع الخبز عنها، ووضع عليها وجبة أخرى من الخبز، وفعل مثل ما فعل بالمرة الأولى، ثم كرر ذلك للمرة الثالثة، ثم قال للشيخ هشام: –وكان وقتها في مقتبل شبابه– خذ هذا الخبز وأطعمه للكلاب، ولا تطعمه لبشر!! فشفيت من ليلتها، وقامت تمشي!! ولما رفعنا الفراش التي تنام عليه، وجدنا السجادة التي تحتها قد تلفت من شدة الحرارة، وصار

---

[369] حدثني بذلك سبط الشيخ السيد محمد الهاشمي، وقد التقيته في منزل السيد محمد الفاتح الكتاني.

جزء كبير منها كالرماد من أثر ما حدث، ولا تزال أختي والحمد لله على قيد الحياة، تتمتع بالصحة والعافية وهي في أواخر عقدها الثامن (1432هـ).

لم يعرف الشيخ بكتابة الحجب والرقى، ولم يُنقَل عنه ذلك ولم يشتهر به، وما نسبه بعضهم إليه من كتابته لرقية أو حجاب يُسمّى الحصن الحصين فليس بصحيح، ولا أدري كيف نسبه إليه.

وقد اشتهر بكتابة الحجب والرقى الشرعية كثير من العلماء العارفين، وكانوا مجرّبين في ذلك، ويجري الله على أيديهم الشفاء، ويقضي الحاجات، وذلك ببركتهم وبركة دعائهم وبركة ما يكتبون من حجب، وكان بعضهم مأذوناً في ذلك من شيوخه كابراً عن كابر، ولكن سيدي يحيى –رحمه الله– لم يكن من جملة هؤلاء المشهورين بذلك، ولا من المأذونين فيه، والله يختصّ من شاء بما شاء.

صبره ومجاهدته

كما أنّ البلاء علامة محبة الله للعبد، لمن فهم عن الله، فكذلك الصبر عنوان محبة العبد لربه وخالقه والرضا بمقاديره، وأما السخط فليس من خلق عباد الله الصالحين فضلاً عن الأولياء والمقرّبين، والسخط لا يعود على صاحبه إلا بمزيد الهمّ والحسرة، ففي الحديث: "إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط"[370].

ولا غنى للعبد عن الصبر في المنشط والمكره، في العسر وفي اليسر، في الغنى وفي الفقر، والعبد حال هجوم النعمة أشد احتياجاً للصبر منه وهي في حال إدبار، لأنّ من شأن الإنسان النسيان عند توالي النعم وتتابعها، وغالباً ما يغفل ويغترّ بدوامها (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) [العلق:6-7]. وربما استرسل فيها مع هواه، ولذا ورد عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: "بلينا بفتنة الضرّاء فصبرنا، وبلينا بفتنة السرّاء فلم نصبر". ومن هنا قال بعض الصالحين: "يصبر على البلاء كل مؤمن، ولا يصبر على العافية إلا صدّيق".

وأما في حال البلاء فالصبر عون لصاحبه على تخطي المحن وتجاوز الأزمات، وهو أنجع الأدوية وأمضى الأسلحة لتخفيف آلام المصائب وأحزانها، إذا قرن بالاحتساب لله تعالى وطلب الأجر منه عزّ وجلّ، وخاصة إذا علم العبد أنّ الرزايا مطايا العطايا، وأنّ الإحن والمحن كنوز اللطائف والمنن، وأنّ مع العسر يسراً، ولن يغلب عسر يسرين[371].

فالصبر حقيقة هو حبس العبد قلبه على حكم الرب جلّ وعلا، فالعامة من أهل الله يكون صبرهم بحبس قلوبهم على مشاقّ الطاعات ورفض المخالفات، وأما صبر الخاصة منهم فصبرهم يكون بحبس نفوسهم على الرياضات والمجاهدات[372].

وقد تبيّن لنا من خلال ما سبق ومرّ من كلام عن الشيخ يحيى وأحواله المختلفة، سواء مع الخلق أو الخالق، مقدار ما أكرمه الله تعالى به من قوة الصبر، ومضاء العزيمة، وما منحه من القدرة على الاحتمال ومجاهدة النفس (والذي جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) [العنكبوت:69]، حيث جمع الشيخ أنواع الصبر كلّها واتصف بها:

---

[370] الترمذي (2396) وحسّنه.

[371] كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب، يذكر له جموعاً من الروم وما يتخوف منهم. فكتب إليه عمر بن الخطاب: "أما بعد، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة، يجعل الله بعده فرجاً. وإنه لن يغلب عسر يسرين. وأن الله تعالى يقول في كتابه {يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون} [آل عمران: 200]" موطأ مالك في الجهاد، باب الترغيب في الجهاد.

[372] معراج التشوف (11).

فقد وجدناه في زهده صابراً عن فضول الدنيا وزخارفها، يرضى منها بقوت يومه ولا يدّخر شيئاً لأهله ولا لغده، ولعمري إنّ المداومة على ذلك طيلة العمر ليحتاج إلى جبال من الصبر.

ووجدناه في عبادته وتهجده وقيامه صابراً على الطاعة والمداومة عليها، لا يكلّ ولا يتعب، ولا يفتر ولا يتأخّر.

ووجدناه عند هجوم الدنيا ونعمها صابراً على الإعراض عنها، ومجدّاً في صرفها في مرضات الله تعالى، فقد كانت تأتيه أحياناً مئتا ليرة ذهبية دفعة واحدة من خلال صفقة عقارية يتوسط بها، فلا يأتي عليه الليل إلا وقد صرفها كلها في وجوه البرّ والخير.

وأما مرضه وما ابتلي به من فتق لازمه طيلة حياته، فلقيناه أيضاً صابراً محتسباً، راضياً بقدر الله وبقضائه، وشاكراً حامداً، لا يتبرّم ولا يتضجر، ولا يشتكي ولا يجزع، بل ولا يتداوى، وذلك إمعاناً منه في التعبير عن رضاه عن ربه وما قدره له وابتلاه به.

وهكذا كان في بقية أموره وأحواله، صابراً في جوده وكرمه، في مؤانسته وملاطفته، في دروسه ومجالسه، في استقامته وطاعته، وفي مثابرته على دعوة الناس إلى محبة الله ورسوله وطاعتهما، ثم –إضافة لذلك– كان في أشدّ أيامه وأحلك ساعات حياته راضياً مستسلماً، بل كان في كل حال من أحواله شاكراً حامداً، وشكر الله على كلّ حال من أعلى درجات الصبر، فقد ورد أنه عليه الصلاة والسلام قال لطائفة من أصحابه: "ما أنتم؟" فقالوا: مؤمنون، فقال: "وما علامة إيمانكم؟" فقالوا: نصبر على البلاء، ونشكر عند الرخّاء، ونرضى بمواقع القضاء، فقال: "مؤمنون وربّ الكعبة"[373]

وهذه الحال من الصبر هو شأن الأنبياء وورثتهم من الأولياء والعارفين (إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب) [ص:44]. وورد في الحديث: "أشد الناس بلاء الأنبياء ثم العلماء ثم الأمثل فالأمثل"[374].

والصبر هو محض الإيمان ولبّه، فقد سئل عليه الصلاة والسلام مرة عن الإيمان، فقال: "هو الصبر" [375].

وسأل رجل الحسن البصري: ما الإيمان؟ قال: الصبر والسماحة. قال الرجل: ما الصبر والسماحة؟ فقال:الصبر عن معصية الله سبحانه وتعالى، والسماحة بأداء فرائض الله عز وجل[376].

---

[373] الطبراني في الأوسط (9423).

[374] أحمد في مسنده (369/6)، والحاكم في مستدركه (386/3).

[375] أحمد في مسنده (385/4).

[376] مجمع الأحباب (139/2).

وقد جمع الله للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال: (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) [البقرة:157]، ووعدهم بحسن الجزاء فقال: (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) [الزمر:10].

بعض كرامات الشيخ

كرامات الأولياء ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، كقصة أهل الكهف، وقصة إتيان آصف وزير سليمان بعرش بلقيس في زمن يسير، وغير ذلك مما اشتهر، وإن من أجلّ الكرامات التي تكون للأولياء: دوام التوفيق للطاعات والعصمة عن المعاصي والمخالفات، (ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون) [يونس:62]. وقد ذكر ابن عربي في فتوحاته أن الأكابر لا يحفلون بالكرامات الحسية، وأن أعظم كرامة عندهم العلم بالله تعالى والدار الآخرة.

ومما هو متفق عليه عند أهل العلم أنّ كلّ كرامة مهما علا شأنها فكرامة الاستقامة على شرع الله هي فوقها وأعلى منها، ودليل ذلك ما روي عن الإمام الشافعي والإمام الجنيد وغيرهما من السلف رحمهم الله تعالى: "إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء أو يطير في الهواء فلا تصدقوه ولا تغتروا به حتى تعلموا متابعته للكتاب والسنة"[377].

أما ما يشهد على إظهار الكرامات على الأولياء، فكثير، فمن كتاب الله تعالى: قوله عز وجلّ في صفة مريم عليها السلام –ولم تكن نبياً ولا رسولاً–: (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال أنى لك هذا قالت هو من عند الله) [آل عمران:37]. وقوله جلّ اسمه: (وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً) [مريم:25]. وكان في غير أوان الرطب.

وأما مما روي من ذلك عن الصحابة والتابعين ثم على من بعدهم، فلا يتسع المقام لسرده من كثرته، وأكتفي بما ثبت عن الصحابي خُبَيب –رضي الله عنه– كما حدّثت عنه بنت الحارث بن عامر وقد كان أسيراً عند أبيها: "والله ما رأيت أسيراً قط خيراً من خُبَيب، والله لقد وجدته يوماً يأكل من قطف عنب في يده، وإنه لموثق في الحديد، وما بمكة من ثمر، وكانت تقول: إنه لرزق من الله رزقه خُبيباً"[378]. فقد بلغت مثل هذه الأخبار حدّ الاستفاضة والشهرة مما لا يمكن تجاهله وإنكاره، لدرجة أنّ الإمام السبكي يقول: "وإني لأعجب أشدّ العجب من منكرها، وأخشى عليه مقت الله!"[379].

حُكي عن سهل بن عبد الله التستري أنه قال: "من زهد في الدنيا أربعين يوماً صادقاً من قلبه مخلصاً في ذلك ظهرت له الكرامات، ومن لم تظهر له فلعدم صدقه في زهده"[380].

فكيف بمن عاش كل عمره زاهداً في الدنيا معرضاً عنها؟

---

377 انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (30)، لابن تيمية.

378 البخاري في الجهاد والسير، باب: هل يستأسر الرجل ومن لم يستأسر، ومن ركع ركعتين عند القتل.

379 طبقات الشافعية الكبرى (315/2).

380 الرسالة القشيرية (571 و572).

وظهور الكرامات علامة على صدق من ظهرت عليه في أحواله، والكرامات تكون للأولياء كما تكون المعجزات للأنبياء، وتظهر الكرامة على العبد تخصيصاً له أو تفضيلاً، وقد تحصل باختياره ودعائه، وقد تكون بغير اختياره في بعض الأوقات[381].

"وكل كرامة ظهرت على يد صحابي أو ولي أو تظهر إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين، فإنها معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم لأن صاحبها إنما نالها بالاقتداء به صلى الله عليه وسلم"[382].

ومن أهم الكرامات التي تحصل للرجل الصالح ما نقل عن ابن المنكدر (ت:130هـ) رحمه الله: "إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده والدويرات التي حوله، فما يزالون في حفظ الله وستر"[383]. وأعظم بها من كرامة.

وأولياء الله لا يلتفتون لهذه الكرامات **بل يستحيي أحدهم من ذكر كراماته كما تستحيي المرأة من ذكر حيضتها كما نقل عن كثير منهم**، وإنما يؤخذ ويفرح بهذه الكرامات الأتباع والعوام، ويرون فيها شيئاً مميزاً خصّ الله به هذا الولي أو ذاك، وأياً كان موضع الكرامة في حياة العارفين أو مكانتها عند الناس؛ فإنه لم يكن من صلب اهتمامي ذكر كرامات سيدي يحيى أو استقصاؤها، لأنّ ذلك لا يمكن حصره، ولا كبير فائدة في ذكره، فالكرامة تخص صاحبها وتنفع أهل الوقت ممن حضرها وشاهدها، لا من غاب عنها ولم يُحط بظروفها، وكما يقول الإمام الغزالي: "الحكاية لا تنفع الجاحد ما لم يشاهد ذلك من نفسه، ومن أنكر الأصل أنكر التفصيل"[384]. لذا اقتصرت منها على ما يكون في ذكره فائدة للقارئ، أو استشهاد على واقعة أو حادثة يستدعي المقام ذكرها، أو ما يفيد في تكوين صورة صادقة وواضحة عن سيدي يحيى.

لقد كانت الكرامات في حياته شيئاً معتاداً ومتكرراً، وكان مع إعظامه شأن الكرامة وشكره الله تعالى عليها شكراً عظيماً كبقية النعم، لا يقيم من أجلها لنفسه وزناً، ولا يهتم بها أو لها مطلقاً، إلا من حيث كونها من الله تعالى وهباته، فكان لا ينشغل بالكرامة عن المكرِم، وهو ربما مع كثرة تكررها لا يشعر بها، وكان يرى أن الاستقامة على نهج الله وسنّة نبيه هي أعظم كرامة، فقد كان همّه الله تعالى، وكانت غايته نقل الناس من أحوال أهل الدنيا إلى أحوال أهل الآخرة.

أعدت زوجته يوماً الطعام وكان ألواناً من الكبة، فاشتهى أن يكون والدي رحمه الله معه، ولا سبيل له إليه، فما كان منه إلا أن شرع يقرأ بصوت مرتفع قوله تعالى: (يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات والأرض يأت بها الله) [لقمان:16] وأخذ يكرر (يأت بها الله)، فما هي إلا برهة قصيرة إلا وباب الدار يطرق، فيقول لعمتي: قومي افتحي

---

381 المصدر السابق (563).

382 طبقات الشافعية الكبرى (321/2).

383 جامع العلوم والحكم (467).

384 إحياء علوم الدين (29/3).

لأخيك حسن، تقول لي عمتي: فقلت في نفسي: (شو جاب أخي حسن الآن)، ففتحت الباب وإذا بي أتفاجأ بأخي حسن أمام الباب. فدخل وقبّل يدي والده ثم قال له: يا سيدي سُدّت في وجهي الطرق ورأيت نفسي متوجهاً إليك.

ودخل الشيخ ياسين الزملكاني –حفظه الله– مرة إلى مجلس كان فيه الشيخ يحيى وبيده فلّة يشمّها، قال: فجلست في آخر الغرفة، فلما وقعت عينه عليّ شمّ الفلة التي يحملها ثم توجّه بنظره إليّ ونفخ باتجاهي، فإذا بي أشمّ رائحة فلّ لم أشمّ أطيب منها رائحة في حياتي، وحسبت أني أشمّ رائحة فلّ من الجنة[385].

وحدثتني عمتي أم بدر –وهي أمي من الرضاع– قالت: زارني والدي مرة وكنت حاملاً في أشهري الأولى، وكل يوم أشتهي شيئاً، فقلت له: إني أشتهي العنب. وكان الوقت من السنة ليس وقت هذه الفاكهة، وكان سيدي الوالد يجلس في فسحة الدار تحت شجرة من عنب تظله، فأخذ عكازه وجعل يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم، ويباعد بين أوراق العنب بعكازه، وهو يناجي الله تعالى حتى أخرج لي عنقوداً كبيراً من العنب في غير وقت أوانه.

وعزم مرة على أن يأكل اليقطين أربعين يوماً، وكان قد زرعه في فناء داره، فكان كل يوم يقطف منه ويأمر أهل البيت أن يصنعوا منه طعام الغذاء، فلم تمض نصف المدة أو يزيد قليلاً إلا وعافت بناته أكل اليقطين كل يوم، فتآمرت بناته في يوم من الأيام –وكنّ لا يعقلن سبب تصرفه هذا– أن يقطفوا كل اليقطين الموجود في البستان، تقول لي عمتي: فلم نترك في ذلك اليوم يقطينة أو زهرة منه يمكن أن تخرج منها ثمرة اليقطين إلا وقطفناها، ثم أخفينا ما جنيناه من اليقطين في الدار، فلما أراد والدي أن يقطف اليقطين كعادته ليتم الأربعين يوماً، وقفنا نرقب ماذا سيكون من أمره، ونحن نتوجس خيفة من فعلتنا، تتابع عمتي حديثها لي فتقول: فما كان من والدي إلا أن شرع يقرأ حزب الدور الأعلى لابن عربي[386] مستفتحاً بالبسملة، ومع كل جملة من جمل حزب الدور الأعلى تظهر يقطينة، وهكذا حتى أنهى قراءة الحزب، ومع انتهاء الشيخ من قراءته كان قد ملأ حلة كبيرة من اليقطين، ونحن متعجبون ومذهولون مدهوشون مما نرى من والدي، ثم دخل غرفته وشرع يناجي ربه يسأله حاجته –كعادته كل يوم– من أرز ولحم وملح وغير ذلك، لا يدع حاجة إلا ويذكرها ويسميها باسمها، وهو ينادي ويتضرع بحرارة وحرقة وتمسكن، مع ذكر وصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوسل به، وما يمضي وقت إلا ويكون الرزاق الوهاب من بيده خزائن كل شيء قد أكرمنا، وكل ما يطلبه والدي يأتي للبيت، وعلاوة على ذلك نتفاجأ أنّ والدي يطلب منّا أن نخرج ما أخفيناه من اليقطين الذي قطفناه،

---

[385] من مقابلة مع الشيخ ياسين الزملكاني.

[386] الدور الأعلى هو ورد للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، يتكون من مجموع آيات قرآنية ممزوجة بدعوات فتح الله بها على الشيخ الأكبر.

ويأمرنا بصنع الطعام، ثم ينادي كعادته مع كل طعام يعده أهل البيت: يا أحباب الله، يا أحباب رسول الله، تعالوا.

ويعاتب جدي بناته على فعلتهن ويبين لهنّ أنه ما يفعل ذلك إلا بإذن أو إشارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه يفعل هذا تأدباً وامتثالاً، تقول لي عمتي: فلم أخالف له بعد ذلك أمراً.

طلعتْ شمسُ من أحبّ بليلٍ   واستنارت فما تلاها غروب
إنّ شمس النهار تغرب ليلاً   وشموس القلوب ليست تغيب[387]

[387] تنسب للحلاج.

الكشف وفراسة المؤمن

الكشف في الاصطلاح عند أهل السنة نوع من الخوارق، وقد يحصل للنفس نوع من الكشف، إما يقظة وإما مناماً بسبب قلة علاقتها مع البدن، إما برياضة أو بغيرها، وهذا هو الكشف النفساني، وهو مشترك بين المؤمن والكافر.

ولكنه للمؤمن نوع من أنواع الكرامة التي يظهرها الله على أولياءه، ففي الحديث عن أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه– مرفوعاً: "اتقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله"[388].

يقول شيخ الإسلام موضحاً معنى الكشف وأنواعه: "فما كان من الخوارق من باب العلم، فتارة بأن يسمع العبد مالا يسمعه غيره. وتارة بأن يرى مالا يراه غيره يقظة ومناماً. وتارة بأن يعلم مالا يعلم غيره وحياً وإلهاماً، أو إنزال علم ضروري، أو فراسة صادقة، ويسمى كشفاً ومشاهدات، ومكاشفات ومخاطبات، فالسماع مخاطبات، والرؤية مشاهدات، والعلم مكاشفة، ويسمى ذلك كله كشفاً ومكاشفة أي كشف له عنه"[389]

فالاطلاع على المغيبات من جملة الكرامات، ولا يشترط في الولي أن يكون صاحب فراسة أو كشف.

والفراسة الشرعية: خاطر يهجم على القلب، أو وارد يتجلّى فيه لا يخطئ غالباً إذا صفا القلب. وهي على حسب قوة القلب والمعرفة، فكلما قوي القلب وتمكنت المعرفة صدقت الفراسة، لأنّ الروح إذا قربت من حضرة الحق لا يتجلّى فيها غالباً إلا الحق[390].

فهي نور إيماني ينبسط على القلب، ولكل مؤمن منها نصيب، لكن لا يهتدي لحقيقتها إلا من صفا قلبه من الشواغل والشواغب.

وأشار إليها الحديث بقوله عليه الصلاة والسلام :"قد كان يكون في الأمم قبلكم مُحدَّثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد، فإن عمر بن الخطاب منهم"[391].

وأمّا ما حدث لسيدي يحيى من الكشف فإنّه لا يحصى، وقد مرّ في فصول الكتاب كثير منه، لذا أكتفي بذكر طرف يسير منه مما يؤدي الغرض بالتعريف بحال شيخنا.

فمن جملة ذلك أنّ الحاج أبا سعيد قويدر اجتمع مرة بسيدي يحيى في منزل ابن الشيخ إبراهيم الغلاييني لعيادة الشيخ إبراهيم من مرض ألمّ به، فقال جدي لأبي سعيد: أعطني خمس ليرات، فقال له: المفلسون في أمان الله، فقال: لا تقل إنك مفلس، في معك عشر ليرات بجيبتك، والله

---

[388] سنن الترمذي (3127).

[389] مجموع الفتاوى (313/11).

[390] معراج التشوف وحقائق التصوف.

[391] مسلم، وسبق تخريجه.

شايفها مثل مالي شايفك!! فقال الشيخ إبراهيم الغلاييني لأبي سعيد: أعطه أعطه، يقول لي أبو سعيد: فأخرجتها له، فأرسل شخصاً (ليصرفها) فأعطاني خمس ليرات وأخذ خمس ليرات (وهي تعادل في هذا الوقت ما يقرب من خمسمئة ليرة)، ثم رآني بعد يومين أو ثلاثة في مصيف بقين فأعطاني خمسة وعشرين ليرة وقال لي مداعباً: خذ مالي عاوزك (أي لست بحاجتك)[392].

وقريب من هذا أنّ الشيخ ياسين الزملكاني –وكان سيدي يحيى يحبه ويتوجه له بالعناية لأنه إضافة لصلاحه حفيد شيخه– اجتمع مرة مع سيدي يحيى، فقال في نفسه: ليت الشيخ يعطيني خمس ليرات، فلما دنا منه أخرج من جيبه نقوداً دون أن يعدّها أو ينظر إليها –كعادته– ودفعها إليه، فإذا هي خمس ليرات كما رجى وتمنّى[393].

ومنه ما حدث مع الشيخ الرباني المحدث عبد الله سراج الدين لما جاء من حلب مرة في زيارة لدمشق، فإنه أراد أن يزور سيدي يحيى، فذهب أولا لزيارة الشيخ الأكبر محيي الدين في مسجده، فرأى الشيخ يحيى يدرس الفتوحات المكية في المسجد، فجلس في الدرس، وكان معه مبلغ من المال، فتساءل في نفسه: هل أعطيها للشيخ يحيى أمام الناس أم أنّ هذا رياء يُحبط العمل؟ وظلّ يحدّث نفسه بذلك حتى انتهى الدرس، وإذا بالشيخ يحيى يقول له: أعطني المبلغ الذي معك وهو من مثلك لا يكون رياء.

ومنه أيضاً أنّ شاباً دخل مسجد الشيخ الأكبر وتوضأ من البحرة التي في باحة المسجد، ثم دخل حرم المسجد وجلس في درس الشيخ يحيى، فتذكر أنه نسي ساعته بعد الوضوء على البحرة، فقال في نفسه: لن أترك درس الشيخ من أجلها، إذا كان لي نصيب فيها سأجدها في مكانها بعد الدرس، وبعد فترة جاء شخص وتقدم إلى الشيخ فأعطاه الساعة وقال له: وجدتها على البحرة. فإذا بالشيخ يناديني (ولا يعرفني من قبل) ويعطيني ساعتي[394].

ومن ذلك أيضاً أنّ الحاج أبا الطيب قويدر –رحمه الله– اصطحب معه مرة رجلاً ينكر الولاية والكشف إلى مجلس للشيخ، وبينما هم يستمعون للشيخ يحيى إذا بهذا الرجل يهمس في أذن أبي الطيب قائلاً: قل للشيخ يحدثنا عن أحوال أهل الجنة، فقال أبو الطيب للشيخ يحيى – وكان شديد الاعتقاد به والحب له–: سيدي عندي سؤال في قلبي أحب أن تجيبوني عليه، فغضب الشيخ يحيى، وقال: هذا السؤال يقال للأولياء، ولا يقال لواحد مثلي، وصار يتكلم بغضب معاتباً أبا الطيب على هذا التصرف، ثم قال بعد ذلك مخاطباً أهل المجلس: دعونا من أبي الطيب وما كان منه، وخلينا نحكي عن أحوال أهل الجنة!!. فتكلم بما طلبه المتشكك وأضمره أبو الطيب في نفسه.

---

[392] من مقابلة مع الحاج أبي سعيد قويدر.

[393] من مقابلة مع الشيخ ياسين الزملكاني.

[394] ذكر لي هذه القصة الشيخ أبو نعيم، عبد الماجد الحناوي، وأكد لي أنها حصلت لابن خالة له يسمى أحمد.

ولما سئل مرة جاره أبو عدنان موسى أن يحدث عن بعض ما يعرفه عن الشيخ قال: في أحد المجالس سألوا الشيخ بعض الأسئلة فقال لهم الشيخ: سيأتي بعد قليل فلان وسيسأل السؤال الفلاني وجوابه كذا، ثم سيأتي بعده فلان وسيسأل السؤال الفلاني وجوابه كذا، قال: ونحن في نفس المجلس حدث ما أخبر به الشيخ بالضبط، لم يتخلف منه شيء.

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يُرى للناظرينا

وأجنحة تطير بغير ريش في ملكوت رب العالمينا[395]

وسمعت من أكثر من مصدر أنّ الشيخ المجاهد محمد الأشمر (ت:1380هـ) –رحمه الله– حضر مع بعض محبيه المجلس، وكان في مسجد مازي بحيّ الميدان، وطلب أن يتكلم بكلمة في مجلس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له سيدي يحيى: خلّ الكلمة بعد الذكر، فوجد الشيخ محمد الأشمر في نفسه منه في ذلك، فرأى ليلتها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرؤيا يقول له: لا تزعل وخلّ الكلمة بعد الذكر!!. فما كان منه إلا أن جاء بنفسه مع محبيه صباح الجمعة إلى منزل الشيخ يحيى، حيث كان درسه الأسبوعي في الفتوحات المكية لبعض خواصه، فقال له سيدي يحيى مبادراً: ألا ترضى ولا ينجبر خاطرك حتى ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!![396]

وتذكرني هذه القصة بما يُحكَى عن الإمام الجنيد أنّ السريّ السقطي كان يقول له: تكلم على الناس (أي: عظهم وذكرهم بالله). فقال: فكان في قلبي حشمة (مهابة وخوف) من ذلك؛ فإني كنت أتهم نفسي في استحقاق ذلك (أي لا يرى نفسه أهلا لوعظ الناس وتدريسهم)، فرأيت ليلة النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، وكانت ليلة جمعة، فقال لي: "تكلم على الناس". فانتبهت، وأتيت باب السريّ قبل أن أصبح، فدققت عليه الباب، فقال: لم تصدقنا حتى قيل لك؟[397].

ومن ذلك أيضاً ما حدّث به الحاج أبو الطيب قويدر مراراً أنّه كان مرة بصحبة سيدي يحيى والسيد الشيخ محمد المكي الكتاني عائدين من الزبداني، فتوقفوا في بلدة دمر، فاشترى سيدي يحيى من أحد الباعة طبق بيض وسلة تين، فحدّث الحاج أبو الطيب نفسه أنه لو كان عند البائع غيرهما لاشتريت طبق بيض وسلة تين، ثم لما وصلوا إلى دمشق قال سيدي يحيى: خلينا نوصل أبا الطيب لبيته أولاً، فلما نزل من السيارة أعطاه طبق البيض وسلة التين، فقال له أبو الطيب: سيدي هي لك. فقال سيدي يحيى: ألم تقل في نفسك لو كان عنده غيرهما لاشتريت للبيت؟! فخذها للبيت.

---

[395] نسبهما في تفسير البحر المديد للحلاج.

[396] انظر: قصة الشيخ أديب الكلاس في فصل مجالس الشيخ ودروسه.

[397] الرسالة القشيرية (408).

وحدثني الشيخ زهير الناصر حفظه الله أنه عرف الشيخ يحيى وهو في مقتبل الشباب إثر مرافقته لشيخه العلامة عبد الله سراج الدين من حلب لزيارة الشيخ يحيى، وأنه في أحد زياراته لدمشق كان في المسجد الأموي يزور النبي يحيى، فخطر له بعد الزيارة أن يشتري لحماً مشوياً ويذهب للشيخ يحيى الصباغ في بستانه – كان يظن أن الشيخ عنده بستان – قال وبينما أنا على باب المسجد إذ أرى الشيخ يحيى فيلتفت إليّ ويقول لي: هل تحب أن تذهب إلى البستان؟! فقلت: نعم سيدي. فيقول: هل تشتهي أن تأكل لحمة مشوية؟ فقلت: نعم سيدي. فيشتري اللحمة المشوية ويوقف سيارة ونذهب إلى أحد المتنزهات خارج دمشق– لا يذكر الشيخ زهير هل كانت عين الفيجة أو غيرها– وبعد النزهة ونحن في طريق العودة بعد الظهر كان الجو شديد الحرارة وإذا بالشيخ يلمح فتيات في عز صباهنّ يمشين فيوقف السيارة ويخاطبهن: اركبوا معنا!! فيتضاحكن ويتمايلن وكأنهن يعرفن الشيخ، ولكنهن لا يستجبن. يقول الشيخ زهير: فقلت في نفسي "الراحمون يرحمهم الرحمن" فالشيخ رقّ لحالهنّ وهن يمشين في شدة الحر. وإذ بالشيخ يحيى يلتفت إليّ ويقول: "الراحمون يرحمهم الرحمن" حديث هذا سيدي؟

ومثل هذا الكشف مشهور عند كثير من الأولياء، قديماً وحديثاً، فمنه ما حصل من شيخي الشيخ عبد الكريم الرفاعي، حيث أنّه كان في نزهة مع طلابه، فقاموا لصلاة العصر، وأمهم ابنه الشيخ أسامة فخطر له وهو في آخر صلاته أن الاستغفار بعد الصلاة وارد في السنة النبوية ولكن صيغة الاستغفار "أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه" هل لها مستند شرعي؟ فبعد الصلاة والاستغفار مباشرة يقول الشيخ عبد الكريم للشيخ أسامة: يابني هذا الاستغفار موجود في كتاب "الترغيب والترهيب" بالجزء الفلاني[398].

وحدثني الأخ معاذ عبد الكريم الرفاعي أنه عاد مرة إلى البيت قبل أذان العصر بقليل ولم يكن صلى الظهر بعد، ففتح له الباب والده، وقال له: يا بنيّ عاهدني أن تصلي الظهر فور دخول الوقت.

وحدثني أيضاً أنه مرة رأى والده يأكل الثوم مع الطعام وعنده درس، فقال في نفسه: كيف يأكل الثوم وينزل إلى الدرس؟ فبعد أن انتهى الشيخ من الطعام قال له: يا بنيّ يقول الفقهاء: للمرء أن يأكل الثوم وينزل إلى درسه في المسجد إذا علم أنه يستطيع أن يزيل رائحة الثوم!!

---

[398] عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من قال بعد صلاة الفجر ثلاث مرات وبعد العصر ثلاث مرات أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه كفرت عنه ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر" الترغيب والترهيب (685). وعزاه المنذري رحمه الله إلى (ابن السنّي). وهو الحديث الذي يدل على الخاطر المذكور في القصة.

وفيه عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قال دبر كل صلاة أستغفر الله وأتوب إليه غفر له وإن كان فر من الزحف" (2474) وعزاه إلى الطبراني في الصغير والأوسط.

ومنه ما وقع لي شخصياً مع شيخي الشيخ وصفي المسدّي، حيث كان يخطر لي الخاطر وأنا في طريقي للدرس مع الشيخ فيحدثني به أثناء الدرس كما خطر لي، رحمهم الله جميعاً.

ومنه ما روى ابن عساكر عن الإمام القشيري قال: "كنت في ابتداء وُصلتي بالأستاذ أبي علي، عقد لي المجلس في مسجد المطرز، فاستأذنته وقتاً للخروج إلى (نسا)، فأذن لي، فكنت أمشي معه يوماً في طريق مجلسه فخطر ببالي: ليته ينوب عني في مجالس أيام غيبتي. فالتفت إليّ وقال: أنوب عنك أيام غيبتك في عقد المجلس. فمشيت قليلاً فخطر ببالي: إنه عليل يشقّ عليه أن ينوب عني في الأسبوع يومين، فليته يقتصر على يوم واحد في الأسبوع. فالتفت إليّ وقال: إن لم يمكني في الأسبوع يومين أنوب في الأسبوع مرة واحدة. فمشيت قليلاً، فخطر ببالي شيء ثالث، فالتفت إليّ وصرح بالإخبار عنه على القطع"[399].

[399] تبيين كذب المفتري (226/1).

وقفة مع الكرامات والكشف:

كثيراً ما يرد إشكال على طلاب العلم أو العوامّ ينتقصون بسببه ضمنياً بعض العلماء ولا يعرفون لهم قدرهم ومكانتهم، وحاصل هذا الإشكال مردّه عدم اطلاعهم وشهودهم كرامات لهم، وعدم شيوع ذلك عنهم كما هو حاصل لمن عرفوا بالأولياء والعارفين، فيتوهّمون من هذا الإشكال أنّ من ظهرت عليهم الكرامة وعرف عنهم الكشف، وتناقل الناس ذلك عنهم هم أفضل عند الله وأرفع درجة ومكانة ممن لم يظهر ذلك عليهم، وهم بذلك يحطّون من قدر أنفسهم عند الله؛ لأنهم بوهمهم هذا يعرضون عن العلماء وينتقصون منهم في نفوسهم، وكفى بذلك خسراناً.

والجواب عن هذا أنّ العلماء بيّنوا أنّ اختصاص أحد بمزية لا تقتضي تفضيله على من ليس له ذلك الاختصاص وتلك المزية، وإلا للزم تفضيل إبليس على عوامّ المؤمنين، إذ له مزية خرق الهواء، والمشي على الماء، ويرانا هو وقبيله من حيث لا نراه كما في القرآن الكريم[400]، وللزم تفضيل الخضر على موسى عليهما السلام، وكل ذلك لا يصحّ.

فمزية الكرامة لرجل من أهل الله لا تجعله أفضل من غيره منهم ممن لم يختصّ بالكرامات.

وقد ظهر بعد عصر الصحابة على يد كثير من الأولياء كرامات لم تظهر على أيدي أجلاء الصحابة رضي الله عنهم، وأجاب عن ذلك العلماء بأجوبة منها: أنّ الصحابة كانوا على قدم عال من اليقين فلا يحتاجون لما يقوى به إيمانهم بخلاف من بعدهم.

ويردّ على هذا الإشكال أيضاً ما ذكره الشيخ الأكبر في فتوحاته حيث قال: "وأما العالي من الرجال وهم الأكابر، وهم الذين ورثوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم عبوديته، فإن أمروا بالتبليغ (أي إن أمِر هؤلاء الرجال الأكابر بتعليم الناس دينهم ودعوتهم إلى محبة الله ورسوله، وكل العلماء مأمورون بذلك) فيحتالون في ستر مقامهم عن أعين الناس، ليظهروا عند الناس بما لا يُعلَمون في العادة أنهم من أهل الاختصاص الإلهي، فيجمعون بين الدعوة إلى الله وبين ستر المقام، فيدعونهم (أي يدعون الناس إلى الله) بقراءة الحديث وكتب الرقائق وحكايات كلام المشايخ حتى لا تعرفهم العامة إلا أنهم نقلة، لا أنّهم يتكلمون عن أحوالهم من مقام القربة (أي لا يظهرون أنفسهم بهذا العلم وهذا الحال من تعليم الناس دينهم أنهم مقربون عند الله، وذلك بتواضعهم وستر مقامهم)"[401].

كالشمس يمنعك اجتلاؤك نورها   فإذا اكتست برقيق غيم أمكنا

---

[400] (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) [الأعراف:27].

[401] الفتوحات المكية (111/4).

"وكم من عارف كبير بقي تحت أستار الخمول، حتى لقي الله تعالى، بل كلما عظم قدر العارف عند الله، خفي أمره على الناس، لأنّ الكنوز لا تكون إلا مدفونة، فإن ظهرت نهبت ونبشت، وتشتت أمرها وذهب سرها"[402].

ومن ظهر منهم، فلأنّه لا بدّ أن يكون منهم في كل وقت أئمة ظاهرون، قائمون بالحجة، سالكون المحجة، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك"[403].

وقد ورد عن الإمام الشافعي –رحمه الله–: إن لم يكن العلماء أولياء فليس لله من وليّ.

---

[402] الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية (2).

[403] أخرجه مسلم في الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم".

الباب السادس: الشيخ في رحاب الله

وفيه فصلان

الفصل الأول: وفاته

1- الأيام الأخيرة

2- بعد الوفاة

الفصل الثاني: الوفاء خلق محمدي

1- إغفال الشيخ في كتب التراجم

2- التلامذة والمريدون

3- قالوا في الشيخ

الأيام الأخيرة

من إكرامات الله تعالى لأنبيائه أنهم لا يقبضون حتى يُخيَّروا[404]، ومن إكراماته لبعض خاصة أوليائه أنّه يطلعهم عند دنوّ أجلهم على موعدهم للقاء ربّهم ليتهيئوا للقدوم عليه، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم –وهو سيد الأولياء– قد أعلمه الله تعالى بدنوّ أجله، ففي الحديث أنّ عمر بن الخطاب سأل ابن عباس –رضي الله عنهم– عن قوله تعالى: (إذا جاء نصر الله والفتح)، فقال: أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه إياه. قال: ما أعلم منها إلا ما تعلم[405].

وعن أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه– قال: خطب النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "إنّ الله خيّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله"، فبكى أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقلت في نفسي: ما يبكي هذا الشيخ؟ إن يكن الله خيّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو العبد، وكان أبو بكر أعلمنا، قال: "يا أبا بكر لا تبك، إنّ أمنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوّة الإسلام ومودّته، لا يبقينّ في المسجد باب إلا سُدّ، إلا باب أبي بكر"[406].

وحدث ذلك لأبي بكر الصديق وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: دخلت على أبي بكر رضي الله عنه، فقال: في كم كفنتم النبي صلى الله عليه وسلم؟ قالت: "في ثلاثة أثواب بيض سحولية، ليس فيها قميص ولا عمامة" وقال لها: في أي يوم توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: "يوم الاثنين" قال: فأي يوم هذا؟ قالت: "يوم الاثنين" قال: أرجو فيما بيني وبين الليل، فنظر إلى ثوب عليه، كان يمرّض فيه به ردع من زعفران، فقال: اغسلوا ثوبي هذا وزيدوا عليه ثوبين، فكفنوني فيها، قلت: إن هذا خلق، قال: إن الحي أحق بالجديد من الميت، إنما هو للمهلة فلم يتوفّ حتى أمسى من ليلة الثلاثاء، ودفن قبل أن يصبح[407]. كما حدث مثل هذا لكثير من السلف والخلف، وكان بعضهم يخبر أحبابه وخواصه بذلك تلميحاً أو تصريحاً.

---

404 جامع العلوم والحكم (ص:357). ولا يستبعد أن يكون ذلك الإكرام لخاصة الأولياء، فهم ورثة الأنبياء.

405 أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.

406 أخرجه البخاري في الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد.

407 أخرجه البخاري في الجنائز، باب موت يوم الاثنين. وفي موطأ الإمام مالك عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، أنها قالت: إن أبا بكر الصديق كان نحَلها جاد عشرين وسقاً من ماله بالغابة، فلما حضرته الوفاة قال: "والله يا بنية ما من الناس أحد أحب إليّ غنى بعدي منك، ولا أعز عليّ فقراً بعدي منك، وإني كنت نحلتك جاد عشرين وسقاً، فلو كنت جددتيه واحتزتيه كان لك. وإنما هو اليوم مال وارث، وإنما هما أخواك، وأختاك، فاقتسموه على كتاب الله، قالت عائشة، فقلت: يا أبت، والله لو كان كذا وكذا لتركته، إنما هي أسماء، فمن الأخرى؟ فقال أبو بكر: ذو بطن بنت خارجة، أراها

فقد ذكر الشيخ الأكبر الحاتمي أنّ أباه أخبره بموته قبل خمسة عشر يوماً، وأنّه يموت يوم الأربعاء، وكان كذلك، فلما كان يوم موته –وكان مريضاً شديد المرض– استوى قاعداً، غير مستند، وقال لابنه: يا ولدي اليوم يكون الرحيل واللقاء، فما جاء الظهر إلا وقد حضره الموت[408].

كما حدث ذلك أيضاً للمحدث الأكبر البدر، فقبل وفاته بيومين حضر العلماء والطلاب لزيارته والاطمئنان عليه فأوصاهم وودّعهم[409].

وأمّا سيدي يحيى فقد حدثتني عمتي بقصة ملخّصها أنّ الشيخ علم بموعده للقاء ربه قبل أكثر من أسبوع، ولكن لما في القصة من كرامة عظيمة، أخشى إنكارها من القارئ آثرت أن أعرض عن ذكرها، وأكتفي من ذلك بما حدثني به الشيخ عمر الصباغ، وكان ممن يحضر درس الفتوحات المكية في بيت الشيخ، بعد صلاة الفجر من كل يوم جمعة، ففي آخر درس منه، بعد أن انتهى الشيخ من الدرس التفت إلى الحضور وتلا عليهم قوله تعالى: (بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين) [هود:86]، قال: ولم أدرك ولا غيري من الحاضرين أنّ الشيخ يشير إلى اقتراب أجله، وأنّ هذا المجلس هو آخر درس له، إذ لم تمض خمسة أيام إلا وقد انتقل إلى جوار ربه.

ومن جملة وداع الشيخ يحيى لمحبيه أنّ الشيخ ياسين الزملكاني –حفظه الله– حضر مجلساً للشيخ يحيى، وفي آخر اللقاء قال سيدي يحيى للحاضرين: "أنا ماشي، وإنّي أودعكم، فكل واحد الآن يخرج ما معه ويتصدق فيه". يقول الشيخ ياسين: فأخرجت كلّ ما معي ودفعته للشيخ يحيى، وكان هذا هو اللقاء الأخير به.

ويشبه هذا –إن لم يطابقه– وداع العلامة الشيخ حسن حبنكة الميداني (ت:1398هـ) –رحمه الله– لطلابه، فقد كان له أيضاً درس في داره كل يوم جمعة بعد صلاة الفجر، ففي آخر درس له قبل وفاته قال للطلاب الحضور: "إنا ما حضرنا إلا بنية التنشط برؤيتكم، وإنا نتبرك بأرواحكم، وإنا على جناح سفر، إما إلى الآخرة، ونسأل الله أن يعفو عنا، وإما إلى الحجاز مهبط الوحي (وكان في نيته ذلك)، وأسأل الله أن يتقبل منا"[410].

ومما حدث معي أنا وشقيقي –وقد كنا أطفالاً صغاراً– أنّ جدي كان كلما تشرّفنا فزرناه أو يشرّفنا بزيارة يعطينا شيئاً من المال ليدخل علينا السرور، وكنا ككل الأطفال نفرح بذلك كثيراً، وغالباً ما كان يعطي كل واحد منا ليرة سورية وهي مبلغ كبير في ذلك الوقت، وفي آخر زيارة –وكنا نسكن

جارية". فأخبر أبو بكر بنته بكلامه هذا أنه في مرض موته (وهذا كشف)، فأبطل ما وهبه لها في هذا المرض لأنها لم تقبضه قبل مرضه. كما ظهر منه كشف آخر هنا وهو أنه علم أنّ زوجته خارجة حامل بأنثى.

408 الفتوحات المكية (354/3).

409 للاطلاع على نصّ الوصية ينظر: الدرر اللؤلؤية، وتاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر (493/1).

410 الداعية المربي الشيخ حسن حبنكة الميداني قصة عالم مجاهد حكيم شجاع، عبد الرحمن حبنكة الميداني(323).

في دوما– أوشك أن يغادرنا ولم يعطنا شيئاً، وهذا على غير عادته، فودعناه إلى باب الدار، ثم لحقنا به حتى ركب سيارة الأجرة، ووقفنا بجانب النافذة التي جلس إليها، فنظر إلينا وأدخل يده في جيبه فأخرج منها ما تيسر، وأعطانا ما وقعت عليه يده، وكان ذلك ربع ليرة سورية، فانطلقنا –بعد أن غادر– فرحين نريد أن نشتري شيئاً بهذه القروش، وإذا بنا نفاجأ بالبائع يقول لنا: هذه ربع ليرة ممسوحة ولا تصلح للتداول. فعدنا للبيت يملؤنا الحزن، ولم تمض أيام حتى جاءنا خبر وفاته، رحمه الله، فأدركنا أنّ ذلك كان إشارة إلى دنوّ أجله.

لما دنا الأجل أصيب الشيخ بإسهال شديد دام ثلاثة أيام، نظف كل أمعائه وأخرج كل ما بداخله، ليقدم على ربه نظيفاً حساً ومعنى، تتلقاه الملائكة كما تتلقى الصالحين ورائحتهم المسك، فقد جيء بالطبيب لشيخه البدر الحسني حيث أصابه إسهال شديد استمر شهراً، فقال: لماذا الطبيب؟ قالوا: ليصف لك دواء ليتوقف الإسهال، فقال: أنا أريد أن أبقى هكذا، لا أريد أن يتوقف الإسهال، الأولياء يتنظفون قبل قدومهم على ربهم فتستقبلهم الملائكة وتتلقاهم ورائحتهم كالمسك، فأريد أن ألقى ربي كذلك، وامتنع عن الطعام قبل أسبوع من وفاته.

ونظير ما أصاب المحدث البدر الإسهالُ الشديد الذي أصاب الشيخ جلال الدين المحلي (ت:864هـ) مدة تزيد على ثلاثة أشهر إلى أن توفاه الله سبحانه وتعالى، وكذلك أصاب الإسهالُ الشديد الحافظَ ابن حجر (ت:852هـ) –رحمه الله– قبل موته واستمرّ شهراً كاملاً، فلما دنا الأجل أنشد أربعة أبيات من قصيدة للإمام أبي القاسم الزمخشري (ت:538هـ) –رحمه الله– وهي:

قرب الرحيل إلى ديار الآخره فاجعل إلهي خير عمري آخره

وارحم مبيتي في القبور ووحدتي وارحم عظامي حين تبقى ناخره

فأنا المسيكين الذي أيامه ولت بأوزار غدت متواتره

فلئن رحمت فأنت أكرم راحم فبحار جودك يا إلهي زاخره

كان موعد سيدي يحيى للقاء ربه بعد عصر يوم الأربعاء (20–صفر 1381هـ، الموافق: 2–آب–1961م).

تم تجهيزه ودفنه في نفس اليوم، وصادف أن تحركت الجنازة مع أذان المغرب، فتوجه المشيعون بالنعش إلى جامع الأفرم المقابل لبيت الشيخ لإدراك صلاة المغرب مع الجماعة، إضافة إلى قرب المقبرة من المسجد، وهنا حصل خلاف، إذ ارتأى بعض أولاد الشيخ والخلّص من أحبابه أن يصلّى عليه في مسجد الشيخ الأكبر، الذي عاش طيلة حياته محباً له، ومدرساً فيه، وارتأى آخرون أن يصلّى عليه في جامع الأفرم لإدراك الصلاة مع الجماعة الأولى، وحصل ارتباك وتجاذب في ذلك، إلى أن رجحت كفة الفريق الأول، وسار المشيّعون بالجنازة إلى مسجد الشيخ الأكبر فصلوا عليه هناك، حيث صلى عليه العلامة الفقيه الشافعي الشيخ صالح العقاد، رحمه الله.

وهنا يروي بعض من حضر الجنازة ومنهم بعض أحفاد الشيخ –لما رأى هذا التردد والتجاذب– أنّ النعش أبى الدخول إلى مسجد الأفرم، وأنّ حاملي النعش عجزوا عن ذلك، وأنهم كلما حاولوا التوجه بالنعش إلى مسجد الأفرم تحوّل رغماً عنهم باتجاه مسجد الشيخ الأكبر!! وأنهم لما ساروا به إلى هناك كانت الجنازة سريعة والطريق ميسرة، بل والنعش خفيفاً، حيث كان محمولاً على الأكتاف كل الطريق. وإذا أخبرتهم بحقيقة ما حدث فإنهم ينكرون ذلك، ويصرّون على مقالتهم وما شهدوه بأم أعينهم، وأنّ توجّه النعش القسري إلى مسجد الشيخ الأكبر كان كرامة للشيخ بعد مماته؛ لأنّه كان قد أوصى بالصلاة عليه هناك.

بعد الصلاة على الشيخ سارت الجنازة إلى مقبرة بئر التوتة في حي المهاجرين، وكان موكباً جنائزياً مهيباً غاصّاً بالمشيعين حضره كبار العلماء، علمت أنّ منهم الشيخ حسن حبنكة الميداني، والشيخ السيد محمد المكي الكتاني، والشيخ محمد سعيد البرهاني وآخرين غيرهم، رحم الله الجميع.

وتملّك العجب كل من حضر الجنازة لهذا العدد الكبير من المشيعين، إذ أنه مع ضيق الوقت وقصر المدة بين الوفاة والتشييع، فإنّ العدد كان كبيراً ولافتاً، فالوفاة حدثت بعد العصر والدفن تمّ قريباً من صلاة العشاء، أي خلال ساعات قليلة لا تتجاوز الخمس، كيف ذاع الخبر بهذه السرعة؟ وكيف استطاع الناس ترتيب أمورهم وحضور الجنازة بهذه المدة القصيرة؟ وخاصة أنّ بعضهم جاء من مسافات بعيدة، كالسيد محمد المكي فإنّه كان في مصيفه بالزبداني ساعة جاءه الخبر.

وكثرة المشيعين من بشائر الخير للميت فقد جاء في الحديث عن عائشة الصدّيقة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما من أحد يموت يصلي عليه أمة يبلغون أن يكونوا مائة فيشفعون إلا شفّعوا فيه"[411]. وعن ابن عباس –رضي الله عنهما– أنه مات ابن له بقديد أو بعُسفان فقال: يا كريب انظر ما اجتمع له من الناس قال: فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا فأخبرته فقال: يكونون أربعين؟ قال: قلت: نعم، قال: اخرجوا به فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفّعهم الله فيه"[412].

وقد يشفع للميت بحضور واحد من الصالحين له دعوة مجابة أو كرامة عند الله تعالى، وفي هذا قصص كثيرة، منها: أنّ رجلاً من المسرفين على أنفسهم مات.. فرئي فى المنام، فقال: إنّ الله غفر لي بحضور الحارث بن مسكين جنازتى!! وإنه استشفع فيّ فشفّع[413].

---

[411] صحيح ابن حبان والترمذي (1029). وهو صحيح على شرط مسلم.

[412] صحيح ابن حبان. وهو صحيح على شرط مسلم.

[413] طبقات الشافعية الكبرى، ترجمة الحارث بن مسكين.

وصل النعش إلى المقبرة قرب صلاة العشاء، حين أقبل الليل وعمّت الظلمة المكان، وأطبقت العتمة على المقبرة، فاستعين بالفوانيس ودفن الشيخ على ضوءها، وطويت صفحة من الصفحات المشرقة في اللحظة الذي طوي فيها بساط هذا العارف الذي قلّ نظيره.

لقد كان لافتاً في جنازته، لافتاً في موعد دفنه، كما كان لافتاً في أحواله ونمط حياته، فرحمه الله رحمة واسعة، ورضي عنه وأرضاه.

حلف الزمانُ ليأتينّ بمثله حنَثَتْ يمينُك يا زمان فكفّر[414]
هيهات أن يأتيَ الزمان بمثله إنّ الزمان بمثله لبخيلُ

وأختم بحكاية من الحكايات المتواترة عند القوم، فيها عظة لكل تلميذ تعلّق بأستاذه، ولكل طالب ومريد فقد شيخه ومربيه، وملخّصها أنّ عارفاً رأى مريداً حزيناً، فسأله عن سبب حزنه؟ فقال له المريد: مات أستاذي! فقال له العارف: ولمَ جعلت أستاذك من يموت؟!

ففي هذه الحكاية أدب عظيم وإشارة إلى أنه يجب أن يكون المطلوب هو الحق تعالى، والشيخ هو السبب والباب لذلك، فلا يجب أن يكون هو المقصد، ومثل الذي يتعلق بالشيخ كمثل الذي يتعلق بالكشف[415].

---

414 نسبه صاحب وفيات الأعيان وغيره للفقيه عمارة اليمني.

415 المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، موقف(19).

بعد الوفاة

تذكر كتب تراجم الأولياء والصالحين كثيراً من الكرامات ظهرت لأصحابها بعد موتهم، فمنهم من ظهرت كرامته بعد موته مثلها في حياته، ومنهم من ظهرت كرامته بعد موته أكثر منها في حياته، ومنهم من جرّبت إجابة الدعاء عند قبره وهم كثر.

وقد حصل شيء من هذا للشيخ يحيى بعد وفاته، وهو من الأشياء العجيبة في عالم المادة والمحسوسات –وليس في عالم الأرواح– حيث جاء الشيخ حازم أبو غزالة[416] من الأردن إلى سوريا يبحث عن أقرباء الشيخ يحيى، فاهتدى لمن أرشده إلى والدي الشيخ حسن باعتباره أكبر أبناء الشيخ يحيي وعميد العائلة، فقال له: لقد رأيت في منامي والدك يقول لي: انزل إلى الشام واصنع لي قبّة فإنّ أهل الشام ما عرفوا قدري!!. يقول الشيخ حازم: لم ألتفت إلى هذه الرؤيا بادئ الأمر، فأنا لم أر الشيخ يحيى في حياتي، ثم تكررت لي هذه الرؤيا عدة مرات، مما حملني على السفر إلى دمشق والسؤال عن أولياء الشيخ لتنفيذ هذه الوصية، وإني أستأذنكم بذلك، فرفض والدي ذلك بادئ الأمر، واعتذر للشيخ حازم بأن الشيخ يحيى كان زاهداً في الدنيا ولم يكن يأبه للمظاهر، والدنيا لم تكن تشغل شيئاً من قلبه، وهذا الذي تقوله لا يتناسب مع ما كان عليه الشيخ، فأصرّ الشيخ حازم، والتقى بعدد ممن محبي الشيخ يحيى ووسطهم في ذلك، فعزموا على والدي لموافقته وتركه يفعل ما جاء من أجله، فأحرج والدي ورضي مكرهاً بشرط أن لا يبالغ في ذلك، ويكون بأقل النفقات.

فقام الشيخ حازم بعمل سور من قضبان حديدية حول القبر وجعل فوقه قبّة متواضعة باللون الأخضر.

وقد ذهبت عمتي مع زوجها إلى الأردن وقاموا بزيارة الشيخ حازم وعائلته في منزله.

وهذا الذي رآه الشيخ حازم من الغرائب، وقد حصل قريب منه لآخرين، منها ما حصل لبعض الصحابة رضوان الله عليهم، كقصة الصحابي الجليل ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري خطيب الأنصار، ويقال له خطيب النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ثبت أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بشّره بالجنة وبالشهادة أيضاً، فقتل يوم اليمامة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه شهيداً، وكانت راية الأنصار يومئذ بيده، وبعد استشهاده رآه رجل من المسلمين في منامه، فقال

---

[416] الشيخ حازم أبو غزالة مواليد يافا 1933م، شيخ الطريقة الشاذلية في الأردن دار إقامته، ويدير فيها جمعية دار القرآن الكريم في المسجد الذي قام على بنائه في حي نزال وسماه دار القرآن الكريم وذلك سنة 1964م، كان يتردد على الزوايا الصوفية في فلسطين، وقد درس الشريعة في سوريا، ومن شيوخه الشيخ عبد القادر عيسى الحلبي، والشيخ محمد الهاشمي التلمساني. ويصل نسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وله عدد من الزوايا الصوفية في الأردن وفي العراق ونيجيريا وجنوب إفريقيا، وله أتباع لا يحصون عدداً في جميع أنحاء العالم.

له: إنّ رجلاً انتزع مني درعاً نفيسة، ووضعها في قدر تحت الكانون في مكان كذا وكذا، وأوصاه بوصايا، فطلبوا الدرع فوجدوها كما قال، وأنفذ الخليفة أبو بكر الصديق –رضي الله عنه– وصيته التي أوصى بها بعد موته، فلا نعلم أحداً جازت وصيته بعد موته إلا ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه[417].

ومنها ما ذكره الإمام النووي في المجموع حيث قال: "وذكر ابن قتيبة في المعارف وغيره: أنّ طلحة بن عبيد الله أحد العشرة –رضي الله عنهم– دفن، فرأته ابنته عائشة بعد دفنه بثلاثين سنة في المنام، فشكا إليها النزّ، فأمرت به فاستخرج طرياً، فدفن في داره بالبصرة. قال غيره: قال الراوي: كأني أنظر إلى الكافور في عينيه لم يتغير، إلا عقيصته فمالت عن موضعها واخضرّ شقّه الذي يلي النزّ"[418].

ومنها ما ذكره الغزالي: أنّ أبا بكر الرشيدي قال: رأيت محمداً الطوسي المعلم في النوم، فقال لي: قل لأبي سعيد الصفار المؤدّب:

وكنا على أن لا نحول عن الهوى فقد وحياة الحب حُلْتُم وما حُلْنا

قال: فانتبهت فذكرت ذلك له: فقال: كنت أزور قبره كل جمعة، فلم أزره هذه الجمعة[419].

ومن ذلك أنّ الإمام مجد الدين أبي السعادات ابن الأثير صاحب كتاب "جامع الأصول في أحاديث الرسول" رآه أخوه بعد موته أنّ نجاسة قد آذته. قال: فبحث عن صحة هذه الرؤيا، فوجد أحد الأهالي قد أطلق غنماً له فوق سطح الصفة التي هو فيها مدفون، وقد كثر ما يخرج من أجوافها فوق ذلك الموضع، فأزاله ونظفه"[420].

ونقل الكوثري عن الرازي في المطالب العالية قال: "إنّ الإنسان قد يرى أباه وأمه في المنام ويسألهما عن أشياء وهما يذكران أجوبة صحيحة، وربما أرشداه إلى دفين في موضع لا يعلمه أحد" ثم ذكر حادثة من ذلك حصلت له مع والده بعد وفاته، وبعدها ساق ما سمعه من أن الفردوسي الشاعر لما صنف كتابه المسمى (بشاهنامه) على اسم السلطان محمود بن سبكتكين ولم يقض حقه كما يجب، وما راعاه كما يليق بذلك الكتاب، ضاق قلب الفردوسي، فرأى في المنام (رستم) فقال له: "قد مدحتني في هذا الكتاب كثيراً وأنا في زمرة الأموات فلا أقدر على قضاء حقك، ولكن اذهب إلى الموضع الفلاني واحفره فإنك تجد فيه دفيناً فخذه"، فكان الفردوسي يقول: إن رستم بعد موته أكثر كرماً من محمود حال حياته"[421].

---

417 انظر: الترمذي (3795)، وانظر: المعجم الكبير للطبراني (65/2).

418 المجموع (303/5).

419 إحياء علوم الدين (253/5).

420 انظر: النهاية لابن الأثير (ج11/1).

421 مقالات الكوثري (343).

ومن ذلك أنّ الحميدي (ت:488هـ) أوصى إلى الأجلّ مظفّر بن رئيس الرؤساء أن يدفنه عند بشر الحافي (ت:227هـ)، فخالف، فرآه بعد مدة في النوم يعاتبه، فنقله سنة إحدى وتسعين(أي بعد ثلاث سنين من وفاته) فوجد كفنه جديداً، وبدنه طرياً يفوح منه رائحة الطيب[422].

ومن تلك الغرائب ما حصل من الشيخ عبد الرحمن القصار (ت:1348هـ) رحمه الله، وهو من معاصري سيدي يحيى، وكان ترك ديواناً من الشعر، فأراد أبناؤه طباعته، فافتقدوه، فرأى الشيخُ عبدُ الرحمن الخطيب –وكان صديقاً حميماً للشيخ القصار– في المنام صديقَه الشيخَ عبد الرحمن القصار يقول له: إن الديوان موجود عند ابن أختي محمد، فقل لأخي يطلبه منه. وفي اليوم التالي أرسل الخطيب لابن أخت الشيخ يطالبه بالديوان فأنكر علمه به، ثم بعد حوالي الشهر أو يزيد اعترف به وجاء بالديوان مكرهاً دون أن يفصح عن السبب[423].

حكم البناء على القبر:

البناء على القبر حرمه بعض العلماء وكرهه آخرون، واستثنوا من الحرمة والكراهة البناء على القبر إذا خيف عليه أذى، بحيث لم يؤمن عليه من النبش من الوحوش، أو السيل أو المطر الشديد، أو خشي سرقة شيء منه كالكفن أو شيء من الجثة للتشريح كما يفعله بعض طلبة الطب، ويتأكد الجواز عند الشافعية فيما إذا كان القبر لعالم أو صالح؛ لأنّه من نوع الاحترام والإكرام كما قالوا.

ولكن الفقهاء مجمعون على حرمة البناء على القبر بقصد المباهاة والتفاخر، وهذا راجع لنية الباني، وهو أمر خفيّ، فيحاسبه الله تعالى عليها.

وهذا كله إذا كان القبر في أرض مملوكة للميت أو لورثته ولم تكن وقفاً للمسلمين، ومعلوم أنّ قبر الشيخ يحيى ليس في أرض موقوفة، بل هو في مقبرة، تمّ شراء قبر فيها لهذا الغرض، ولله الحمد، فلا خلاف في الجواز، وخاصة أنّ قبره –رحمه الله– قد شيّد مسطحاً كما هو مذهب الشافعية –وسيدي يحيى شافعي المذهب– الذين ذهبوا إلى أنّ تسطيح القبر أفضل من تسنيمه، وقد رفع القبر عن الأرض قدر شبر فقط، وهو المندوب عند الشافعية ليزار الميت ويحترم[424].

أما الكتابة على القبر، فقد قال ابن عابدين من الحنفية بعد أن ساق جواز الكتابة على القبر عند الحنفية إن احتيج إليها: لأنّ النّهي عنها (الكتابة) وإن صحّ فقد وجد الإجماع العمليّ بها، فقد

---

[422] ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء عن الحافظ ابن الحافظ ابن عساكر عند ترجمته للحافظ الحميدي، رحمه الله.

[423] تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر (437).

[424] وفي (بشرى الكريم) من كتب الشافعية: والبناء كأن يبني قبة على قبر الميت في غير المقبرة المسبّلة، أما فيها فيحرم. نعم إن احتيج لبناء نحو قبة أو بيت؛ لخوف سارق أو سبع ولو بمسبلة، أو كانت الكتابة على القبر والقبة لصالحٍ أو عالم في غير مسبلة **فلا كراهة**، ولذا **تصح** الوصية بقبة له.

أخرج الحاكم النّهي عنها من طرق ثمّ قال هذه الأسانيد صحيحة وليس العمل عليها، فإنّ أئمّة المسلمين من المشرق إلى المغرب مكتوب على قبورهم، وهو عمل أخذ به الخلف عن السّلف، ويتقوّى بما ورد أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم حمل حجراً فوضعها عند رأس عثمان بن مظعون وقال: "أتعلّم بها قبر أخي، وأدفن إليه من مات من أهلي" فإنّ الكتابة طريق إلى تعرّف القبر بها، نعم يظهر أنّ محلّ هذا الإجماع العمليّ على الرّخصة فيها ما إذا كانت الحاجة داعيةً إليه في الجملة، حتّى يكره كتابة شيء عليه من القرآن أو الشّعر أو إطراء مدح له ونحو ذلك.

إغفال الشيخ في كتب التراجم

لفت نظري وأنا أعدّ هذه الترجمة، ما للشيخ من شهرة وذيوع بين كثير من الناس، فقلّ من توسمت أنه يعرف شيئاً عن الشيخ فلم يكن كذلك، وهذا مما يدلّ على الأثر الإيجابي الذي تركه الشيخ يحيى في مجتمعه وأهل عصره كي يحتفظ الصغار يومئذ بذكراه بعد أن صاروا اليوم كهولاً، وهذا يدلّ على أنه كان طاهر السيرة نقيّ السريرة، ولكنّ الذي لفت انتباهي أكثر وتوقفت عنده طويلاً، ولم أجد له تفسيراً يشفي علّتي ويسقي غلّتي أنّ كثيراً بل أغلب من ترجم لمعاصري الشيخ أو محبيه أو شيوخه لم يأت على ذكره لا من قريب ولا من بعيد[425]، رغم أني تصفحت أسفار القوم من جميع مظانّها وأجلت أقداح النظر في أنجادها وأغوارها، واستنفذت جهدي في الاستقراء البالغ فما صادفت مايشفي صدري ويروي ظمئي، مع أنهم ساقوا أشياء وأتوا بقصص في تراجمهم لم تكن بأهمية ذكر مصاحبتهم للشيخ يحيى أو حضور طرف من مجالسه، ونحو ذلك من الأحداث والأخبار التي تكون عادة بين الأقران أو الأصحاب الكمّل، فتعجبت من ذلك كل العجب ولم أقف له على وجه ولا سبب، وترجح لديّ –بعد تفكير وبحث ومراجعة وتأمّل– أنّ كل ما مرّ ذكره من حال الشيخ الخاص في تجاوز المألوف، إضافة لما كان يترخص به من الجلوس في المنتديات العامة (على خلاف عادة العلماء)، مثل قهوة المنشية في دمر، وقهوة عين الفيجة، أو عين الخضراء، (وطبعاً لم يكن حال هذه الأماكن في ذلك الوقت كحالها اليوم البتة من الاختلاط والمخالفات الشرعية)، وكذلك كجلوسه في مرحلة من مراحل حياته في بعض المقاهي –بحكم عمله في الدلالة– كمقهى كان موجوداً فيما مضى في الجسر الأبيض، وآخر قريباً من ساحة المرجة، إضافة لطريقة حديثه الذي كان يتخلله أحياناً بعض المزاح والنكتة ولو كان من تحت معقِد الزنّار[426]، كل ذلك كان له أثر مباشر في إغفال كثير ممن ترجم للعلماء ذكر الشيخ يحيى فيمن ذكروا من تلاميذ الشيخ محمد بدر الدين الحسني والشيخ محمد أمين سويد وغيرهما، وكان سبباً في عدم اهتمامهم بذكره، وكان له أثر في تجاهلهم له عند ذكر تراجم مشايخه أو أقرانه أو أحبابه ممن كانوا يجلّونه ويحترمونه ويعرفون له قدره، وكأني بالذين ترجموا استهجنوا من الشيخ مثل هذه الأشياء فلم يعرفوا له قدره لأنه على نمط لم يعهدوه. أضف إلى ذلك أنّ كثيراً من المترجمين –وخاصة الذين يترجمون لشيوخهم أو ذويهم– يهتمون بالعناوين أكثر من المضامين، فيؤخذون بحملة الألقاب والإجازات والمرويات وأصحاب الأسانيد، وبعضهم

---

[425] ورد ذكر الشيخ بشكل مقتضب في كتاب تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، لمطيع الحافظ ونزار أباظة. وفي كتاب علماء القرن الرابع عشر الهجري، لمحمد عبد اللطيف فرفور، وفي كتاب معجم الأسر والأعلام الدمشقية لمحمد شريف الصواف.

[426] انظر فقرة الإنكار على الشيوخ إذا خالفوا الشرع، مع الحاشية.

يؤخذ بأصحاب الجاه والمناصب ونحو ذلك، والشيخ يحيى كان بعيداً كل البعد عن هذا، فلم يكن متنفذاً، ولم يتقلد منصباً في حياته، ولم يأخذ قرشاً ولا فلساً على منصب حكومي أو غير حكومي، فلم يعتل منبراً في حياته، ولم يصلّ إماماً على مدى عمره المديد، ولم يهتم بالألقاب العلمية ولا بالإجازات التي يهتم بها كثير من أهل العلم عادة، ولم يكن له أدنى اهتمام بجمع الأسانيد ونقل الروايات، ولا بكثرة الشيوخ، ولا بغرائب العلوم وما شابه ذلك، فقد كان همّه صلاح قلبه ورضوان ربه، كما روي عن عبد الله بن المسور –رضي الله عنه– أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله علّمني من غرائب العلم، قال: "ما فعلت في رأس العلم فتطلب الغرائب؟" قال: وما رأس العلم؟ قال: "هل عرفت الرب؟" قال: نعم، قال: "فما صنعت في حقه؟" قال: ما شاء الله، قال: "عرفت الموت؟" قال: نعم، قال: "ما أعددت له؟" قال: ما شاء الله، قال: "انطلق فأحكِم ها هنا ثم تعال أعلمك من غرائب العلم"[427].

ومما له أثر مهمّ في ذلك أيضاً: أنّ الشيخ لم يخلّف طلاباً وتلامذة كبقية العلماء أثابهم الله، ولم يكن له مريدون يلقنهم الطريق كما يفعل مشايخ الطرق، إذ أنه لم يكن يعطي ورداً خاصاً أو إذناً أو نحوه مما يكون من مشايخ الطرق، وكذلك لم يؤلف كتباً تؤخذ عنه وتروى، ولا طلاباً تفقهوا به أو رووا عنه، وإنما ترك محبين وتلاميذ من خلال دروسه العامة أو مجالسه الخاصة، ومعلوم أنّ الدروس العامة لا تربي طلاباً خاصّين يُحسبون على الشيخ؛ بل توجّه المجتمع بشكل عام وتخاطب العوام أكثر مما تخاطب الخواص، فكلّ هذا كان له أثر كبير أيضاً في غياب ذكر الشيخ على لسان كثير من أهل العلم الذين عاصروه أو جاؤوا بعده، والله أعلم.

[427] أبو نعيم في الحلية (24/1).

التلامذة والمريدون

قلت فيما تقدم أنّ الشيخ لم يكن يربي طلاباً وتلامذة على طريقة العلماء الذين يعتنون بتدريس العلوم الشرعية وتخريج العلماء، وكذلك لم يكن رحمه الله داعية لطريقة من الطرق الصوفية بعينها، فلم يكن له مريدون يلقنهم الطريق أو يسلكهم على طريقة أهل التصوف، ولم يكن يدعو لفرقة معينة ولا إلى جماعة أو عصبة، بل كان يلقي الدروس العامة في الوعظ والإرشاد، ومعظمها تخاطب العامة وبسطاء الناس، وتعلقهم بحب الله وحب رسوله، ورغم أن دروسه العامة كانت تمتلئ بالحضور ويجتمع فيها العدد الكبير، ومع أنّه كان يتقاطر إليه الناس سعياً منهم للتبرك بتلك الأنفاس، إلا أنّ مثل هذه الدروس العامة لا تخلف طلاباً ولا تلامذة، ولكنها تخلّف محبين ومعجبين تترك فيهم الأثر الطيب وتعلمهم القيم والأخلاق.

وبما أنّ الشيخ كانت له مجالس خاصة في بيته وغير بيته، فمن الطبيعي أن يكون له محبون لازموه ولازموا مجالسه الخاصة فأحبوه وانتفعوا به، وكانوا لا يخالفونه في كبيرة ولا صغيرة، ولا يخرجون عن مشورته ونصحه، وإنه من الواجب عليّ أن أذكر لهم ذلك وأن أشير إلى أسمائهم، وإني لم أستطع أن أحصل على أسماء جميع خواصه وتلامذته، إضافة إلى أنني لم أستطع في بعض الأحيان أن أميز بين المتتلمذ والمحب، إذ أن كثيراً جداً من المحبين التفوا حول سيدي يحيى رحمه الله، وكانوا معه في أغلب مجالسه، كما كانوا يكونون مع غيره من العلماء، والمنصف لا يستطيع أن يعدهم إلا تلامذة ومحبين للجميع.

أشهر هؤلاء التلامذة هم:

الشيخ العارف يونس الشريجي رحمه الله، وكان من أهل الكرامات، وهو من أخص تلامذته، ومن أكثر من انتفع به.

والشيخ يحيى أحمد الفاسي (ت:1993م) إمام مسجد العمري بقدسيا.

وسيدي الوالد الشيخ حسن، فلم يتتلمذ على أحد في حياة سيدي يحيى تأدباً معه، والشيخ الدكتور صلاح الدين خير الله، كان كثير البذل والعطاء، يبذل المال الكثير ويوزعه في المسجد، مطيعاً لشيخه يحيى طاعة كاملة، وبقي ملازماً له حتى وفاته، وأخذ عنه الفتوحات المكية، وكان له مجلس فيها بعد وفاة شيخه، وزوّج ابنته لأصغر أبناء الشيخ، ولكن للأسف لم يستمرّ هذا الزواج.

الشيخ أبو جميل توفيق قويدر، وهو من المحبين والمداحين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن النشطاء في العمل الإسلامي، وكان يحضر اجتماعات رابطة العلماء لا بصفة عضو بل بصفة محب للعلماء وناشط في العمل الإسلامي، كان كثير المحبة والملازمة للشيخ يحيى، وكان

كثير العناية بشؤونه وشؤون بيته، ولما سكن الشيخ قريباً من الشيخ سعد في حي المزة كان أبو جميل قويدر هو الذي يدفع أجرة المنزل، وكثيراً ما كان يأتي لزيارة الشيخ حاملاً معه أنواع الأطعمة والفواكه، ولا يبخل على الشيخ بشيء، وكان الشيخ ينهاه عن ذلك ويقول له: كفّ عن هذا، فرزقي على الله وليس عليك! إلا أنّه لم يكن ليكفّ عن كرمه وجوده معه، فلمّا لم ينته عن هذا بعد كثرة الإلحاح من شيخه ما كان من الشيخ يحيى إلا أن منعه من الدخول عليه في إحدى المرات! فمكث ساعة ونصف على باب الدار وهو يترجّى الشيخ ويستسمحه! حتى أذن له، بعد أن أعطاه درساً في هذا.

ومنهم أبو الطيب قويدر رحمه الله تعالى، ومنهم أخوه أيضاً أبو سعيد حفظه الله.

ومنهم الشيخ سليم الصباغ وابنه الشيخ عمر بن سليم الصباغ حفظه الله تعالى، وهو الآن إمام جامع الدر المحمدي في المهاجرين، وله نشاط في العمل الإسلامي والتعليم.

ومنهم الشيخ رجب ديب كما ذكر ابنه في ترجمة أبيه في كتاب (يحدثونك عن آبائهم:162).

ومنهم الشيخ ياسين الزملكاني حفيد شيخه الشيخ أمين الكردي الزملكاني، ومنهم زوج ابنته الشيخ محمد عاشور.

ومنهم الشيخ محمد خير الصباغ، وكان من المنفقين والمتصدقين لله تعالى، والشيخ عبد الهادي الصباغ، والدكتور شكري الفيصل، والوزير السابق يوسف مزاحم.

ومنهم أيضاً: جاره أبو عدنان موسى، والشيخ ديب النشواتي، كان ملازماً له ويروي عنه أشياء عجيبة شاهدها منه زادته به تعلقاً، والشيخ هشام البرهاني وكان شاباً في مقتبل عمره، وكان لحفظه لكتاب الله ومحبة الشيخ له كلما رآه طلب منه أن يقرأ عشراً من القرأن.

وكان قبلة كثير من علماء وطلاب العلم من المحافظات السورية، وكان بعضهم لا تكتمل زيارته لدمشق إلا بزيارة الشيخ يحيى بل ربما أتى خصيصاً لذلك، أذكر منهم:

الشيخ العلامة المحدث عبد الله سراج الدين من حلب، والشيخ الفقيه النحوي محمد ناجي أبو صالح (1904-1991م) من حلب أيضاً، كان يقصد دمشق لزيارته وزيارة الشيخ العارف أحمد الحارون، وكان بينه وبينهما علاقة وثيقة وحميمة[428].

والشيخ الفقيه المقرئ عبد العزيز عيون السود، وشيخي الشيخ وصفي المسدي من حمص، والشيخ المحدث تيسير المخزومي كما هو مذكور في ثبت الشيخ المخزومي، والشيخ العارف الصيدلاني أحمد السراج، من دير الزور، والشيخ صالح بن أحمد الناصر من حلب (ت:1427هـ) أثناء دراسته في كلية الشريعة بجامعة دمشق كما ذكر ولده محمود في ترجمته،

---

[428] علماء من حلب في القرن الرابع عشر الهجري، محمد عدنان كاتبي.

والشيخ موسى عبد الكريم الزيادي (ت:1428هـ) من حلب أيضاً، ومفتي الباب الشيخ محمد سعيد المسعود وكانت له عناية خاصة من الشيخ يحيى[429].

وغيرهم كثير يصعب إحصاؤهم، رحم الله الأموات وبارك في حياة الأحياء ونفع بهم.

---

[429] الربانيون الثلاثة (374)، زكريا المسعود.

قالوا في الشيخ

لقد سمعت ممن قابلتهم –على كثرتهم– كلمات كثيرة عن الشيخ يحيى ومنزلته، كما قرأت فيما قرأت –على كثرته أيضاً– خلال عملي على هذه الترجمة إطراءات تخصّه ملفتة للنظر، رأيت أن اقتطف بعضاً منها لأسجله في هذا الفصل.

والده الشيخ محي الدين الصباغ، رحمه الله:
لو أن ابني يحيى جاء بحبل أو رسن ولفه على عنقي ثم أخذني وباعني في السوق ما نهيته عن ذلك، وكنت عنه راض!!.

الشيخ محمد أبو الخير ميداني، رحمه الله:
الشيخ يحيى هو الوارث المحمدي للشيخ سليم المسوتي.

الشيخ محمد سعيد البرهاني، رحمه الله:
يا بنيّ هؤلاء (أصحاب الأحوال) لا تعتب عليهم ولا تنكر، فهؤلاء يتكلمون بلسان بعض الحاضرين.

الشيخ السيد محمد الهاشمي، رحمه الله:
كان إذا جاءه الشيخ يحيى زائراً يرحب به قائلاً: أهلاً بالقرآن المفتوح.

الشيخ صلاح كيوان، رحمه الله:
والله الحملة التي حاملها الشيخ يحيى لا أحد يحملها.

الشيخ وصفي المسدي، رحمه الله:
كان الشيخ يحيى يجتمع في مجلسه كبار العلماء، فإذا تكلم أنصتوا جميعاً يستمعون إجلالاً له وتقديراً لكلامه.

الشيخ السيد محمد الفاتح الكتاني، حفظه الله:

كان الشيخ يحيى يُقرئ الفتوحات المكية وكأنه يستظهرها كلها من حفظه، ويشرحها شرحاً قلّ نظيره.

الشيخ هشام البرهاني، حفظه الله:
هذا هو الشيخ كما عرفته (ويغلبه البكاء قليلاً)، كان الوالد يكنّ له كل تقدير واحترام، ومسلّم له حاله تسليماً مطلقاً، كان السيد مكي والسيد الهاشمي والشيخ أبو الخير الميداني وغيرهم من العلماء ورجال الصوفية يحترمونه ويجلّونه.

الشيخ عمر سليم الصباغ، حفظه الله:
الشيخ يحيى الصباغ والشيخ أحمد الحارون بحران زاخران في الحجة والكرم.

الشيخ ياسين الزملكاني، حفظه الله:
لقد جمعني الشيخ يحيى برسول الله صلى الله عليه وسلم يقظة لا مناماً.

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، حفظه الله:
الشيخ يحيى الدنيا كانت موطئ قدمه، ولم تكن في يوم من الأيام تسربت إلى جانب من فؤاده أو نفسه.

الأستاذ محمود الغراب، حفظه الله:
أنا لم أر نظيراً للشيخ يحيى في تفسير القرآن الكريم، وكان له فيه ذوق فريد، وأنا ألقى الله على أن الشيخ أحمد الحارون كان يلتقي الشيخ الأكبر بن عربي يومياً مرتين في اليوم على الأقلّ وتلقّى منه مشافهة، وليس بمستغرب أن يكون الشيخ يحيى كذلك مع ابن عربي[430].

الشيخ شكري اللحفي، رحمه الله:
من الأولياء من جمع فكان عيسوياً وموسوياً، وقد يكون عيسوياً ظاهراً وموسوياً باطناً، ظاهره جمال، وباطنه جلال، وهكذا كان سيدنا الشيخ يحيى الصباغ، كان جمالياً وفي الباطن جلالياً.

[430] لست مع الأستاذ أبي عبد الله محمود الغراب في ذلك، ولا مع من يقول بهذه الرؤيا الحسية، التي سمعتها من كثيرين من الثقات ممن عرفوا الشيخ أحمد الحارون، ولكني نقلته بحروفه لأمانة النقل.

كلمة أخيرة

يصادف انتهائي من هذه الترجمة (2011م) مرور خمسين عاماً ميلادية على وفاة الشيخ يحيى محيي الدين الصباغ، والحقيقة أنه لم يخطر ببالي ذلك على الإطلاق في بداية عملي على هذه الترجمة ولا حتى في أثنائها، ولكن لفت نظري إليها أخي الأكبر حفظه الله؛ لما عرضت عليه هذه الترجمة، وهكذا فإنّ المشيئة الإلهية قدّرت أن يكون الانتهاء موافقاً لهذه المناسبة، فاستبشرت أن يكون في ذلك إلماحات وإشارات مفيدة.

ولا بد أن أُوأكّد وأنا أختم هذا الكتاب أنّ ما أغفلته من حياة الشيخ وأحواله أكثر بكثير مما ذكرته، وإنّي أجزم أنّه غابت عني أشياء كثيرة أساسية، وجوانب عديدة مهمة من حياة هذا العلَم، مما يمكن أن يُعدّ ثغرة في هذا الكتاب لم أتمكن من سدّها، ومساحة واسعة فارغة في هذه الترجمة لم أستطع تغطيتها، وفوتاً كبيراً لم أستطع تداركه، فرغم أني –كما أسلفت– تصفحت أسفار القوم من جميع مظانّها، وأجَلت أقداح النظر في أنجادها وأغوارها، واستنفدت جهدي في الاستقراء البالغ والبحث عمن عاصروا الشيخ وشهدوا أحواله، فما صادفت ما يشفي صدري وينقع غُلّتي، وما ذلك إلا لأنّ الموت غيّب كلّ من يعرف هذه الجوانب المهمة في حياة هذا الرجل الرباني، فضلاً عن الأحداث الجزئية والتفاصيل الفرعية، لكني أستطيع أن أزعم بكل ثقة –رغم كل ذلك– أنّ ما ذكرته في هذه الترجمة كاف –بحول الله– في إعطاء القارئ صورة صادقة عن مجمل حياة الشيخ وأحواله، وكاف في تسليط الضوء على كثير من الجوانب المهمة من شخصيته وإبراز أهم ملامحها، وخاصة أنّي لاحظت أنّ كثيراً ممن عرف الشيخ عرفه كوليّ من الأولياء وكعارف بالله، وأنه صاحب كرامات وأحوال، وهذا حق لا شكّ فيه، ولم يعرِفه كعالم راسخ، ومفسر ملهم، وواعظ مؤثر، فقد خفي تماماً على كثيرين أنه عالم متمكن تتلمذ على عدد من العلماء في طفولته، وفي مقتبل شبابه، وإلى صدر من حياته، حتى غدا متمكناً من علوم أهل الشريعة والحقيقة، وقد يكون مردّ خفاء هذا عليهم غلبة أحوال أهل الله والولاية وصفات العارفين على الشيخ.

وأرجو أن أكون قد وفقت في هذه الترجمة في توضيح بعض الحقائق وكشف بعض الدقائق، وتجلية شيئ من معالم الأخلاق النبويّة ومعانيها في حياة سيدي يحيى، مع الاستدلال لهذه المعاني بأمثلة حية من واقع حياة الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم، وسيرة السلف الصالح رحمهم الله، بما ينفع طلاب العلم ويشجعهم ويحثّهم على التحلّي بهذه الأخلاق والتأسّي بأولئك الأصحاب وأتباعهم من الصالحين، وبما يؤكد أنّ ثمرة العلم إنما هو العمل والتطبيق، وأنّ ثمرة محبة الله ورسوله إنما هي الامتثال لأوامر الشرع، والاتباع والانقياد الكامل له.

لقد أكرمني الله عز وجلّ –ببركة سيدي الشيخ يحيى وببركة إخوانه العلماء الذين مرّ ذكرهم في هذا الكتاب– بالتشرف بزيارة ومجالسة كثير من العلماء والصالحين وأهل الفضل والمعمّرين الذين كان لهم الفضل في كثير من التفاصيل التي ذكرتها، فانتفعت بمجالستهم وعادت عليّ بركة هذه المجالسة روحاً وفكراً، وأيضاً استفدت وانتفعت أثناء بحثي وقراءتي في كتب التصوف وتراجم الأوائل والمتأخرين بالإضافة إلى المعاصرين، التي اضطررت الى الرجوع إليها للاستفادة منها في إغناء وإثراء هذه الترجمة، فاغترفت معان عالية وسامية، وعشت مع رجال عظماء سرت أرواحهم إلى روحي فأمدّتني –بفضل الله– بزاد كبير من السكينة والصفاء.

وفي الحقيقة ما أنا مع عملي لهذه الترجمة إلا كما قال حسان بن ثابت –رضي الله عنه–:

وما مدحت محمداً بمقالتي   ولكن مدحت مقالتي بمحمد[431]

وأكرر ما قلته في المقدمة بأني أتوقع أن يصلني كثير من الاعتراضات على كثير مما مرّ في هذا الكتاب رغم أني أخفيت ونحيّت كثيراً مما تيقنت أنّ سيف الاعتراض سيكون مسلطاً عليه.

وأكرر أني أحتسب عند الله تعالى كل أذى سيصلني من غيبة واتهام بالبدعة وغيرها بسبب بعض أبحاث هذا الكتاب التي هي محل استهجان واستنكار من فئة من أهل العلم المحسوبين على نهج معيّن.

وختاماً أسأل الله تعالى أن أكون قد قدمت من خلال هذه الترجمة ما ينفعني بعد مماتي، ويكون ذخيرة لي عند ربي، كما أسأله تعالى أن يجعل من هذه الإضاءة على حياة هذا الشيخ الطاهر السيرة، النقي السريرة، والذي كان حاضراً يُرى فصار تاريخاً يُروَى، وعلى بعض من عاصره من الأولياء النجباء، والأطهار الأخيار، في تلك الحقبة من الزمن، رمزاً لمحبة العلماء والصالحين، وعنوان الوفاء لما قدّموه وبذلوه من أجل هذه الأمة.

[431] المثل السائر لابن الأثير(2/357)؛ صبح الأعشى للقلقشندي (2/231).

صفحات من كراسة الشيخ وبخطه

هذه بضع صفحات مصورة من كراسة الشيخ يحيى الخاصة، اخترتها بعناية وحرصت أن تكون متنوعة تنمّ على تنوع علم الشيخ، في اللغة والفقه والتوحيد والتفسير، وغير ذلك، كما تعطي فكرة عن تذوقه للشعر الصوفي، ومحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، كما تعطي فكرة عن تفسيره الإشاري لكتاب الله عز وجل، ومدى غوصه في عمق الآيات القرآنية. كما تترك لنا هذه الصفحات المختارة والمنتقاة من الكراسة المذكورة فرصة التعرف على خط الشيخ وطريقته في الكتابة، والاطلاع على توقيعه الخاص الذي كان يذيّل به كتبه ورسائله، وفي هذا فرصة للمتذوقين ومحللي الخطوط الذين يغوصون في أعماق الشخصية من خلال خطها؛ لعلهم يتعرّفوا على شخصية الشيخ يحيى من خلال خطه وطريقته في الكتابة، إن كان لهذا العلم مصداقية في أرض الواقع.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قال تعالى جب

ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً

وقال تعالى أيضاً

يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة

الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء

فإن التثبيت للمؤمنين حصل بالقول الثابت

والتثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم حاصل

بالفضل لكون محمد للمؤمنين هو والد لهم

هو أبوهم وأزواجه أمهاتهم صلى الله عليه وسلم

أجمعين

كان عليه الصلاة والسلام
في المجلس الواحد يقول سبعين
رب اغفر لي وتب علي انك انت
التواب الغفور لقد انزلت عليه اذا جاء
نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون
في دين الله افواجا فسبح بحمد ربك واستغفره
انه كان توابا رب اغفر لي وتب علي انك
انت التواب الغفور ويقول استبالا
ربنا رب اغفر وارحم وانت خير الراحمين

مجاهد صابر

٧٥٢

٢٥

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد

ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا

هذا هو الكافر المنكر ليوم القيمة ويوم الحشر

ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن بالقيمة والحشر

فأولئك كان سعيهم مشكورا كلا نمد هؤلاء

وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك

محظورا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحميد المجيد هما اسمان لكل لفظ زيادة

بمعنى الحامد والمحمود والماجد وغيره

فعيل بمعنى الفاعل والمفعول

وقتيل بمعنى القاتل والمقتول

وعليم بمعنى العالم والمعلوم

٧٤

١١ ٤

بسم الله الرحمن الرحيم

وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو

وان يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير

وان يمسسك الله بضر فلا كاشف

له الا هو وان يردك بخير فلا راد

لفضله يصيب به من يشاء من عباده

وهو الغفور الرحيم

هذا هو التوحيد الخالص توحيد الافعال

وان ظهرت من المخلوق فانما هي كلها

من حيث صاحب بحكم صاحبها

عش ولا تطلب معاشا
من لئيم
ولا تيئس للعيش
محروما للفقراء انما الرزق
على الله الكريم

موعظة

يا من بدنياه اشتغل وغرّه طول الأمل
ولم يزل في غفلة حتى دنا منه الأجل
الموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل

[illegible]

قال تلميذ للشيخ محمد رضي الله عنه
أتأذن لي أن أشرح التائية
فقال الشيخ كم مجلد شرحها
فقال التلميذ بمجلدين
فقال الأستاذ رضي الله عنه إذا شرحت
كل بيت منها بمجلدين أشرحها
يحيى الصباغ

٥٨

ونحن الذوات جميعاً لأن زمن الكافر
الذي لم يستمع لرسول الله وتحشّى عن
تلك أهل السكر والأسلحة بالتاريخ هذا الإنسان
الكامل الذي هو رسول الله وحبيبه الحق الأكبر
الهادي الأعظم والنبي الطيب الأجمل
سعادة من صدقه وآمن به واتبعه فيكون
لنفسه العالم وتكون متبعه سيد الناس
السلام

يحيى الصباغ

ثبت المراجع والمصادر

1- **الكتب:**

- الحديث الشريف وبعض التفاسير.
- أبو شامة مؤرخ دمشق، إبراهيم الزيبق.
- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي.
- الأربعين في أصول الدين، أبو حامد الغزالي.
- أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب، محمد بن درويش الحوت.
- الأعلام، خير الدين الزركلي.
- الاقتصاد في الاعتقاد، أبو حامد الغزالي.
- تاريخ العثمانيين، محمد سهيل طقوش.
- تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، مطيع الحافظ ونزار أباظة.
- ترشيح المستفيدين على فتح العين بشرح قرة العين، السيد علوي بن أحمد السقاف.
- التصوف في الإسلام، منابعه وأطواره، محمد الصادق عرجون.
- التعرف لمذهب أهل التصوف، أبو بكر الكالاباذي.
- حلية الأولياء، أبو نعيم.
- حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، عبد الرزاق البيطار.
- الداعية المربي الشيخ حسن حبنكة الميداني، عبد الرحمن حبنكة الميداني.
- الدرر اللؤلؤية في النعوت البدرية، محمود الرنكوسي.
- دمشق، صور من جمالها وعبر من نضالها، علي الطنطاوي.
- دمشق في مطلع القرن التاسع عشر، أحمد حلمي العلاف.
- ذكريات علي الطنطاوي.
- رجال من التاريخ، علي الطنطاوي.
- الرسالة القشيرية، أبو القاسم عبد الكريم القشيري.
- الرسالة المستطرفة، محمد جعفر الكتاني.
- شرح جوهرة التوحيد، إبراهيم الباجوري.
- الشيخ المجاهد محمد الحامد، عبد الحميد طهماز.
- العلامة محمد الهاشمي مربي السالكين، عبد الحميد الهاشمي.
- طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي.
- الطبقات الكبرى، عبد الوهاب الشعراني.
- الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية، أحمد بن محمد بن عجيبة
- الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي الحاتمي الطائي.
- فهرس الفهارس، محمد عبد الحيّ الكتاني.
- القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، محمد بن طولون الصالحي.
- قواعد التصوف، الشيخ زروق.

- كراسة الشيخ يحيى الصباغ الخاصة بخطه أو إملائه (فيها خواطره وبعض أفكاره).
- كشف الخفاء ومزيل الإلباس، العجلوني.
- كشف الغطاء عما يحصل لبعض السالكين من الخطأ، سالم باصهي.
- مجتمع مدينة دمشق، د. يوسف نعيسة.
- مجمع الأحباب وتذكرة أولي الألباب، محمد بن الحسن الواسطي.
- المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني، يسرى الدركزنلي.
- المحدث الأكبر شيخ شيوخ الشام، محمود البيروتي.
- معراج التشوف إلى حقائق التصوف، أحمد بن محمد بن عجيبة.
- مقدمات الإمام محمد زاهد الكوثري.
- مقدمات نهاية المطلب، محمود عبد العظيم الديب
- منتخبات التواريخ لدمشق، محمد أديب الحصني.
- منهاج العابدين، أبو حامد الغزالي.
- المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، الأمير عبد القادر الجزائري.
- هذا والدي، سعيد رمضان البوطي.

2- المواقع الالكترونية من الانترنت:

- مقالة من الانترنت مقتبسة من كتاب دمشق نزار قباني.
- موقع صدى زيد (sadazaid.com).
- موقع الفسطاط (fustat.com).
- موقع النور (nuronline.com).

3- المشافهات:

4- أبناء الشيخ يحيى الصباغ.
5- أحفاد الشيخ وأسباطه.
6- شيخي الشيخ وصفي بن أحمد المسدّي.
7- شيخي الشيخ أسامة بن عبد الكريم الرفاعي.
8- الشيخ عمر بن سليم الصباغ.
9- الشيخ السيد محمد الفاتح بن محمد المكي الكتاني.
10- الشيخ هشام بن محمد سعيد البرهاني.
11- الشيخ ياسين الزملكاني (حفيد شيخ المترجَم).
12- الشيخ المعمر أبو حسين محمد بدر الجوبراني.
13- الشيخ الدكتور زهير الناصر.

14- الشيخ محمد التاجي.

15- الأستاذ الدكتور مازن بن عبد القادر المبارك.

16- الأستاذ بدر الدين الحسني (ابن حفيد شيخ المترجَم).

17- الأستاذ محمود الغراب.

18- الشيخ أبو نعيم عبد الماجد الحناوي.

19- الشيخ عبد الفتاح السيد.

20- الشيخ محمد خير المسلماني

21- الحاج أبو سعيد محمود قويدر.

22- الحاج علي قويدر.

23- الحاج أبو عصام تيسير التخين.

24- الحاج المداح أبو عادل ياسين الكردي.

25-

4- **مذكرات المؤلف.**

المحتوى

الموضوع **رقم الصفحة**

2- الشيخ الأكبر وتحقيق المقال فيه
. مصنفاته ووفاته
. حال ابن العربي
. تحقيق المقال فيه
. التحقيق في عدم صحة نسبة كتاب (فصوص الحكم) لابن العربي
. الدس في مؤلفات الشيخ محيي الدين بن العربي
. عقيدة ابن العربي من كلامه

الفصل الثالث:

1- وحدة الوجود ووحدة الشهود والاتحاد والحلول
. ما المقصود بالاتحاد ووحدة الوجود؟
. شرح بعض العبارات الموهمة للحول والاتحاد
. المراد بالوصول والقرب عند أهل التصوف
. طعام الكبار سمّ للصغار

الباب الرابع: علاقاته ومجالسه

الفصل الأول: علاقاته بالخاصة والعامة

1- مع الناس والعلماء
. علاقاته بالعلماء والصالحين
2-مع الشيخ العارف أحمد الحارون.
3- مع الشيخ السيد محمد المكي الكتاني.
4- العلماء والحكام.
5- الشيخ يحيى والسياسة

الفصل الثاني: مجالسه في الوعظ والإرشاد

1- مجالس الشيخ ودروسه
. مجلس التفسير في جامع الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي
. مجلس الوعظ والإرشاد في جامع بني أمية الكبير (الأموي)
. مجلس الفتوحات المكية بالشيخ الأكبر وفي منزله.
. مجالسه العامة المتنقلة